غدا أكهب الأعلى وراحَ كأنه
من الضّحّ واستقباله الشمس أخضرُ[1]

أخبر أنه يدور مع الشمس فى وقت الزوال ، حتى تكون الشمس فى حذاء القبلة ، فكأنّه باستقباله لها فى ذلك الوقت مُسْلِمٌ يصلّى لها ، وفى الضّحى تكون فى وجه المشرق ، فكأنّه نصرانىّ فيستقبلها بصَلاته .

قال ابن الرومىّ :

ما بالُها قد حَسُنَتْ ورقيبُها أبداً قبيحٌ قبـــح الزُّقَباء
ماذاك إلاّ أنّها شمسُ الضحى أبدا يكون رقيبها الحرباء

قوله : وجهته ، أى جهته . والسّدّ : الحاجز بين الشيئين . يحاص : يخاط ، ويقال : حاص ثوبَه وعين صقره وشقوق رجليه حَوْصاً وحياصة : خاطها ، وقيل : الحوص : الخياطة بعد رقعة ، ولا يكون إلا فى جلد ، وأنشد يعقوب :

ترى برجليه شُقُوقا فى كَلَعْ من بارئٍ حِيصَ ودامٍ مُنْسَلِعْ[2]

الكَلَع : الوسخ ، ومنسلع : متشقق . القصاص : أخذ الحق فى الجنايات . وتنهر : توسّع فتره كالنّهر . الفَتْق : الخرق . وتسْرَح : تذهب . لوى عنانه : أماله وعَطفه . جثم : برك . راصعا : لاصقا بالأرض والرّصَع : تباعد مابين الركبتين ، ورصع بالشىء يرصَع رُصوعاً إذا لازمه . استثرتمونى : طَلبتمونى واستخرَجتُم ماعندى . والبحث : المناقشة فى السؤال ، وأصله الصّيد تقول : استثرتُ الصيدَ ؛ إذا بحثتُ عليه حتى تقيمه من مرقده .

[قصة سليمان فى الحرث]

قوله : حكم سليمان فى الحرث . كان سليمان عليه السلام ، فيما ذكروا

(١) أكهب : أغبر إلى السواد . والضح : الشمس ، وقيل الضح : ما طلعت عليه الشمس
(٢) اللسان ـ كلع ، ونسبه وآخر إلى حكيم بن معية الربعى .

أبيض ، وضيئاً ، جسيما كثير الشّعر ، يلبس من الثياب البياض . فلما بلغَ مبلغَ الرجال ، كان أبوه فى أيام مُلكه يُشاوره فى أموره ، وكان هذا الحكم ـ فيما ذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ أن رجلين دخلاَ على داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : يانبيّ الله ، انفلتَتْ غنم هذا فى زرعى ليلا ، فرتَعَت فى حرثى ، فلم تستبق منه شيئا ، فقال له داود : اذهب ، فإن الغنم لك ، فملّكه رقابها بما أكلت من حَرْثه ، فلما خرجا من عنده خطرا على سليمان عليه السلام ، فأخبراه بقضاء أبيه ، فقال : لو وُلِيتُ أمركما لقضيت بغير هذا . فأخبر داود عليه السلام ، فدعاه وقال له : كيف كنت تقضى بينهما ؟ فقال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ، فيكون له رِسْلها ونَسلُها وصوفُها ، ويبذر صاحبها لصاحب الحرث مثل حرثه ، فإذا صار الزرع كهيئته يوم أكل ، أخذ غنَمه . فقال دواد : القضاء ماقضيتَ به ، وحكم بقضاء سليمان عليهما السلام .

وقال ابن مسعود وشريح ومقاتل : أراد بالحرث الكرْم ، وأن الغنم أكلت قضبانه ، فأفسدته ، فحكم بها داود لصاحب الكرْم ، ولم يكن بين الغنم والكرم تفاوت ، فمرُّوا بسليمان عليه السلام ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، فقال : يعمل الراعى فى إصلاح الكرْم حتى يعود كهيئته ، ثم يأخذ غنمه .

ومن عجائب حكم سليمان عليه السلام مارواه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : بينا امرأتان معهما ابناهما ، إذ جاء الذئب ، فذهب بأحدهما ، فقالت : هذه إنماذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنّما ذهب بابنك ، فاختصما إلى داود عليه السلام ، فقضى به للكبرى فمرّتا على سليمان ، فأخبرتاه ، فقال عليه السلام : « ائتيانى بسكين أشقّه بينكما ، فقالت الصغرى :

لا يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصُّغرى » . قال أبو هريرة رضى الله عنه : والله إن كنت سمعت بالسكين قبل ذلك ، ما كنت أقول إلا المُدْية .

قوله : الشمائل : الخلائق والطباع . والشّمول الذهبية : الخمر الحمراء .

* * *

[من وصف الشعراء للخمر]

وذكر فى هذه المقامة أنهم سبئوا قهوة ، وذكر هاهنا أنها فى لونها حمراء ، والعرب تتمدّح بشرب الخمر السبيئة ، وتصفها بالحمرة ، كقول الأعشى ، وهو فى أوصافها فى الجاهليّين ، كالحسن فى الإسلاميين ، وحبُّه فيها صدَّه عن الإسلام :

وَسَبِيْئَةٍ مِمَّا تعتّـــق بابلٌ كدمِ الذبيح سلبْتُها جِرْيالَها[1]

وقوله :

فقمنَا ولمّا يَصْحُ دِيكُنَا إلى خمرة عنـــد حَدَّادِهَا[2]
فقلت له : هـــذه هاتِهـا بأدْماء فى حَبْلِ مُقْتَادِهَا[3]
فقـــامَ فصبَّ لنـــا قهوةً تسكّفُنَا بعـــد إرعادِهَا
كُمَيْتٌ تكشّف عن حُمْرَةٍ إذا ضَرَّجَتْ بعد إزبادها[4]
فجال علينـــا بإبريقه مخضّبُ كفٍّ بفِرْصَادِهَا[5]

(١) ديوانه ٢٧ . والجريال : صبغ أحمر .
(٢) ديوانه ٦٩ ، ٧١ وفيه : « إلى جونة » ، وهى خابية الخمر . والحداد صاحب الخمر ، يحد الناس عنها لنفاسها .
(٣) الأدماء : صادقة البياض .
(٤) كميت : تضرب إلى السواد ، فإذا مزجت ذهب سوادها وصارت حمراء . صرحت : ذهب زبدها .
(٥) الفرصاد : التوت ؛ إذا كان أحمر اللون

فَرُحْنَا تنغَّمنا نَشْـــوَةٌ تجُور بنـــا بعد إقصادها[1]

وقال أبو ذؤيب :

ولا الرّاح راحُ الشام جاءت سَبِيّةً لها غاية تهدِى الكريمَ عُقَابُهَا[2]
عقارُها كالتِّبر ليستْ بِخَمْطَةٍ ولا خُلَّةٍ يكوِى الشروبَ شِهَابُهَا[3]

وقال الحسن :

وخَمّارٍ أنختُ عليـــه ليلاً قلائصَ قد تَعِبْنَ من السِّفار[4]
فجمجم والكرَى فى مُقْلَتَيْهِ كمخمورٍ شـــكَا ألم الخُمَارِ
أبَنْ لى كيفَ سِرْتَ إلى حريمى وثوبُ اللّيلِ مصبوغٌ بقَارِ
فقلتُ له ترفَّقْ بى فإنى رأيتُ الصُّبْحَ من خَلَلِ الدِّيارِ
فكان جوابُه أن قَال كلاَّ وما صُبْحٌ سوى صُبْحِ العُقَارِ
وقام إلى الدِّنان فسدَّ فاها فعـــاد الليلُ مسدولَ الإزَارِ

وقال عبد الصمد :

وخيمةِ نَاظُورٍ تَحُفُّ بروْضةٍ يُحَيِّيكَ منها وردُها والبَنَفْسَجُ
وأشْمَطَ أعلَى وسطِها بعد هجمةٍ تراهُ بها من قـــره يتشنّجُ
دعوتُ فلبّى وهو بالصوتِ عارفٌ وأقبل نحو البابِ يزْهُو ويهرجُ

---

(١) تجور : تميل . وفى ط : « قصادها » تحريف ، والصواب ما أثبته من الديوان .
(٢) ديوان الهذليين ٧٢ والعقاب : الراية . وفى الديوان : « تهدى الكرام » .
(٣) فى الديوان : كماء الذىء » ، قال فى شرحه : أراد فى صفائها ، وهو ماقطر من الفحم . والخطة : التى أخذت ريحاً ولم تدرك . وفى ط : «ليست بمحضة» ، تصحيف ، والخلة : الحامضة . وقوله : يكوى الشروب ، أى لها ومض شديد مثل النار . والشروب : الندامى .
(٤) ديوانه ٢٧٥

فقلت له المصباح إن كنت مسرجاً فقال: قفوا فالخمر فى الكأس تُسْرِجُ

* * *

اعْلَمُوا يا ذَوِى الشَّمائِلِ الأَدَبِيّة ، وَالشُّمُوعِ الذهبيّة ، أَنَّ وَضعَ الأُحْجِيَّة ، لامتحانِ الأَلْمعِيّة ، واسْتِخْرَاجِ الخبيّة الخفيّة ، وشَرْطُهَا أن تَكُونَ ذاتَ مُمَاثَلَةٍ حَقِيقيّة ، وألفاظٍ معنويّة ، ولطيفةٍ أَدَبِيّةٍ ؛ فمتى نافَتْ هَذَا النَّمط ، ضَاهتِ السَّقَط ، ولَمْ تَدْخُلِ السَّفَطَ ؛ ولم أَرَكُمْ حافَظْتُمْ عَلَى هَذِهِ الحُدُودَ ، ولا مِزْتُمْ بين المقبولِ والْمَرْدُودِ ، فقلنا له : صَدَقْتَ ، وبالحقِّ نَطَقْتَ ؛ فَكِلْ لَنَا مِنْ لُبابِكَ ، وأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ عُبابِكَ ؛ فقال : أَفْعَلُ لِئَلاَّ يَرْتابَ المبطِلُونَ ، ويَظُنُّوا بِي الظُّنون .

* * *

قوله: «لامتحان الألمعية» ، أى لاختبار الفطنة . نافتْ: باعدت . النّمط : النوع ، يقال : الزم هذا النّمط ، أى هذا المذهَب والفنّ والطريق . ضاهت : شابهت . السَّقَط : ردىء المتاع ومالا يُعبأ به . والسّفط : وعاء لجميع الثياب الرفيعة ، وسفط العلوم: الكتُب، أى لم تكتب ولم تدوَّنْ فى الكُتب . مِزْتم : فرّقتم . لُبابك : خالص ماعندك . أفِضْ : صُبّ . عبابك : بحرك، وعبّ البحر عُبَاباً هاجَ واضطرب : يرتاب : يَشُكّ .

* * *

ثم قابلَ ناظورةَ القوم ، وقال :

يا مَنْ سَمَا بذكاءٍ في الفضلِ وَارِي الزّنادِ
ماذا يعـائِلُ قولي: جُوعٌ أَمِـدَّ بزادِ

ثم ضحك إلى الثاني وأنشد :

ياذا الّذي فاق فَضْلاً ولم يُدَنِّسْهُ شَيْنُ
ما مثلُ قولِ المحاجي: ظَهْرٌ أَصابتْهُ عَيْنُ

ثم لحظ الثالث وأنشأ يقول :

يا مَنْ نتائج فِكْرِه مثل النقود الجائزهْ
ما مثلُ قولك للّذي حاجَيْتَ: صادفَ جائزهْ

ثم أتْلَع إلي الرابع وقال :

أَيا مُسْتَنْبِطَ الغامـــــضِ مِنْ لُغْزٍ وإضمارِ
أَلا اكشِفْ لِيَ مامثلُ: تناوَلْ أَلفَ دينـارِ

ثم رمى إلى الخامس ببصره، وقال :

يأَيُّهـذا الألْمعِـــيّ أَخُو الذّكاء المنجلِي
ما مثل أَهْمَلَ حِلْيَـةً بَيِّنْ هُديتَ وعَجِّلِ

* * *

ناظورة القوم : كبيرُهم الّذي ينظرون إليه . سما : ارتفع . ذكاء : جَوْدة الذّهن . وارى: مبدى النار ، أى زنده متى ضرب أورَى نارا . فاق : فَضَلَ غيرَه . النتائج : مايولّده الفكر من الكلام . النقود : الدراهم . أتلع : مدّ

عنقه ونصبه ، وتلع الرجل يتلع تلعا : أخرج رأسه من شيء كان فيه . مستنبط : مستخرج . الغامض : الخفيّ ، وغمض غموضا : دقّ وأحوج إلى النظر ، والألمعيّ : هو الذّكي ، أي صاحب الفطنة .

• • •

ثم التفت لِفتَ السادس وقال :

يا مَنْ تقصّرُ عن مدا ... هُ خطا مُجارِيهِ وتضعُف

ما مثل قـــولِك للّذي ... أَضْحَى يحاجيك: اكفُفِ اكفُفِ

ثم خلَج السابعَ بحاجبه وقال :

يا مَنْ له فِطْنةٌ تجلّتْ ... ورُتبةٌ في الذّكاء جلّتْ

بَيِّنْ فما زِلْتَ ذا بيـان ... مامثل قولى:الشّقيق أفلتْ

ثم استَنْصَت الثّامنَ وأنشد :

يا مَنْ حدائق فضـــلِه ... مَطْلولةُ الأزهارِ غضّهْ

ما مِثلُ قولِكَ لِلْمُحاجِي ... ذِي الحِجَى: ماالختارَفِضّهْ

ثم حدج التاسع ببصره ، وقال :

يا مَنْ يشارُ إِلَيْهِ في الـــقَلْبِ الذَّكِيِّ وفي البراعَهْ

أَوضِحْ لنا ما مثلُ قوْ ... لِكَ للمحاجِي :دُسْ جماعَهْ

قال الرّاوي : فَلَمّا انتهى إليّ ، هزّ مَنْكِبَيّ ، وقال :

يا مَنْ له النُّكتُ التي ... يُشْجِي الخصوم وينكُتْ

أنت المبينُ فقل لنـا ... مامثلُ قولى:خالِيَ اسكُتْ

التفت لفت ، أى قصد قصده بالنظر ، ولفت عنقه إلىّ ، أى لواها ناظرًا إلىّ .
حداه : غايته . خلج : غمز ، وقال الراجز .

* قد خلجتْ بحاجبٍ وعينِ *

تجلّت : ظهرت . جلّت : عظمت . واستنصت: سكّت . حدائق : بساتين .
مطولة : أصابها الطلّ . غضّة : ناعمة . الحِجا : العقل . حَدَج : رمى . البراعة : الفصاحة ووفور العقل . يشجى : يغصّ ، والغصص: الاختناق . ينكت: يَقْلِبُهُمْ على رءوسهم ، وطعنه فنَكَتَه : ألقاه على رأسه ، وعند القضاعىّ يشجى ، وينكت ، أى يسكت على ذلك .

* * *

ثمّ قال : قدْ أَنهلتُكُمْ وأمْهلتُكُمْ ، وإنْ شِئْتُمْ أن أُعَلِّكُمْ عَلَلْتُكُمْ .

قال : فَأَجْأنا لَهَبُ الْعُلَلِ ، إلى اسْتِسْقَاءِ الْعَلَلِ ؛ فقال : لَسْتُ كَمَنْ يَسْتَأْثِرُ على نَدِيمِهِ ، وَلاَ مِمَّنْ سَمُنَهُ فى أَدِيمِهِ . ثم كرَّ على الأول وقال :

يا مَنْ إذا أَشْكَلَ المعمَّى جَلَتْهُ أفكارُه الدقيقَهْ
إنْ قَالَ يوماً لَكَ المُحاجِي : خذ تِلْكَ ما مثلُهُ حقيقَهْ

ثمّ ثَنَى جَيدَه إلى الثانى ، وقال :

يا مَنْ بَدَا بيانُهُ عن فضلِهِ مبيّناَ
ماذا مثالُ قولِهم : حمارُ الوحش زُيِّناَ

ثم أوحى إلى الثالث بلَحْظِهِ ، وقال :

يا مَنْ غدا فى فضلِهِ وذكائِهِ كالأصْمَعِى
ما مثل قولك الّذِى حاجاك : أنفق تَقْمَعِ

ثم حَملق إلى الرابع وأنشد :

يا من إذا ما عويصٌ دجا أنار ظلامَهْ
ماذا يماثل قولى : استنشِ ريحَ مُدامَهْ

ثم أومض إلى الخامس ، وقال :

يا مَنْ تنزّه فهمُه عن أن يُرَوِّىَ أَوْ يُشكّا
ما مثـــــل قولِك للذى
أضحى يُحاجى : غَطّ هَلْكَى

* * *

أنهلتكم : أسقيتُكم ، والنَّهلَ : الشّرب الأوّل ، والعَلَل : الشرب الثانى
أعُلّكم : أسقيكم عَلَلاً . لهبُ الغَالَ ، أى حرّ العطش . يستأثر ، أى يخصّ نفسه بشىء دون أصحابه . سَمْنُه فى أديمه : أى خَيْره موقوف عليه ، والأديم هنا : زقّ السمن ، وأصل المثل : سمنكمُ هُريقَ فى أديمكم ، أى خيركم موقوف عليكم ؛ قاله أبو عبيدة . وخطأ البكرىّ فى تفسير الأديم بالزّقّ ، وقال : إنّما الأديم هنا طعامكم المأدوم ، فعيل بمعنى مفعول ، أى خيرهم راجع إليهم ، وهو قول الأزهرىّ رحمه الله ولم يذكر الأوّل ، وهو مثلٌ يُضرب للبخيل ولمن لا يتعدّاه خيرُه ، وينفق على نفسه دون غيره . وقمعه يقمَعُه : ضربه بالمِقمعة ، أى قهره وكفّه ، وقمع الشرابُ وأقمع : مرّ فى الحلق مرًّا بغير جَرْع . كرّ :

عطف . جيده : عنقه . أوحى : أشار . حلق : أحدّ النّظر . عويص : صعب . دَجَا : اسودّ . أنار : جعل فيه النور . تنزّه : تباعد . يروّى : يفكر ، وقد روّأت الحديث ، إذا دبّرْتَهُ وهيّأته .

* * *

ثم أقبل إلى السادس ، وأنشد :

يا أخا الفِطْنةِ الّتى بانَ فيه كمالُهُ
سار باللّيلِ مُدّةً أىّ شىء مِثــالُه

ثم نحَا بصَره إلى السابع ، وقال :

يا مَنْ تحلّى بفهمٍ أقامَ فى النّاسِ سُوقَهْ
لك البيــان فبيِّنْ مامثلُ :أحْبِبْ فرُوقَهْ

ثمّ قَصَدَ قَصْدَ الثامنِ ، وأنشد :

يا مَنْ تبوّأ ذِرْوةً فى المجدِ فاقَتْ كُلَّ ذِرْوهْ
مامثل قولك: أَعطِ إبْـ ريقًا يلوحُ بِغَيْرِ عُرْوة

ثم ابتَسَم إلى التاسع ، وقال:

يا مَنْ حوَى حسن الدِّرَا يهِ والبيان بغير شَكِّ
ما مثل قولك للمُحـا جى ذي الذّكاء:الثورُ يلْكِى

ثم قبض بجُمعه على رُدْنِى ، وقال :

يا مَنْ سما بثقوبِ فِطْنَتِهِ فى المُشْكِلاتِ ونور كَوْكَبِهِ
ماذا مثال صَفِير جَحْفَلَةٍ بَيِّنْهُ تِبيانا يَتِمُّ بِهِ

* * *

بان : تبين . تحلّى : تزيّن . تبوّأ : نزل . والذّروة : أعلى الشى .
تُقوب : نفوذ .

* * *

قال الحارثُ بن هَمّام : فلمّا أطْرَبنا بِمَا سمعناه ، وَطالَبنا مكاشفةَ مَعْناه . قلنا له : لسنا من خيْلِ هذا الميْدَان ، ولا لنا بحلّ هذه العُقَد يَدَان ، فإن أبَنْتَ مَنَنْت ، وإن كتمتَ غممْت . فظَلَّ يُشاوِرُ نَفْسَيْهِ ، ويُقَلِّبُ قِدْحَيْهِ ، حتى هان بذل الماعون عليه .

فأقبل حينئذٍ على الجماعَة وقال : يا أهْلَ البَلاَغةِ والبَراعة ، سَأُعَلِّمُكُمْ ما لم تكونوا تَعْلَمُونَ ، ولا ظننتُمْ أنّكُمْ تُعَلَّمُونَ . فأوكُوا عليه الأوْعِيـة ، وروِّضوا بِهِ الأنْدِية . ثم أخـذ فى تفسيرٍ صَقَلَ بِهِ الأذهان ، واستَفْرَغَ مَعَه الأردان ، حتّى آضتِ الأفهامُ أنْوَر من الشّمْس ، والأكمامُ كأنْ لم تَغْنَ بالأمْسِ .

* * *

أبنت : بيّنت . منّت : أفضلك علينا . نفسيه : أراد أنّه يردِّد رأيه : هل يفعل أولا يفعل ؟ فكأنّ له نفسيْن ، يردّد المشورة عليهما حتى يظهر لهما الرأى الأرجح فيهما فيبنى عليه . وقال حويرث العبدىّ :

لكلّ امرئٍ نفسان نفسٌ كريمة ونفس فيعصيها الفَتى أو يطيعُها

وقد تقدّم معنى يقلّب قدحيه . الماعون : المعروف ، وقال يونس :

الماعون فى الجاهليّة : كلّ عطيّة ومنفعة ، وفى الإسلام الزكاة والطاعة . وقال ابنُ عباس : الماعون المعروف كلّه حتى ذكرَ القِدْر والقَصْعة والفأس .

وحكى الفَنجديهىّ عن ابن عباس : الماعون العاريّة ، وقال الماعون : اسم جامع لمنافع البيت ، كالقِدْر والفأس والماء والمِلح ونحوها ، وقال الأعشى :

بأجود منه بماعونِهِ إذا ما سماؤهم لم تَغِمْ[1]

والأظهر فيه ، أنّه من العون ، وأصله معوون بوزن « مفعول » ، فقدّمت الواو التى بعد العين ، فصار موعون ، ثم قلبت ألفا كما قيل : يا جل[2] . وحكى الفراء عن بعض العرب : الماعون الماء ، فيكون على هذا مفعولاً من العين ، ويُعَلّ كعالّ من العوْن ، أو يكون فاعولاً ، من مَعَن الماءُ ، إذا سال . وهو أيضاً قول مَن اشتقه من قولهم : مُعِنّ هربا ، أو من قولهم : عين مَعين . قال قُطرب : ماعون فاعُول من المعن ، وهو الشىء اليسير ، ومنهم من قال : أصله معونة ، والألف بدل الهاء .

قوله : أوْكُوا : أى شدّوا . روّضوا : زيّنوا ، واجعلوها مثل الرياض . الأردان : الأكمام . آضت : رجعت أذهانهم مضيئة بالفهم وزال عنها الالتباس . تغنَ بالأمس ، يريد أنّ أكامهم كانتْ بالأمس ممتلئة بالدراهم ، فتفرّغت اليوم إذ وهبوا له ما فيها .

* * *

ولما همّ بالمَفَرّ ، سُئِل : أين المفرّ ؟ فتنفّس كما تَتَنفّسُ الثّكُول ، ثم أنشأ يقول :

(١) ديوانه ٣٩ . (٢) ياجل ، أصله يوجل .

كُلّ شِعب لِيَ شِعْبُ وبه رَبْعِيَ رَحْبُ
غَـيْرَ أَنِّى بِسَرُوجٍ مُسْتَهَامُ الْقَلْبِ صَبُّ
هى أرضى البِكْرُ والجَوْ الّذِى مِنْهُ المهبُّ
وإلى روضتِها الغَنّـا ءِ دُونَ الرَّوضِ أَصْبو
ما حَلاَ لى بعدَها حُلْـ ـوٌ ولا اعْذَوذبَ عَذْبُ

قال الرّاوى : فقلت لأصحابى : هذا أبو زيد السَّرُوجى ، الّذى أَدْنَى مُلَحِه الأحاجى ، وأخذتُ أصِفُ لَهُمْ حُسْنَ تَوْشِيَتِهِ . ثمّ التفتُّ فإذا بِهِ قَدْ طَمَر ، وناء بما قَمَر ؛ فعجِبْنا مما صَنع إذْ وَقَعَ ، وَلَم نَدْرِ أين سَـكَعَ وصَقَعَ .

* * *

المفرّ : المهرب . المَقرّ : المنزل والبلد . الثّـكول : المرأة الثّـكْلَى الفاقدة لأحبابها . شِعْب ، أى طريق ، أى كلّ بلد لى بلد . ربْعِى رَحْب ، أى منزلى متّسع . المستهام : الذى غلب الحبّ على قلبه فخرج هائما على وجهه لا يَدْرى أين يتوجّه ، وهام يَهِيمُ : ذهب عقله فخرج فى غير الطريق ، وقيل : الهائم : العليل القلب ، الّذى يجد فى قلبه هُياماً ، وهو وجَعٌ يَجِدُه البعير ، فلا يروَى من شرب المـاء : قال عروة بن حزام :

بى اليأس أو داء الهُيَام أصابنى فإيّاك عنّى لا يكُنْ بك مابيا[1]

(١) اللآلى ٢٢٦.

أو يكون من التهويم ، وهو هجوم النوم ، وهو فى الأوجه الثلاثة اسم مفعول ، وكان قياسه مستهيماً إلاّ أنه لما كان كأنه مغلوب على ذلك ، جاء على هذا وحذف « به » لدلالة المعنى . والصّبّ : العاشق . البِكْر : التى ولدت بها . الجوّ : اسم لنواحى السماء . مهبّ الريح : موضع هُبوبها من الجوّ ، وأراد بلدته التى يجىء منها ويخرج عنها للبلاد . الغَنّاء : الكثيرة الأشجار ، وتقدّمت علّتها . أصبو : أميل . أدنى : أقل . توشيته : تزيينه كلامه . مشيئه : إرادته . طَمَرَ : وثب ، وهو من الأضداد يقال : طمرتُ الشىء : سترتُه ، وطمر الجرح سَفُل وعَلاَ أيضاً ، ومنه قيل للبرغوث طامر ، لنزوّه وارتفاعه . ناء : نهض . قَمَرَ : حازه بالقمار . سكع : مشى مَشْىَ المتعسّف . صَقَع : ذهب ، وقيل : لم يدر أين ذهب . والسَّكْع : الذهاب على غير هداية ، والصُّقع : الناحية من الأرض ، وما أدرى أين صَقَع ، أى أىّ ناحية قَصد من الأرض .

* * *

[فصل فى تفسير الأحاجى]

إذا أردت أن تعرف المماثلة فى هذه الأحاجى فتنظر « جوعٌ أمِدّ بزاد » فتقابله بطوامير ، فتقسم هذه اللفظة ، فتقابل القسم الأول وهو « طوا » بقولك : « جوع » فتجده مثله فى المعنى ، وتقابل بالقسم الثانى ، وهو « مير » قولك : « أمد بزاد » ، فتجدة مثله فى المعنى ، والمَيْر الإمداد بالزاد ، ومير الرجل : أعطى نفقة وقوتا لعياله ، فهذه المماثلة الحقيقية التى قدّم ، وكذلك تقابل « ظهر أصابته عين » بقولك : « مطاعين » ، فتجد المَطَا الظهر ، وعِينَ الرجل : أصيب بالعين ، وكذلك صادف جائزة ، هى ألفىْ صلة ، وألفى هى : صادف ، والجائزة هى الصِّلة ، تصل

بها مَنْ قصدك . وإن تركت الألفاظ منظومة بغير تفسيم ، ينتج منها معنًى آخر فيقال لك : ما الطوامير ؟ فتقول : الكتب ، الواحد طُومار ، والمطاعين : جمع مِطْعَان ، وهو الكثير الطعن ، والفاصلة ، الّتى تقع بين شيئين فتفصل هذا من هذا والفاصلة فى العروض : توالى أربعة أحرف أو ثلاثة متحركة بعدها ساكن ، وهكذا هى المقايضة فى هذه المقامة ، تصل اللفظة فيكون لها معنى ، وتفصلها فيكون لها معنًى آخر .

وأنا أفسّر معنى المتصلة إذ المنفصلة قد وقع تفسيرها فى المقامة . قوله : هادية ، أى مرشدة ، تقول : هدْتنى الطريق فهى هادية . والغاشية : ما يغشَى القلب ، أى يغطيه من الهمّ والسّقَم ، والغاشية أيضاً القوم يَغْشَوْنك ، أى يقصدونك ويزورونك ، والغاشية : القيامة ، والغاشية : المرأة تغشاك وتزورك ، والغاشية غشاء القلب ، والغاشية : غشاء السَّرْج .

والمهمه : القفر ، والأخطار : جمع خَطَر ، وهو الغَرَر ، والأخطار : المنازل الشريفة . والأبارقة : جمع إبريق ، وهو إناء معروف ، والأبارقة أيضاً : السُّيوف الصقيلة ، واحدها إبريق ، والطافية : الجيفة تطفو على وجه الماء ، أى تطلع عليه .

الفرازين : وزراء الفُرْس الواحِد فرْزان ، ومنه فرزان الشطرنج ، الذى تسميّه العامه « فرزا » ، لأنه وزير الشاه ، والشاه فى كلام الفرس المَلِك . وقمت : معناه كففت .

والمنتقم : الفرح بمصيبة غيره . والرَّحْراح من الأوانى : الواسع القصير الحديد ، ورَحْرَاح : موضع معروف . والصُّنبُور : النخلة الطويلة العُنُق القليلة الحمل ، والصُّنبور أيضاً : العفاص الذى يجعله السّقاء فى فم القربة ، ويشدّ

عليه ويفرغ منه الماء ، والصُّنبور أيضاً : اللئيم ، والصُّنبور من الناس مَنْ ليس له نسْل .

والسَّرَاحِين : الذئاب الواحد سِرْحان . الأُسكوب : المطر الكثير الصبّ والأُسكوب والأسكاب : قطعة خشب فيها قرص تُجعل فى خرْق الزّق . والمقلاع : آلة يُقلع بها الشىء . والله الموفق .

---

obeikandl.com

تفسير الأحاجى المودعة هذه المقامة

أمّا جوعٌ أمِدّ بزادٍ ، فمثله طَوامير ، وأما ظَهْرٌ أصابَتْه عين ، فمثله مَطاعِين ، وأما صَادف جائزة فمثله الفَاصلة . وأمّا تناول ألف دينار ، فمثله هادية . وأمّا أهْمِل حَلْية فمثلُهُ الغَاشِية .

وأمّا الكُفُف الكِفَف ، فمثله مَهْمَه ، وأما الشقيق أفلت فمثله أخطار .

وأمّا ما اختار فضة فمثله أبَارقة ؛ لأن الرّقَة من أسماء الفضة ، وقد نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « الرّقَة ربع العشر » .

وأما دس جماعة فمثله طافية . وأمّا خالى اسكت فمثله خالصة ؛ لأنّك إذا ناديت مضافاً إلى نفسك جاز لك حذف الياء ، وإثباتها ساكنة ومتحرّكة ؛ وقد حُذف هاهنا حرف النّداء ، كما حذفه فى أصل الأحْجيّة . وصَهْ بمعنى اسكت ، وأما خُذْ تلك فمثله هاتيك .

وأمّا حمار وحش زَيِّنا ، فمثله قَرَازين ، لأن الفرأ حمار الوحش ، ومنه الحديث : « كلّ الصيد فى جوف الفرا » .

وأما قوله : « أنفق تقمع ، فمثله منتقم ؛ لأنّ الأمر مَنَ مان يَمُون مُنْ . ومضارع وَقَت تقِم .

وأمّا استنشِ ريح مدامه ، فمثله رَحْراح ؛ لأن الأمْرَ من استدعاء الرائحة رُحْ . وأما غطّ هَلْكى فمثله صنبُور ؛ لأنّ البورُم الهَلْكى ، وفى القرآن ﴿ وَكُنْتُمْ قومًا بُوراً ﴾ .

وأمّا سارَ بالليل مدة ؛ فمثله سَراحين .

وأما أحْبب فَرُوقة ؛ فمثله مِقْلاَع ، لأنّ الأمر من وَمق يمق مُقْ. واللاع : الجبان ؛ يقال : فلان هَاعٌ لاعٌ ؛ إذا كان جباناً جَزُوعاً .

وأما أعط أبريقاً يلُوح بغير عُروة ، فمثله أسْكُوب ؛ لأن الأوس الإعطاء والأمر منه أس . والسكوب : الأبريق بغير عُرْوة .

وأمّا الثَّور ملكى ، فمثله اللآلى ؛ لأن اللأى على وزن القنا هو ثور الوحش.

وأما صفير جَحْفلة ، فمثله مكاشفة ؛ لأن المُكاء الصّفير ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا كان صَلاَتُهُمْ عِنْدَ البيت إلاّ مُكَاء وتَصْدِية ﴾ ، والأصل فى المكاء المدّ ؛ ولكنه قصَرَه فى هذه الأحجية ، كما حذف همزة الفرا فى أحجيته ، وكلا الأمرين من قصر الممدود ، وحذف همزة المهموز جائز .

المقامة السابعة والثلاثون وتعرف بالصَّعْدية

حكى الحارثُ بن همّام قال: أَصْعَدْتُ إلى صَعْدة ، وأنا ذُو شَطاطٍ يحكى الصَّعْدة ، واشتدادٍ يبدُر بناتِ صَعْدة ؛ فلمّا رأيتُ نُضْرَتَها ، ورعَيْتُ خُضْرَتَها ، سألتُ نَحارير الرُّواة ، عمّا تَحْويه من السَّرَاة ، ومعادِن الخيرات ؛ لأتَّخِذَه جَذْوَةً فى الظُّلُمات ، ونَجْدةً فى الظَّلاَمات . فُنُعِتَ لى قاضٍ بها رحيبُ الْباع ، خَصِيبُ الرِّباع ، تميمىّ النَّسبِ والطَّباع ؛ فلم أَزَلْ أَتقرَّبُ إليه بالإِلْمَامِ ، وأَتَنَفّقُ عليه بالإِجْمَام ؛ حتَّى صرتُ صَدَى صَوْته ، وسَلْمَان بيتِه .

* * *

أصعدت : طلعتُ وارتفعتُ ، قال يعقوب : الإصعاد إلي نجد واليمن والحجاز ، والانحدار إلى العراق والشام وعُمان . وقال الأخفش : أصعد فى البلاد : سار فيها ومضى ، وأصله الذهاب فى الصعود وهو الارتفاع ، ثم توسّعوا فى ذلك . قال الفرّاء رحمه الله فى ابتداء الأسفار والمخارج ، تقول : أصعدنا من مكّة إلى بغداد ، وأصعدنا من بغداد إلى خراسان ، فأما فى السِّلم فتقول: صعدت فيه لا أصعدت . قال يعقوب رحمه الله : صعّد فى الجبل وأصعد فى البلاد : انحدر فيها ، وصَعِد : ارتقى .

وصَعْدة : مدينة عظيمة باليمن ، بينها وبين صنعاء ستون فرسخاً ، وتحكمُ

فيهـا صنعةُ الجلود ، والجلد الصَّعدِيّ فى غاية الجودة ، ويضرب المثل بحسن نسائها .

الشَّطاط : طول القامة . والصَّعْدة : الرمح . اشتداد : جرى . يبدُر : يسبق . بنات صَعْدة : حمر الوحش . نُضرتها : خصبها ونعمتها ، والنضرة : صفاء اللون وبريقه . نحارير : علماء ، والنِّحرير ، الماهر والحاذق الّذى جرّب الأمور وعرفها ، وهو اسم يجمع وجوها من المدح ، فيفسّر النحرير بالعالم والمفلِق والحاذق والماهر والعادل . والسَّرَاة : السادة ، وهو جمع سَرِيّ ، وهو السيد الشريف ، وجمع فَعِيل على فَعَلة عزيز لا يُعرف غير هذا . الجَذوة : الجمرة الغليظة العظيمة ، وجمعها بثلاث حركات ، ويجمع ثلاثتها ، نحو جَذا وجُذا وجِذا نجدة : قوّة وعونا . الظُّلامات : جمع ظُلامة ، وهو ما يشتكيه المظلوم ، رَحيب الباع : واسع العطاء ، فكَنَى بالباع عن ذلك . والعرب إذا وصفَت الرجل بالسّخاء ، قالوا : هو رحيب الباع ، وطويل الباع ، وكريم الباع ، والباع والبوع بَسْط اليد بالمعروف ، وقد باع يبوع منه ، ويقال للبخيل : قصير الباع . خصيب الرِّباع ، أى هو كثير المال فجمع له كرمه كثرة ماله ، فالنّاس يجدون فى كَنَفِه الخِصْب وقد يراد بخصيب الرباع نافق سوق الأحكام فالمتعلّق به يجد الخصب .

تميميّ النّسب ، أى من بنى تميم وشرك الطباع مع النّسب ، وهو يريد أنه كامل تام فى خلقه ، فنسب قبيلته لتميم ، وطباعه للتّمام والكمال فغلّب أحدهما ، وشرك بينهما للقرب . قال ابن شرف : فيما يليقّ بهذا التشريك ، ويحسن أن يمدح قاضى المقامة به لجوده :

جاورْ عليًّا ولا تحفِلْ بحادِثَةٍ إذا ادّرعتَ فلا تسألْ عن الأَسَلِ[1]

(١) نقله فى التنف ١٠٩ .

اسم حكاه المُسمَّى فى الفَعال فقدْ حاز العليَّيْنِ من قولٍ ومن عَمَلِ
فالماجد السيّد الحرّ الكريم له كالنّعت والعطف والتوكيد والبدلِ
زانَ العُلا وسواه شانَها، وكذا تميّز الشَّمْسُ فى الميزان والحَمَلِ
وربّمـــا عابَهُ ما يفخـــرُون به
يُشْنَا من الخَصْر ما يُهْوَى من الكَفَلِ
سلْ عنه وانطِقْ به وانظر إليه تجدْ ملء المسامع ، والأفْواهِ والمُقَلِ

فإنه أراد بقوله : «حاز العليّين» ، أى حاز عليًّا بالاسمية ، والعلوّ بالفعلية ، وهذا مثل ما تقدم للحريرىّ :

جاد بالعين حين أعمى هَواه عينَـه فانثنَى بلا عَيْنَيْنِ

فقد أوقع التشبيه على شيئين ، يتفّقان فى اللفظ ، ويختلفان فى المعنى . وقد أنشدنا فيما تقدّم لبعض المتأخرين :

فكيف أصبر عنهـــا اليوم إذ جَمَعَتْ
طيب الهواءين ممـــدودٍ ومقصـورِ

فالمقصود هوى النفس ، والممدود الهواء الذى بين السماء والأرض ، وقد قدّمنا فى تفسير قول الحريرى ، وحيّا المسجد بالتّسليمتيْن ، أنّ السلام الواحد على مَنْ فى المسجد عند دخوله ، والثانى تحليل الصلاة .

وقوله: هنا تميميّ النسب والطباع من هذا القبيل ، وأكثره فى كلام المولّدين ، وهو مستعمل فى كلام العرب ، ولا يبعد أن يكون من هذا قولهم: التقى الثريان ، فإنهم يُريدون بذلك كثرة المطر ، وأنه يبلغ فى الأرض إلى التراب الندى ، فالثرى الواحد المطر ، والثانى التراب النّدىّ ، على أنه يحتمل أن يريد

بذلك أنّ التراب اليابس لمّا بلّهُ المطر ، حتى لحق بالتراب النّدى ، صار اليابس منهما يسمّى «ثرى» ، فقيل : التقى الثريان ، وقال النابغة :

وقد أبقَتْ صُروف الدّهر منّى ... كما أبقت من السّيف اليمانى[1]
يُصمّمُ وهو مأثور جُـرازٌ ... إذا جُمعت بقائمهِ اليـــدان

فسّره أبوعبيد البكرى[2] وغيره : بأنه أراد بذلك الجارحة ، والأيْد الذى هو القوّة ، فجمع على الأخفّ ، فهذا من قبيل ماقدمناه ، ولا يحضرنى الآن غير هذا من كلام العرب .

قوله : الإلمام ، أى تخفيف الزيارة . أننفّق ، أتخرّج ، والنّفاق ضدّ الكساد . الإجمام : الزيارة . صدى صوته ، أى متى دعاه وجده حاضراً مجيباً له ، والصدى : صوت الجبل الذى يردّ عليك إذا صحتَ .

وابن همام فى هذا المقامة شُرْطِىّ القاضى .

[ذكر مناقب سلمان الفارسىّ]

وسَلْمان الذى ذكره ، هو سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه ، ويعرف بسلمان الخير ، قالت عائشة رضى الله عنها : كان لسلمان رضى الله عنه مجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفرد به فى الليل ، حتى كاد يغلبنا عليه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أمرنى ربى بحُبّ أربعة ، وأعلمنى أنه يحبّهم : علىّ ، وأبو ذرّ ، والمقداد ، وسَلْمان » ، رضى الله تعالى عنهم .

وأتى أبوسفيان على سلمان وصهيب وبلال ، فقالوا : ماأخَذتْ سيوفُ الله من عُنق عدوّ الله مأخذَها ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أتقولون هذا لشَيخ قريش

(١) هو النابغة الجعدى والبيتان فى أمالى القالى ١ : ٧١ . واللآلى ٢٤٦ والخزانة ١ : ٥١٣ . والمأثور : الباقى أثره ، والجراز : الماضى النافذ .
(٢) فصل المقال ١٤٨ .

وسيدهم ! وأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : يا أبا بكر ، لعلّك أغضبتَهم ، لئن كنت أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربّك فأتاهم أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا أخوتاه ، أأغضبتكم ؟ فقالوا : لا ، ويغفر الله لك .

وكان من أبناء أساورة فارس ، وأصله من رَامهرمز ، وقيل : كان من أصبهان ، وكان يطلب دينَ الله ويتبع مَنْ يرجو ذلك عنده ، فدَان بالنصرانية وغيرها ، وقرأ الكتب ، وصبَر فى ذلك على مشقات نالته ، وكلّها مذكورة فى إسلامه فى كتب السِّيَر .

وقيل : تداوله فى ذلك بضعة عشر ربًّا ، حتى أفضى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فاشتراه من قوم من اليهود .

وأوّل مشاهده الخندق ، وهو الذى أشار بحفره ، فقال أبو سفيان وأصحابه : هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدُها .

وسئل علىّ عنه فقال : علم العلم[1] الأول ، بحر لا ينزف ، هو منّا أهل البيت ، وفى رواية : هو مثل لقمان الحكيم ، وكان فاضلاً حبْرًا زاهداً عالماً متقشفاً .

وتعلّم عملَ الخوص ، فقيل له : لم تعمل هذا وأنت أمير ! وقد أجرِىَ عليك رزق ، فقال : إنى أحببت أن آكل من عمل يدى . وكان يتصدّق بما يرزَق من بيت المال ، وكانت له عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها .

وقال صلى الله عليه وسلم : «لو كان الدِّين فى الثريّا لنالهُ سلمان» .

أبو هريرة رضى الله عنه ، كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ سورة الجمعة ، فلما قرأ : ﴿وآخرين مِنْهُمْ لمّا يلحقوا بهِمْ﴾[2] - وفينا سلمان - وضع يده على سلمان ، ثم قال : «لو كان الإيمان عند الثريا لنالهُ رجل من هؤلاء» .

---

(١) ط : «علم» وما أثبتهُ من الاستيعاب ص ٦٣٧ .
(٢) سورة الجمعة ٣

وتوفّيَ في آخر خلافة عثمان رضى الله عنه ، وماترك شيئاً يورَث عنه . وفضائله كثيرة .

وعلى قولهم لأبي بكر « لا ، ويغفر الله لك » . قال أبو محمد في الدّرة : وربما أجاب المستخبر بلا النافية ، ثم عقبها بالدعاء له ، فيستحيل الكلام إلى الدعاء عليه ، كما روى أنّ أبا بكر رضى الله عنه رأى رجلا ، بيده ثوب ، فقال: أتبيع هذا ؟ فقال لا عافاك الله، فقال أبو بكر رضى الله عنه : لقد علمتم لو تعلمون! فهلا قلت : لا وعافاك الله !

قال أبو محمد :والمستحسَن ماقال يحيى بن أكتم للمأمون، وقد سأله عن أمر، فقال : لا ؛ وأيد الله أمر أمير المؤمنين .

وحكى أنّ الصاحبَ بن عباد لمّا سمع هذه الحكاية ، قال : والله لهذه الواو أحسنُ من واوات الأصداغ ، في خدود المُرْد الملاح .

* * *

وكنت مع اشتيارِ شُهْدِه ، وَانْتِشَاق رَنْدِه ، أشْهَدُ مشاجر الخصوم ، وأسْفِرُ بين المَعْصُومِ منهم والموْصُوم . فبينَما القاضي جالسٌ لِلإسجال، في يَوْمِ المَحْفِل والاحْتِفَال ؛ إذ دَخَلَ شَيْخٌ بالي الرِّياش ، بادِي الارْتِعَاش ؛ فتبصّرَ الحَفْلَ تبصُّرَ نَقّاد ، ثم زعم أنّ لهُ خَصْما غيرَ منقاد ؛ فلم يكن إلاّ كَضَوْء شرارة، أو وَحْي إشارَة ؛ حتّى أُحْضِرَ غلام ، كأنّهُ ضِرْغام فقال الشيخ : أيّدَ اللهُ القاضِي ، وعَصَمَهُ من التغاضِي ؛ إن ابني هذا كالقلم الرّدِي ، والسّيْفِ الصّدِي ، يجهل أوصاف الإنصاف ، ويَرْضَعُ أخلافَ الخِلاَفِ ، إن أقْدَمْتُ أحْجَمَ ، وإذا أعْرَبتُ أعْجَم ،

وإن أذكيتُ أَحْمَدَ ، ومَتَى شَوَيت رمَّدَ ؛ مع أنى كَفَلْتُهُ مذْ دَبَّ ، إلى أنْ شَبَّ ، وكُنْتُ له ألطفَ مَنْ رَبَّى ورَبّ .
فأكبر القاضى ما شكا إليه ، وأطرف بِهِ مَنْ حَوَالَيْهِ ، ثم قال :
أَشْهَدُ أَنّ العُقُوق أَحدُ الثُّكلَيْن ، ولرُبَّ عُقْمٍ أَقرُّ لِلْعَيْن .

* * *

قوله : اشْتِيار شهده ؛ أى استخراج عسله ، وأراد اجتناء منفعته . انتشاق : شمّ ، يقال : نشق الريح الطيبة نشقاً وانْتَشق : وتنشّق : شمّها . الرَّنْد : شجر طيب الرائحة ، قال ابن دريد رحمه الله : هو الآس ، وقال الجوهرى رحمه الله : ربما سُمِّىَ العودُ رَنْدا . مشَاجر الخصوم : مواضع الخصام التى يتشاجر فيها الخصمان ؛ أى يمتزج كلام هذا بكلام هذا ، من الشَّجْر ، واحدها مَشْجَر ، وقد يُراد بها المصدر ، ويُجمع لاختلاف أنواعه . أسفر : أمشى بينهم بالصلح المعصوم : المحفوظ من الوقوع فيما يحذر ، وأصل العصمة فى كلامهم المنع ، وعصمتُه من كذا ، إذا منعتَه . ﴿واللهُ يَعْصِمُك مِنَ الناس﴾[1] ، أى يمنعك . الموصوم : ذو الوصْم ، وهو العيب ، فأراد أنه يُصلح بين أهل الخير والشرّ . للإسجال : للحكم ، وأسجل القاضى على نفسه بالحكم ، وسجّل ، إذا كتب على نفسه ، فأراد أنه جلس للحكم فى العقود والسجلات . ومحفل القوم : مجتمعهم . والاحتفال : كثرة النّاس واجتماعهم ، ومعنى احتفل الرجل : جمع ، وأراد : يكثر من الشىء الذى قصد ، وجمع المحفل محافل ، ومنه الشاة المحفَلة ، وهى التى يحبس لبنُها أياماً فى ضَرْعها لا تحلب . الرياش : الثياب . تبصّر الحفل : نظر الجمع وشخص فيهم . نقّاد : مفتش ، كأنه ينقُد ببصره الرجال ، ويريد أنه نظر من شرط القاضى أهل الحزم

(١) سورة المائدة ٦٧ .

والجراءة، فأخبرهم بقصة ابنه، فانطلقوا فأتوا به، ونقّاد الدراهم: الذى يُمْعِن النظر فيها والتقليب لها، ليميّزَ جيِّدها من رديئها . وحى إشارة ، يريد إشارة العين ، إذا غمزت مَنْ تريد أن يفهم إشارتك دون غيره ، والوحى: الإيماء الخفىّ . ضِرْغام: أسد فى عِظَم خلقته وشدّته . التغاضى : التغافل والسكوت عن الظلم . الصَّدَى : الذى علاه الصدأ ، وهو وسخ السيف . والأخلاف جمع خِلْف ، وهو ما يحلب منه اللبن ويقبض عليه الحالب . قال ابن دريد : وقيل : الخِلْف للناقة كالضَّرْع للبقرة . أحجم : تأخر . أعربت : أوضحت . أعجم : أبهم ولبّس . أذكيت : أوقدت . أخمد : أطفأ ، وخمدَت النار : طُفِىء لهبُها . كفلته : ربّيته . دبّ . مشى مشىَ صغير على يديه ورجليه . شبّ : صار شاباً ألطف: أشفق وأرق . ربّ: أصلح ، يريد أنه أصلح أحواله ، وأحسن تربيته تحرُّزا من أن ينسبه القاضى إلى تقصير . أكبر : رآه كبيراً . أطرف : أعجب ، وجعلهم يستطرفون خبره . الثّكلين : الفقدين ، يريد أنّ الرجل إذا عقّه ولده ولم يبرّه فكأنه قد فقده .

[ذمّ العقوق]

ومما جاء فى العقوق : كان جرير الشاعر أعقّ النّاس بأبيه ، وكان بلال ابنه كذلك ، فراجع جرير بلالاً فى الكلام ، فقال له بلال : الكاذب بينى وبينك ناك أمّه ، فأقبلت أمّه عليه ، وقالت : ياعدوّ الله ، تقول هذا لأبيك ! فقال جرير: دعيه ، فكأنه سمعها منى وأنا أقولها لأبى .

وممّن شُهِر عنه العقوق بوالديه الحُطيئة الشاعر ، قال يهجو أباه :

لحاكَ اللهُ ثمّ لحاكَ حقًّا أبًا ولحاكَ من عمٍّ وخالِ[1]

---

(١) ديوانه ١١٩

فبئس الشيخ أنت لدى المخازى وبئس الشيخ أنت لدى المعالى
جمعتَ اللؤم لاحيّاك ربى وأبوابَ السَّفاهة والضَّلال

وقد تقدّم هجو نفسه وأمّه .

وممن هجا أباه وغيره علىّ بن بسام ، وماسلم من هجائه أمير ولا وزير ، ولا كبير ولا صغير ، ومما قال فى أبيه :

هبك عُمِّرتَ عُمرَ عشرين نَسْرًا أترى أننى أموت وتبقى! (١)
فلئن عشتُ بعد موتك يوما لأشقّن جيب مالك شقّا

وقال فيه أيضاً :

بعثتُ لأستهديك عَيْرًا ولم أكن عَلِمْتُ بأنّ العَيرَ صار لنا صِهْرا
فوجّهْ به كى نشترك فى ركوبه فنركبه بَطْناً وأركَبُه ظهرا

وقال فيه أيضاً :

شِدْت داراً خلتَها مكرّمةً سلّط الله عليهـا الْغَرَقا
وأرانيكَ صريعاً وسْطها وأرانيهـا صعيدا زَلَقَا

وقال فيه أيضاً :

بنَى أبو جعفر داراً فشيَّدَها ومثله لخيـار الدّور بنّـاءُ
فالجوع داخلها والذلّ خارجها وفى جوانبها بؤسٌ وضرّاءُ
ماينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلَها خبزٌ ولا ماء

وكذب ، كان أبو جعفر محمد بن نصر بن منصور بن بسام فى نهاية السّودَد والمروءة والنظافة ، رجل مترَفٌ نبيل المركب ، ماهِر الملبس ، ظريف العلمان ، له همة فى تشييد البنيان ، ومارثاه ابن الرومى به يدلّ على كذب ابنه ، قال ابن الرومى فيه :

---

(١) ابن خلكان ١ : ٣٥٢ .

أودَى محمد ابن نصرٍ بعدما ضُرِبَتْ به فى جوده الأمثال[1]
ملكٌ تنافست العلا فى عصره وتنافستْ فى موتِه الآجالُ
مَنْ لم يعاين سيرَ نعش محمدٍ لم يدر كيف تُسيِّر الأجبالُ
ودَخرته للدهر أعلم أنهُ كالحِصْنِ فيه لمن يئولُ مآل
وتمتعتْ نفسى بروح رجائه زمنًا طويلا والتمتع مالُ
ورأيتُه كالشمس إن هى لم تُنَلْ فالرِّفق منها والضِّياء ينالُ
لهفى لفقدك يا محمد إنه فُقِدَتْ بك النَّفحات والأنفالُ
بالله أُقسمُ إنّ عمرك ما انقضَى حتى انقضى الإحسانُ والإجمال

ولابن بسام يعزّى أبا القاسم بن وهب فى ابن مات له :

قل لأبى القاسم بن وهبٍ أنى بك الدَّهْر للعجائب[2]
ماتَ لك ابنٌ وكان زينا وعاش ذو الشَّيْن والمعايبْ
حياةُ هذا كموت هذا فليس تخلُو من المصائب

وقد تقدّم هجوه فى أخيه .

ومن حسن التعطف على الابن العاق، قول إبراهيم الصابى ، وكان ابنه يعقّه :

أرْضَى عن ابنى إذا ماعقّنى حَذَراً عليه أن يغضبَ الرحمنُ من غَضَبِى
ولستُ أدرى بم استحققتُ من وَلَدِى إسخانَ عينى وقد أقررتُ عينَ أبى!

* * *

قوله : ولرب مُقْم ، العقم ألاّ تلد المرأة .

---

(١) مختارات البارودى ٣ : ٣٢٤
(٢) خاص الخاص ١٠٩

فقال الغُلاَم ؛ وقد أمْعَضَه هذا الكلام : والّذى نصب القُضَاة لِلْعَدْل ، ومَلَّكَهُمْ أعِنَّةَ الْفَضْلِ والْفَصْل ، إنّه مادَعاَ قطّ إلاّ أَمّنت ، ولاَ ادّعَى إلاّ آمنتُ ، ولاَ لَبّى إلاّ وأَحْرَمْتُ ، وَلاَ أَوْرَى إلاّ وأَضْرَمْت ؛ بَيْدَ أنّهُ كَمَنْ يَبْغِى بَيْضَ الأَنُوق ، وَيَطْلُبُ الطّيَرانَ مِنَ النُّوق . فقال له القاضى : وبِمَ أَعْنَتَكَ ، وامْتَحَنَ طَاعَتَكَ ؟ قَالَ : إنّهُ مُذْ صَفِرَ من المـال ، ومُنِىَ بالإمحـال ، يَسُومنى أن أتَلَمَّظَ بالسُّؤال ، وأَسْتَمْطِرَ سُحْبَ النَّوَالَ ؛ ليَفيضَ شِرْبُه الّذى غاض ، ويَنْجَبِر من حَالِهِ ماَ انْهَاضَ ، وقَدْ كانَ حِينَ أَخَـذَنى بالدَّرْس ، وعَلَّمَنِى أَدَبَ النَّفْس ، أَشْرَبَ قَلْبِى أَنَّ الحِرْص مَتْعَبة ، والطَّمَعَ مَعْتبة ، والشَّرَه مَتْخَمة ، والمسْأَلَة مَلْأَمة .

* * *

أمعضه : أوجعه وأغضبه ، وأمعض من ذلك وامتعض : غضب وشقّ عليه وأوْجَعه . ادّعى : نسب لنفسه ماشاء ، وفلان مُدَّعٍ وفعله الدعوى . آمنت : صدقت ما ادّعاه . لبّى : من تلبية الحاج إذا صاح : لبّيك لبّيك . أحرمت : صرت محرِماً . أورى : أظهر له النار من الزند . أضرمت : أوقدت . بيْد : غير الأنوق : ذكر الرَّخَم ولا بيض له ، فكأنه طلب أمراً لا يكون أبدا ، ومثله : طلب الأبلق العَقُوق ، والأبلق الذكر والعَقوق من الخيل : التى امتلأ بطنها من حملها ؛ يقال للأنثى : قد أعقت وهى معقّ وعَقوق ؛ فكأنه طلب أمراً لا يكون أبداً ، لأنه لا يكون الأبلق عَقوقاً .

ويقال : إن رجلا سأل معاوية أن يزوّجه أمه هنداً ، فقال : أمرُها إليها ، وقد أبتْ أن تتزوّج ، قال : فولّنى مكان كذا وكذا ، فقال معاوية متمثّلاً :

طلب الأبلق العقوق فلمّا لم ينله أراد بيضَ الأنوقِ

والأَنُوق : طائر أبيض فى شواهق الجبال ، فبيضها فى حرز لا يُطمَع فيه ، فمعناه طلب مالا يكون ، وأما طلب الطّيَران من النوق فمثل الأول، وهو لا يمكن. قوله : أعنتك ، أى أنْعَبَكَ ،وكلّفك مايشقّ عليك،من عَنِتَ البعير يعنِت عنتا، إذا حَدَث فى رجله كَسْر بعد الجبر ، فلا يمكنه التّصرّف إلاّ بمشقة . قال أبوعبيد رحمه الله:عنّته: أضرّبه، والعَنَت : الضرر،قال: وأعنتَه أيضا ، أهلكه . وقال أحمد بن عبيد : أعنَتَه:شدّد عليه ،والعنت : التّشديد .

ابن عَزيز: عَنت : هلاك ، وأصله المشقّة والصعوبة ، ومنه قولهم : أكَمَة عَنُوت ، إذا كانت صعبة المَسْالك ، وقوله تعالى : ﴿ لَأَعْنَتَكُم[1] ﴾ ، أى لأهلكـكم ، ويجوز أن يكون المعنى لشدّد عليـكم وتعبّدكم بما يصعب أداؤه عليـكُم ، كما فعل بمَنْ قبلـكم . امتُحِن : ابتُلِىَ . صَفِر : خلا . مُفِىَ : بُلِىَ . الإمحال : الجدْب والفقر . يسومنى : يكلّفنى . أتلمّظُ بالسؤال ، أى أكثر الـكلام به ، والتلمُّظ : تتبُّع مابقىَ فى الفم من الطعام باللّسان بعد الأكل. سُحُب: جمع سَحابة . النوال : العطاء ، قال ابن الأنبارى رحمه الله : النّوْل والنّوال : المنفعة والحَظّ ، ونِلْت الرجل : إذا نفعتُه ، وأنلته حظًّا ونالنى فلان : نفعنى ، وقولهم : ما كان نَوْلك أن تفعل كذا ؛ أى ما كان لك منفعة فى هذا الفعل ، ونولك :منصوب خبر كان وأنْ نفعل اسم كان أو بالعكس. يفيض : يسيل ويكثر. شِربه : ماؤه ، وأراد به ماله : غَاض : جَفّ . انهاض : انـكسر . أشرَب : روى وسقى . الحرص : كثرة الطمع والطلب للدنيا ، والشّرَه : الحرص الـكثير . مَتْخمة : مفسدة ، والمسألة : سؤال مافى أيدى الناس . مَلْأَمة : لؤم.

* * *

(١) سورة البقرة ٢٢ .

ثم أنشدنى من فِلْقِ فيه ، ونَحْتِ قوافيه :

إرْضَ بأَدْنَى العَيْشِ واشكُرْ عليهِ ... شكر مَن القُلُّ كثيرٌ لديْهِ
وجانِبِ الحرْصِ الذى لَمْ يَزَلْ ... يَحَـــطُّ قَدْرَ المتراقِى إلَيْهِ
وحَامِ عَنْ عِرْضِكَ واسْتَبْقِهِ ... كَمَا يحامِى اللَّيْثُ عن لِبْدَتَيْهِ
واصْبِرْ عَلَى ما نابَ من فاقةٍ ... صَبْرَ أُولِى العَزْمِ وأَغْمِضْ عَلَيْهِ
ولا تُرِقْ ماءَ المحيَّـــا ولَوْ ... خوَّلَكَ المسئولُ ما فِى يَدَيْهِ
فالحرُّ مَنْ إن قَذِيَتْ عَيْنُهُ ... أخفى قَذَى جَفْنَيْهِ عن ناظِرَيْهِ
ومَنُ إذا أَخْلَقَ ديبـــاجُهُ ... لَمْ يَرَ أَنْ يُخْلِقَ دِيباجَتَيْهِ

* * *

فِلْق : شِقّ من بين شفتيه . نحت : نجر ، أراد إنشاء قصائده . والقوافى ، من قفوت الشىء ، إذا تتبعته ، وسمّيت بذلك الاتباع بعضها بعضا . القُلّ : القِلّة . المتراقى : المرتفع . لِبْدَتيْه . شعر متلبّد على كَفَله وبين كتِفيه . ناب : نزل . فاقة : فقر . أغمِضْ ، أى استره واغفل عنه ، والمحيّا : الوجه . خوّلك : ملّكك . الناظر : سواد العين ، فيريد أنه إذا وقع فى عينيه قذى وهو السقط على شِدّة إذايته ، احتمله الحرّ الكريم وصبر عليه ، وأخفاه من ناظريه : تجلّد ، أى أخفى أذى بعض العينين من بعض ، وهذا غاية فى المبالغة . ديباجه : ثوبه ، والديباج : ثوب رفيع . ديباجتيه : خدّيه ، وقيل ديباجة الخدّ حسن بشرته ، وأخلق الشىء ، وأخلقه غيرُه لازم ومتعدّ ، يقول : إذا افتقرتَ وبلىَ ثوبك فلا تبذل وجْهَك لأحد ، ولا تَهِنْهُ بالسؤال ، وهذا من قول حبيب :

دَلّ السؤال شجاً فى حَلْق معترِضٍ من دونه شَرَقٌ من خَلْفه حَرَضُ[1]
ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهى إذا أفنيته عِوَضُ

وقال فى ابن الزيات :

أعْطَى ونطفة وجهى فى قراراتها يَصُونها الوَجَناتُ الفضّة القُشُبُ[2]

يقول : لم يخلق وجهى سؤال ، فوجْهِى غضّ جديد ، والنطفة : ماء الوجه الذى نهى الحريرىّ عن إراقته حين قال :

ولا تُرِق ماء المحيّـا ولو خوّلك المسئولُ ما فى يَدَيْهِ

[بين أبى تمام وعبد الصمد بن المعذل]

قال الصولىّ : كان حبيب رحمه الله لا يجيب هاجيا ، ترفُّعاً عنه ، فانحدر إلى البصرة والأهواز يمدح من بهما ، فكتب إليه عبد الصمد بن المعذّل :

أنت بين اثنتين تبرز للنا س[3] بكلتيهما بوجهٍ مُذَالِ[4]
لَسْتَ تنفَـكّ طالباً لِوِصَالٍ من حبيب أو طالباً لِنَـوالِ
أىّ ماء لحرّ[5] وجهك يبقَى بين ذلّ الهوى وذلّ السؤال

فلما قرأ الشعر قال : قد شغل هذا ما يليه ، ولا أرَب لنا فيه[6] .

وحكى الأصبهانىّ قال : جمع مجلسٌ أبا تمام وعبد الصمد ، وكان عبدُ الصمد

---

(١) ديوانه ١٤٩
(٢) ديوانه ٤٨ .
(٣) فى أخبار أبى تمام للصولى : « تغدو مع الناس » .
(٤) المذال : المهان .
(٥) « الصولى : لماء وجهك » .
(٦) أخبار أبى تمام للصولى ٢٤١، ٢٤٢

سريحَ القول ، وفى أبى تمام بطء ، فأخذ عبد الصمد قرطاسا ، وكتب : أنت بين اثنتين .. الأبيات ، ورمى بها إلى أبى تمام ، فأخذه وخلاَ به طويلا ، وجاء وقد كتب فيه :

أفىّ تنظم قولَ الزُّور والفَنَدِ وأنت أنزرُ مِنْ لا شىء فى العَدَدِ
أشْرجتَ قلبك من بغض على حُرَقٍ[1] كأنها حَرَكاتُ الرُّوحِ فى الجَسَد

فقال له عبد الصمد : يا ماصّ بَظْرِ أمه[2] ، أخبرنى عن «لا شىء» فى العدد كيف يكون ؟ وعنْ قولك : «أشْرَجْتَ[3] قلبك» ، أعيبة أو خُرْج ، فأشْرِجَه ، عليك لعنة الله[4] .

فانقطع أبو تمام انقطاعاً مارُئِىَ مثله .

وحكاية الصولىّ أوْلَى بالصحة من هذه ، وليس عبد الصمد من رجال أبى تمام ، ولا له من التصرّف فى أنواع الشعر ما لأبى تمام ، وصنْعُ البديع وَقْفٌ عليه ، ولو صحّت الحكاية فلا يحكم بالقدرة ، لكن يحكم بالجملة ، واستعمال ديوان حبيب فى مجالس العلماء شاهد على فضله ، على أنّ ما جمعنا لعبد الصمد فى هذا الكتاب غاية فى بابه . فلنرجع إلى ما قيل فى ذل السؤال .

[مما قيل فى ذل السؤال]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سأل وعنده مايغدّيه أو يعشيه ، فإنما يستكثر من جَمْرِ جهنّم » .

---

(١) ط : « أسرجت » بالسين تصحيف .
(٢) بعدها فى الأغانى : « ياغث » . وأشرجت العيبة : أو شددتها بخيط أو نحوه
(٣) أشرجت العيبة : شددتها بخيط .
(٤) الخبر فى الأغانى ١٣ : ٢٥٣ ، ٢٥٤ برويه عن ابن مهرويه . وفى آخر الخبر : قال أبو الفرج الأصفهانى : « كان فى ابن مهرويه تحامل على أبى تمام لا يضر أبا تمام هذا منه ، وما أقل ما يقدح مثل هذا فى أبى تمام » .

وقال الحسن بن عليّ رضى الله عنهما : حسبك من السؤال أنه يضعف لسانَ المتكلِّم ، ويكسر قلب الشجاع البطل ، ويوقف الحرّ الكريم موقفَ العبد الذليل ، ويذهب بنُضْرة اللون ، ويمحو الحسب ، ويحبِّب الموت ، ويمقت الحياة .

الأصمعى رحمه الله : سمعت أعرابيًّا يقول : المسألة طريق المذلّة ، تسلب الشريف عزّه والحسيب حسبه .

وقال معاوية لعبد الله بن الزبير : أنشِدْنى ثلاثة أبيات غريبة ، فقال أنشدكها بثلاثين ألفاً تدفعها إلىّ ، فقال : حتى تنشد فأسمع ، فأنشده أبياتَ الأفوه الأودىّ[1] :

بلوتُ النّاسَ قرناً بعد قرنٍ فلم أرَ غير خَتْلٍ أو قتالِ[2]
ولم أرَ فى الخطوب أشدّ ضرّا وآذى مِنْ مُعاداة الرِّجالِ[3]
وذقت مرارة الأشياء طرًّا فما شىء أمرُّ من السؤال

ثم قال له : أسمعتُك وأنت الحكَم ، فحكَم له ، وأمر له بثلاثين ألفا .

وينظر إلى ما نسبه ابن المعذل لحبيب من إضافة ذل السؤال ، ما أضافه له علىّ بن الجهم من ذل الاعتذار ، وقال يعتذر للمتوكل :

إنّ ذلّ السؤال والإعتذارِ خُطَّةٌ صَعْبَةٌ على الأحْرَارِ[4]
ليس من باطلٍ تورّدها المر ء ولكن سوابقُ الأقْدَارِ
فارْضَ للسائل الخضوعَ وللقا رِف ذنباً بذلّة[5] الإعتذار

(١) ديوانه ٢٢ (مجموعة الطرائف الأدبية) ، عيون الأخبار ٣ : ١١٣ .
(٢) الديوان : « غير خلاب وقال » .
(٣) رواية الديوان : « فما طعم الخطوب »
(٤) ديوانه ١٤٩ .
(٥) الديوان « مضاضة » .

إن تجافيتَ مقعما كنتَ أولَى مَنْ تجافَى عن الذنوب الكبارِ
أو تعـــاقبْ فأنت أعرف بالله وليس العِقـابُ منك بعارِ

وقال أيضاً :

هى النفس ما حمَّلتَها تتحمَّلُ والدهر أيَّامٌ تجورُ وتعدِلُ[1]
وعاقبة الصبر الجميـل جميلةٌ وأكمل أخلاق الرجال التفضُّلُ
ولا عارَ أن زالت عن المرء[2] نعمة ولكنَّ عارا أن يزول التجمُّلُ
وما المال إلا حسرةٌ إن تركتَه وغُنْم إذا قـدَّمْتَه متعجَّلُ

* * *

قالَ : فَعَبَس الشَّيْخُ واكفهرّ ، وَانْدَرَأَ على ابنِه وهرّ ، وقال له : صَهْ يا عُقَق ، يا مَنْ هو الشَّجَى والشَّرَق . ويْكَ ، أتَعلَمُ أمَّكَ البِضَاع ، وظِئْرَكَ الإرْضَاع ! لَقَدْ تحكَّكتِ العَقْرَبُ بالأفْعَى ، واستَنَّتِ الفِصَالُ حَتَّى القَرْعَى . ثمَّ كأنَّهُ ندِم على مافَرَط مِنْ فيه ، وحَدَتْهُ الشَّفَقَةُ على تلافِيه ، فَرَنَا إليْهِ بعَيْنِ عاطفٍ ، وخَفَضَ له جَنَاحَ مُلاطِف ، وقال له : وَيْكَ يا بُنَيَّ ، إنَّ مَنْ أمِرَ بالقناعَة ، وزُجِرَ عن الضَّرَاعة ، هُمْ أربابُ البِضاعَة ، وأولُو المكْسَبة بالصَّناعة ؛ فأمَّا ذَوُو الضَّرُورات ، فقد استُثْنِيَ بِهِمْ فى المحظورات ؛ وهَيْكَ جَهِلْتَ هَذَا التأويل ، ولم يَبْلُغْك ما قيل ، أَلَسْت الَّذِى عارَضَ أباه ، فيما قالَ وما حاباه !

(١) ديوانه ١٦٢ ، ١٦٣ (٢) الديوان : « عن الحر »

قوله : اكفهر ، اشتدّ عبوسه ، ووجهٌ مكفهِرّ : منقبض كالح ، لا يُرى فيه أثرُ بشر ولا فرح . اندرأ : اندفع على ابنه بالشتم . هرّ : كشر وجهه وعبّسه . صه: اسكت . يا عُقَق : يا كثير العقوق ، ويقال :عَقّ أباه يعقّه عقوقا ، فهو عاقّ ، ويُعدَل إلى عُقَق للمبالغة ، كفاسق وعمر ، وعَقّ أباه : لم يطعه وقطع رحمه . ولما قُتِل حمزة عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عن عمه ، مرّ به أبو سفيان ، فطعنه بالرمح فى شِدْقِه ، وقال : ذق عُقَق ، أى ذق جزاء فِعْلِك يا عُقَق ، والعَقّ : القطع والشق .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاقّ لوالديه ، والدَّيُّوثُ ، وَرَجُلة[1] النساء » .

قوله : الشَّجَا : الاختناق بالطعام ، الشَّرَق بالماء والطعام والشراب ، بهما قوام العيش ، فإذا عرض فيهما ذلك فقد عرضت مشقّة وأذيّة فى موضع الالتذاذ ، وكذلك الولد العاق ، وهو أذيّة فى موضع راحة ، وما أحسن قول القائل :

قَراية السوء داء سُوء فاحمل أذاهمْ تَعِشْ حميدَا
فمن تكن قَرْحةٌ بفيه يَصْبِرْ على مَصِّه الصَّديدا

الهُضاع : النكاح والجماع . ظئرك : مرضعتك . تحكّكت : لصقت بها وحلّقتَ حواليها . استنّت : جَرَتْ متتابعة فى سَنَن ، وهو الطريق والمذهب ، ومنه فلان يسنّ ، أى يجرى على أىّ أمر شاء ، لا يزجره عنه زاجر . وقيل : استنّت ، أى سمنت ، من قولهم: سنّ الراعى إبله ؛ إذا أحسن رَعْيَها فأسمنها ، فكأنه حسّنها وصقلها . القرعى[2]: التى يصيبها القَرَع فى رأسها ، والقَرْعى : جمع قريع ، مثل مَرْضى ومريض ، وهذه أمثال تضرب لمن يتشبّه بغيره ، ولا يقوى قوّته .

---

(١) الرجلة (بالضم) من النساء المترجلة ابن الأثير .

(٢) لفظ المثل: استنت الفصال حتى القرعى ، ذكره الميدانى فى ١ : ٣٣٣ ، وقال: « يضرب للذى يتكلم مع من لا ينبغى أن يتكلم بين يديه لجلالة قدره » .

فرّط : سبق . حدته : سائقه . المِقَة : المحبة . تلافيه : تداركه بالعطف عليه . رنا : نظر : عاطف : راحم . ملاطف ، أى رفيق به ، أى حسّن كلامه وأنسه . وخفض الجناح ؛ يكنى به عن لين الجانب ويك : عجبا لك ! زجر : نهى . الضّراعة : التذلل ، وضرع ضراعة فهو ضارع ، تضرّع : تذلل وتخشع . البضاعة : التجارة . المحظورات : الممنوعات ، وأراد بالاستثناء ما أحلّ الله من المحرّمات لأهل الضرائر ، ويروى : سوّغوا فى المحظورات ، أى رخّصوا لهم فيها . هبك : أحسبك . التأويل : التفسير . ولم يبلغك ماقيل ، يعنى فى إباحة السؤال للمضطر ، وهو قول الناس : الضرورات تبيح المحظورات ، ويصدّقه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فى مخمصة . ﴾[1] الآية ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إنما المسألة كدوح يكدح بها أحدكم وجهه إلاّ مسألة من ذى سلطان أو أمر لابدّ منه » . عارضه : قابله بنقيض ماقاله . حاباه : اختصّه بهذه الوصية ، أى جعل هذا الشعر وصية لمن سمعه ، ويقال : حابى فلان فلانا ، إذا مال إليه واتّصل به ، أخذ من حَبِيّ السحاب ، وهو السحاب الذى يدنو بعضه من بعض وقيل . حَباه : خصّه بالميل ، أخذه من الحَبْوَة ، وهى العطية يحبُوها الرجل صاحبَه ، ويخصّه بها ، قال اليزيدى : ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك : ابنك ، وزوجك ، وخادمك .

* * *

لا تَقْعُدَنَّ على ضُرٍّ وَمَسْغَبَةٍ ... لِكَى يقال عَزِيزُ النَّفْسِ مُصْطَبِرُ

وانْظُرْ بِعَيْنِكَ هَلْ أَرْضٌ مُعَطَّلَةٌ ... من النَّبَاتِ كأَرْضٍ حَفَّهَا الشَّجَرُ

فَعُدَّ عَمَّا تُشِيرُ الأَغْبِيَاءُ بِهِ ... فأىُّ فضلٍ لِعُودٍ مالَهُ ثَمَرُ

وَارْحَلْ رِكَابَكَ عن رَبْعٍ ظَمِئْتَ بِهِ ... إلى الجَنَابِ الَّذِى يَهْمِى بِهِ المطرُ

(١) سورة المائدة ٣ .

واستَنْزِلِ الرِّىّ من دَرِّ السَّحابِ فإنْ
بُلِّتْ يَدَاكَ به فَلْيهنِكَ الظَّفَـرُ
وإنْ رُدِدْتَ فَمَا فى الرَّدِّ مَنْقَصَةٌ
عليْكَ ، قد رُدَّ موسَى قَبْلُ والخَضِرُ

* * *

مسغبة : جوع . حفَّها : حلّقها ، يريد أنّ الأرض ذات الخصب تُقصَد لما فيها من الأرزاق ، والأرض المُعَطّلة من النبات ـ وهى الجدبة ـ يفرّ عنها ، وكذلك الغنىّ يُكرَم لمالِه ، والفقير يهجر ويهان .

[فضل المال]

ومما جاء فى فضل المال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمجاشعىّ : « إنْ كان لك مالٌ فلك حسب ، وإن كان لك خُلُق فلك مروءة ، وإن كان لك دينٌ فلك كرم » .

وقال حكيم لابنه : يا بنىّ أوصيك ، عليك بطلب المال ، فلو لم يكن إلا أنه عزّ فى قلبك ، وذلّ فى قلب عدوّك[1] .

وقال آخر لابنه : يا بنىّ أوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسّكت بهما : درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك .

وكان سعد بن عبادة يقول : اللهمّ ارزقنى حمداً ومجداً ، فإنه لا مجدَ إلاّ بفَعَال ، ولا فعال إلاّ بمال .

وقالوا : المال آلة للمكارم ، وعون على الزمان ، ومتألّف للإخوان ، ومَنْ فقدَه قلّت الرغبة إليه والرهبة منه .

قال سفيان الثورىّ : المال سلاح المؤمن فى هذا الزمان .

(١) هامش ط : « قوله : « فلو لم يكن إلا أنه » جواب لو محذوف ، أى لكفاك أونحوه »

وكان لأحيحة بن الجلاح بالزَّوراء ثمانمائة ناضح ، فدخل بستانًا له فمرَّ بتمرة فلقطها ، فلِيمَ على ذلك ، فقال : تمْرة إلى تمرة تمرات ، وجَمل إلى جمل ذَوْد . ثم أنشد يقول :

إنّى مقيمٌ على الزَّوراء أعمُرُها ... إن الحبيب إلى الإخوان ذو المالِ[1]
استغن أومت ولا يغررْك ذو نشَبٍ ... من ابن عمّ ومن عمٍّ ومن خالِ[2]
كلّ الفداء إذا ناديتُ يَخذُلُنى ... إلاّ الفداء إذا ناديتُ يا مالى

وقال عروة بن الورد :

ذريني للغِنَى أسْعَى فإنّى ... رأيتُ النّاسَ شرُّهُمُ الفقيرُ[3]
وأدناهم وأهونُهُمْ عليهم ... وإن أمسى له حَسَبٌ وخِيرُ
يُباعده القريب ونَزْدَريه ... حليلتُه ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤادُ لاقِيهِ يطيرُ
قليل ذنبه والذّنب جمٌّ ... ولكنْ للغنى ربٌّ غفور

ومن أمثال بغداد : المال المال ، وما سواه محال .

قوله : الأغبياء : الجهال ، وأراد بهم الّذين يأمرون بالبخل . ظمئت : عطشت . والركاب : الإبل . والجناب : الجانب والناحية . يهمى : يسيل . والرِّىّ : الشبَع من الماء ، والصَّوْب وقع الماء . والظفر : الفوز بالحاجة ، يقول : فارق أرضك واغترب فى طلب المال ، واسأل الكرماء يعطوك .

وقال الشاعر :

سأعمِل نصَّ العيس يوماً ليكفِنى ... غِنَى المال يوما أو غِنَى الحدَثانِ
فالموتُ خيرٌ من حياة يُرى بها ... على المرء بالإقلالِ وَسْمُ هَوانِ

---

(١) الاغانى ١٥ : ٣٧ ، وفيه : « على الإخوان » (٢) الأغانى : « ولامم »
(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٣٤ ، ولم ترد الأبيات فى ديوانه .

إذا قال لم يُسْمَعْ لحسن مقالهِ وإن لم يقـل قالوا عديمُ بيانِ
كأنّ الغنى فى أهله يجعل الفتى بغـير لسانٍ ناطقاً بلسان

وأشار بقوله : « قد رد موسى قبل والخضر ، إلى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾[1] .

وفى نسب الخضر اختلاف ، منهم مَنْ جعله من قابيل بن آدم ، ومنهم من يجعل بينه وبين سام بن نوح خمسة آباء ، ويجعله من ذرية سام ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إنما سُمِّىَ خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتزّ خضرة » . والفروة : الأرض البيضاء ، وقصته مع موسى مشهورة . وقيل إن موسى صاحبه غير موسى بن عمران . وقال موسى للخضر حين فارقه : عظنى فقال : لا يراك الله حيث نَهَاك ، ولا يفقدُك حيث أمرك ، فكما تذهب بأمل صادق فتخيب ، قد تذهب بأملٍ كاذب فتصيب ، وتذهب للحقير ، وتدرك الجليل . وقد ذهب موسى ليقتبس ناراً ، فكلّمه ربه . وقد تقدّم هذا .

قال ابن عبد ربه : مما جُبِل[3] عليه الحرّ الكريم ، ألاّ يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشىء مما انبسط له من أمر الدنيا ، بل يكون أمله فيما هو أسمى درجة وأرفع مرتبة ، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وهو عامل بالمدينة لدُكين[2] الراجز : إن لى نفساً توّاقةً ، فإذا بلغك أنى صرت إلى أشرف من منزلتى فأتنى . فلما صار خليفة أتاه ، فقال : أنا أعلمتك أن لى نفسا توّاقة ، وأنّ نفسى تاقت إلى أشرف منازل الدنيا منزلة ، فلما بلغتُها وجدتها تَتُوق إلى أشرف منازل الآخرة منزلة .

ومن الشاهد لهذا المعنى أنّ موسى عليه السلام لمّا كلّمه ربه تكليماً سأله ،

---

(١) سورة الكهف ٧٧ (٢) ط : « الرعين » تحريف (٣) العقد ٣ : ٢٠ ، ٢١

النظر إليه إذْ كان ذلك ـ لو وصل إليه ـ أشرف من المنزلة التى نالها ؛ فالحرّ الكريم لا يقنع بمنزلة إلا رجا أشرف منها قال : ومن قولنا فى هذا المعنى :

والحرّ لا يكتفى أبداً من نيل منزلةٍ ... حتى ينال التى من دونها العطبُ
يسعى به أملٌ من دونه أجلٌ ... إن كفّه رهبٌ يدعو به رغبُ
لذاك ما سال موسى ربّه : أرنى ... أنظرْ إليك وفى تسآله عجبُ
يبغى التزيّد فيما نالَ من كرم ... وهو النجىّ لديه الوحىُ والكُتُبُ

وقال حبيب : [1]

ذرينى وأهوالَ الزمان أقاسِها ... فأهواله العظمى تليها رغائبه[1]

* * *

قال : فلمّا أن رأى القاضى تنافِىَ قولِ الفتى وفعلِهِ ، وتَحَلِّيَهُ بما لَيْسَ من أَهله ، نَظَرَ إليه بعينٍ غَضْبَى ، وقال : أَتميميًّا مرةً وقيسيًّا أخرى ! أفٍّ لمن ينقُضُ ما يقول ، ويتلوّنُ كما تتلوّن الغُولُ . فقال الغلام : والّذى جَعَلك مفتاحاً لِلْحَقّ ، وفتّاحًا بين الخلق ؛ لقد أُنسِيتُ مذ أُسِيت ، وَصَدِئَ ذهنى مذ صَدِيت ؛ على أنّهُ أَينَ البابُ الفتحُ ، والعَطاءُ السُّرُح ! وهَلْ بين مَنْ يتبرعُ باللُّهَا ، وإذا استُطعِم بقول : ها !

قال له القاضى : مَهْ فمع الخواطِئِ سَهْمٌ صائبٌ ، وما كل بَرْقٍ حالِبٌ . فميِّزِ البُرُوق إذا شِمْتَ ، ولا تَشْهَدْ إلاّ بما عَلِمْتَ .

---

(١) ديوانه ٤٤ .

قوله تحلّيه : تزيّنه ، وقوله : أتميميًّا مرة وقيسيًّا أخرى ، مثل يضرب لمن يتناقض فيما يقول ، تقديره : أتنسَب مرةً لتميم وتنسَب مُرّةً لقيس ! وتميم وقيس قبيلتان عظيمتان ، وبينهما أبداً مكافحات ومقاتل ، وتميم هذا ابن مرّة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ، وقيس ابن الياس ، قال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الدرداء ، إذا فاخرت ففاخرْ بقُرَيْش ، وإذا كاثرت فكاثر بتميم ، وإذا حاربت فحارب بقيس ، إلاّ أن وجهها كنانة ، ولسانها أسد ، وفرسانها قيس ، ألاَ إن لله فرسانا فى سمائه وهم الملائكة ، وفرسانا فى الأرض وهم قيس ، وإنّ آخر من يقاتل على الإسلام حين لا يبقى إلا ذكره ، ومن القرآن إلا رسمه ، رجل من قيس » ، قلت : يا رسول الله ، من أىّ قيس ؟ قال : من سُلَيم . وفى البديعية :

إنّ حالى مع الزما ن كحالى مع «المُنسَب»[1]
أنا أصحى مع النّبيـ ـطِ وأمسِى مَعَ العربْ
نسبى فى يد الزما ن إذا سامه انقلبْ

وقال زفر بن الحارث لعمران بن حِطّان : أزيديًّا مرة ، وأوزاعيًّا أخرى ! وقال عمران بن حِطّان :

فاعذر أخاك ابن زنباعٍ فإنّ له فى النائبات خطوباً ذات ألوانِ[2]
يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ وإن لقيتُ مَعَدِّيًّا فعدنانى

وقال آخر :

أفى الولائد أولادٌ لواحـدةٍ وفى العبـادة أولادٌ لعلاّتِ

قوله : يتلوّن ، أى يتغير ويتنوّع . والغُول : ساحرة الجن ، وهو يتصوّر

(١) مقامات الهمذانى ١٠٥ (٢) الكامل ٣ : ١٧٠

فى صور شتى . وأخذه من قول كعب بن زهير :

فما تدومُ على حالٍ تكونُ بها إلاّ كما تلوّنُ فى أثوابها الغُولُ[1]

وتزعم العرب أنه إذا انفرد رجل فى الصحراء ظهرت له فى خِلْقة إنسان ، ولا يزال يتبعها حتى يضلّ الطريق ، فتدنو منه ، وتتمثل فى صور مختلفة فتهلكه رَوْعاً . وإذا أرادت أن تضلّ الناس أوقدت نارا فيُبصرها السارى فيقصدها ، فتفعل ذلك وتروِّعه ، فإن كان الذى يأتيها شجاعا مِقْدَاماً تحامل وتبعها ، فإذا رأت ذلك لم تضرّه ، وجلس يصطلى بنارها وهى معه . وقال تأبّط شرا :

وأدهَمَ قد جبتُ جِلبابه كما اجتابت الكاعبُ الخَيْعَلاَ[2]
إلى ضوء نارٍ تنوّرتُها[3] فبتّ لها مدبراً مُقْبِلاَ
فأمسيتُ والغُول لى جارةٌ فيا جارتا أنت ما أهْوَلا
فمن يك عن جارتى سائلاً فإنّ لها باللِّوى منزلا

قال أبو عمرو رحمه الله بات تأبّط شرًّا ليلة ذات ظلمة ورعد وبرق بواد يقال له : رحَى بطان ، فلقيَه الغول - وهو سبُعٌ من سباع الجنّ - فما زال يقاتلها حتى قتلها ، فقال :

ألاَ مَنْ مبلغٌ فتيان فَهْمٍ بما لاقيتُ عند رحَى بطانِ[4]
فإنّى قد رأيت الغُول تهوِى بسَهْب كالصَّحيفة صَحْصحان[5]
فشدَدْت شدّة نحوى فأهوَى لها كفّى بمصقولٍ يمانِ
لها عينان فى رأسٍ قبيح كرأس الهرّ مشقوق اللسان
وساقاً مخدَج وشَواةِ كلب وثوبٌ من عباء أو شِنَان[6]

---

(١) ديوانه ٨ (٢) الشعر والشعراء ٣١٣ . والخيعل : الفرو ، واجتابته : لبسته .
(٣) الشعراء : « على شيم نار » (٤) مختار الأغانى ٢ : ١٥١ .
(٥) السهب : الفلاة . والصحصحان : ما استوى من الأرض .
(٦) المخدج : الناقص الخلق . والشواة : قحف الرأس . والشنان : القربة الخلقة .

قالوا : وخِلْفَتُها خلقة إنسان ورجْلاها رجلا حمار ، فإذا صاح بها الرَّجُل : رجلى حمار ! نهقت نهيقا لا تخطىء السَّبسب والطريق ، وفرَّت منه .

وانظر فى القاسمة والأربعين ذكر القطرب وفيه شىء مستظرَف .

قوله: فَتَّاحًا ، أى حاكما . وافتح بيننا ، أى احكم بيننا ، والفتّاح : الناصر ، والفتح : النصر . والحاكم ينصر المظلوم . أسيت: حزنت صدىٌ ذهبى ، أى تغطى بالغفلة ، من الصَّدأ ، وهو ما يعلوه من الدَّرَن . وصَديتُ ، غير مهموز أصدى صدًى ، وأراد مذ افتقرت علانى الوسخ ، وصحبنى النسيان . الفُتُح : الكثير الفَتْح الواسع الذى لا يغلق فى وجه قاصده . السَّرُح . الكثير الذى يسرح صاحبه فى أنواع الجود ، والسرح : السهل السريع ، وناقة سَرُوح : مسرعة فى سيرها . يتبرع : يتفضّل بجوده متطوعاً ، وتبرّع : تطوّع . اللها : العطايا . ها . معناها : خذ وتناول . وذكر أبو محمد هذه اللفظة فى الدّرة[1] فقال : ويقولون لمن يُناول شيئاها، بقصر الألف ، فيلحنون فيها ، لأن الألف ممدودة كما جاء فى الحديث: « الذهب بالذهب ربًا إلا هاء وهاء » . ويجوز فيه فتح الهمزة وكسرها مع المدّ ولا تقصر إلا إذا اتصلت بها كاف الخطاب ، فيقال : هاك ؛ كما يروى أن عليا رضى الله عنه آب إلى فاطمة رضى الله عنها من بَعض مواطن الحرب ، وسيفه يَقْطر دما ، فقال :

* أفاطمَ هاكِ السيف غيرَ مذمَّمِ *

وعند النحويين أنّ المد فيها بدل من كاف الخطاب ، لأنّ أصل وضعها أن تقترن كاف الخطاب بها . فساقها أبو محمد هنا مقصورة بغير كاف ، ووقع فيما زعم أنه لحن . فإن قيل : لعلّها لما وقعت فى فقرة موقوف عليها ، يحتمل فيها ذلك ، فنقول : إنه قد أردفها على فقرة قبلها مقصورة بإجماع ، وهى اللها فسوّاها معها ؛ على أن أهل اللغة حكموا فى اللفظة أربع لغات : ها مقصورة كما فى المقامة ، وهاء

(١) درة الغواص ٨٦

بالمدّ مع فتح الهمزة وكسرها . وسمع رجل أبا العتاهية ينشد :

فانظر بطرفك حيث شئـــت فلن ترَى إلا بخيلا

فقال : قد بخّلت الناس كلّهم ، فقال : كذبتَ بنى أنت بواحد منهم سخيّ .

قوله : مه : اكفف . الخواطئ : السهام تخطىء الغرَض ، وهذا مثل يضرب لمن يكثر الخطأ ويأتى أحياناً بالصواب . خالب : خادع شِمْت البرق : نظرت سحابه أينَ يمطر . أعظم : جعله عظيما .

* * *

فلمّا تبيّن للشّيخ أنّ القاضى قد غضبَ للكرَام ، وأعْظَمَ تَبْخيل جَميعِ الأنام ؛ علم أنه سَيَنْصُرُ كلمتَه ، ويُظْهِرُ أكرُومتَه ، فما كذّب أن نَصَبَ شَبَكَتَهُ ، وشَوَى فى الْحريق سَمَكتَه ، وأنشأ يقول :

يأيّها القاضى الّذى عِلْمُهُ وحِلْمُهُ أرْسَخُ مِنْ رَضْوَى
قد ادّعى هذا عَلَى جَهْلِهِ أنْ لَيْسَ فى الدُّنْيا أخوجَدْوى
وما دَرَى أنّك من مَعْشرٍ عطاؤهمْ كالمَنِّ والسَّلْوى
فجُدْ بما يَثْنيه مُسْتَخْزِيًا ممّا افترى مِن كذبِ الدَّعْوَى
وأنْشَنِى جَذْلانَ أُثْنِى بما
أوْلَيْتَ من جَدْوَى ومن عَدْوَى

* * *

والحريق : ما تحرقه النار من الحشيش والعيدان ، وناره ضعيفة لا تدوم . السمك : كبش الماء ، فلا يستوى إلاّ على نارٍ قوية فربّما شوى سمكته ما دام لهب النار موجوداً ، فإذا سكن اللهب لم يتمكن من شيّها لعدم الجمر فى الحريق ، فيريد أنّه حرّض القاضى بالشعر على الكرم ، حين اهتزّ للكرام ، وغضب

من تبخيلهم . فهزّه بهذا الشعر ليجود عليه قبل أن يسكن ، فربّما يبدو له ألاّ يجود . أرسخ : أثبت رضوى : جبل بالمدينة سَهْل مشتق من الرضوان ، كأنّ الذى يصعده راض عنه لقلة المشقّة فى صعوده . أخو جدوى : صاحب عطية وكَرَم. المنّ والسلوى : طعام كان يَنْزل على بنى إسرائيل ، وقيل : المنّ الترنجبين والسلوى السمانى ، وهو طائر . يثنيه : يردّه . مستخزيا : صاغرا خاضعاً . ويروى «مستخديا» ، والخدية : الاستحياء ، أو يكون بمعنى مهانا ، والخزى : الهوان افترى : كذب واستبعد أثنى جذلان : أرجع فرحاً . أوليت : أعطيت . جدوى : إعانة ، أى أرجع بالجدوى ، وبإعانتك لى عليه حتى يتوب من عقوقه .

* * *

قال : فهشّ القاضى لقولِهِ ، وأَجْزَلَ له من طَوْلِهِ ، ثمّ لفتَ وَجْهَهُ إلى الغُلام ، وقدْ نَصَلَ لَهُ أسْهُمَ المَلاَم ، وقال لَهُ : أرأيْتَ بُطْلَ زَعْمِك ، وخَطَأَ وَهْمِك ! فلا تَعْجَلْ بَعْدها بذَمّ ، وَلاَ تَنْحَتْ عُوداً قبل عَجْم ، وإيّاكَ وَتَأَبِّيك ، عن مُطَاوَعَةِ أبيك ، فإنّك إن عُدْتَ تَعُقُّهُ ، حاقَ بك منّى ما تستحِقُّه ، فسُقِط الفتَى فى يَدِهِ ، ولاذَ بحَقْوِ وَالِدِه ، ثم نَهَضَ يُحْفِد ، وتَبِعَهُ الشَّيْخُ يُنْشِد :

مَنْ ضامه أو ضارَهُ دَهْرُهُ فليَقْتَصِد القاضِىَ فى صَعْدَهْ
سَمَاحُهُ أزْرَى بِمَنْ قَبْلَهُ وعَدْلُهُ أتْعَبَ مَنْ بعدَهْ

* * *

هشّ : فرح . أجزل : أكثر . طَوْله : إفضاله وهباته . ولفت : ردّ . نصل : جعل له نصالا ، وأنصلها : نزع نصالها ، والنَّصْل : حديدة السهم . بطل زعمك ، أى بطلان قولك . وهمك : ظنك . تنحت : تنجر . عَجْم : اختبار ،

أى حتى تعلم : هَلْ هو قويٌّ أوضعيف ، يقول : لاتعتب أحداً حتى تجرّبه . قوله: وإياك وتأبّيك عن مطاوعة أبيك ، أى احذر أن تمتنع عن مطاوعة والدك ، فإنك ومالك لأبيك.

جابر رضى الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، إن أبى أخذ مالى ، فقال له: اذهب ، فأْتِنى به ، فأوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يسأل الشيخ عن شىء فى نفسه ، قاله فى شأن ابنه . فلمّا جاء الشيخ ، قال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: ما بال ابنك يشكوك ؟ أتريد أن تأخذ ماله ! فقال : سله يا رسول الله ، هل أنفقتُه إلا على نفسى أو على إحدى عماته أو خالاته ! فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : دَعْنى من هذا ، أخبرنى عن شىء قلتَه فى نفسك ، ما سمعتْه أذناك ، فقال : يا رسول الله ، ما زال الله يزيدنا بك يقينا ، لقد قلتُ فى نفسى شيئاً ، ما سمعته أذناى ، وأنشد يقول :

غذوتُك مولوداً وعُلْتُك يافعاً ... تَعَلّ بما أجنى عليك وتنهلُ
إذا ليلةٌ ضافتك بالسُّقْم لم أبتْ ... لسقمك إلاّ ساهراً أتململُ
كأنى أنا المطروقُ دونَك بالّذِى ... طُرِقت به دُونى فعيناى تَهمل
تخاف الرّدى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجّلُ
فلما بلغتَ السنّ والغاية التى ... إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمّلُ
جعلتَ جزائى غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعِم المتفضّل
فليتك إذْ لم ترعَ حق أبوّتى ... فعلتَ كما الجار المجاور يَفْعَلُ

قال : فحينئذ أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه ، وقال : «أنت ومالك لأبيك» .

قوله : حاق ، أى نزل ، تقول : حاق به المكروه والشؤم يَحِيق حَيْقا ، نَزَلا به .

ابن عرفة: وجبا عليه وألزماه ، قال الأزهرى رحمه الله: الحيق مايحيط بالإنسان من سوء عمله ومكروه فعله ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ ، أى لا ترجع عاقبة مكرهم إلا عليهم . سُقِط فى يده ، يقال ذلك للنادم المتحيّر ، ويقال : سُقِط فى يده وأُسْقِطَ فى يده ، إذا ندم على فعله ، وتحسَّر عليه ، واليَد هنا : الندم ، وقوله : سَقَط الفتى فى يده ، قال جماعة من أهل اللغة : صوابه : سُقِط فى يده من غير تسمية الفاعل ، لأن الفعل يسند إلى المجرور . وقال الأزهرى رحمه الله : إنما حَسَّنَ سُقِط فى يده بضم السين ، غير مسمًّى فاعلُه الصلة ، وهى فى يده ، ومثله قول امرئ القيس :

* دع عنك نهبا صِيح فى حَجَراته *

أى صاحَ المنتهب فى نواحيه ، وكذلك المراد سقط الندم فى يده . وقال أبو القاسم الزجاجى: سُقِط فى أيديهم نظم لم يُسمع قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ، فيوجد فى أشعارها وخفى على الإسلاميين قال أبو نواس :

* ونشوة سقطت منها فى يدى *

وأخطأ فى استعمالها ، لأن فعلت لا يُبنَى إلا مما يتعدّى ، لا يقال : رغبت ولا غضبت ، إنما يقال رغب فىّ وغضب علىّ . لاذ : لجأ وتستّر ، ولاذ فلان بفلان: تستر به ودار حوله ، وبعضهم يقول: ألاذ ، والأولى هى الغالبة ، واللواذ مصدر لاوَذ ، ولذا أثبتت الواو، ولو كان مصدر «لاذ ، لقلت لياذاً، كقمت قياماً.

بحقو : مَعْصَر ، وجمعه أحقاء وحقاء . وحفد يحفد أسرع . ضامه : أذله .

ضارَه : ضرّه : أزرى : قصّر . وتقدم معنى البيت في الرسالة السادسة والعشرين

* * *

قال الرّاوي : فحِرْت بين تعريف الشّيخ وتنكيره ، إلى أن احْرَوْرَف لمسيره . فناجَيْتُ النَّفْسَ باتّباعه ، وَلَوْ إلى رِباعِه ، لَعَلِّي أَظْهَرُ عَلَى أسراره ، وأَعرفُ شَجَرَةَ ناره ، فنفذْتُ المَلَق ، وَانطَلَقْت حيث انْطَلَق ، ولم يَزَلْ يَخطُو وأَعْتَقِب ، ويُبْعِدُ وأَقترب ، إلى أن تَرَاءى الشَّخْصان ، وحقّ التَّعارُف على الخُلْصان ، فأَبْدَى حينئذٍ الاهتِشاش ، وَرَفَعَ الارْتِعاش ، وقال : مَنْ كاذبَ أخاه فَلاَ عاشَ . فعرفت عِنْد ذلك أنّه السَّرُوجي بلا محالةَ ، وَلاحُتُول حالَة . فأَسْرعْتُ إليه لأصافِحَهُ ، وأستعرِفَ سانِحَهُ وبارِحَهُ ؛ فقال : دونك ابنَ أخيكَ البَرّ ، وتَرَكَني ومَرّ . فلم يَعْدُ الفتى أن أَنَ افترّ ، ثمّ فرّ كما فرّ ، فَمُدْتُ وقد استَبنتُ عَيْنَهُمَا ، ولكنْ أَيْنَ هما !

* * *

احرورف : مال وانحرف . ناجيت : حدّثت . رباعه : دياره . شجرة ناره ، يريد أصل جبلّته . أعتقب : أمشي خلفه واتبع عَقِبه . تراءى : ظهر ، وخُلْصان الرجل : صديقه الذي خلصت له مودّته . الاهتشاش : الطّرب والبِشر . الارتعاش : الرِّعْدة ، يريد أن داءه كذب لاحقيقة له بحاله : حيله . حتول : تغيّر . أصافحه : أعانقه وأسلّم عليه . أستعرف سانِحَه وبارحه ، أي أطلب منه

أن يعرّفني بخيره وشره . والسانح من الطير والوحش ما مرّ على ناحية يمينك ، والبارح ما مرّ على ناحية يسارك . وقيل : السانح ما أولاك ميامنه ، والبارح : ما أولاك مياسره ، وأكثر العرب تتبرك بالسّانح وتتشاءم بالبارح ، وبعضهم يتبرّك بالبارح ، ويتشاءم بالسانح ، والسانح : الذى يمر عليك عن مياسرك إلى ميامنك ، فيمكن للطّاعن طعنه ، وللرامى رميه ، فالذى يتيمّن به يرى أنه رزق حاصل ، والذى يُتَشاءم به يرى أنّه عاطب وهالك ، والبارح بالضدّ ، فالأول يَرَى أنه فائت ، ورامیه خاسر فيتشاءم به ، والثانى يرى أنه سالم غير عاطب ، فيتَيَمّن به ، والذين يتيمّنون بالبارح ويتشاءمون بالسانح أهل نجد ، والذين يضادّونهم أهل العالية .

قوله : دونك ، أى خذه واقصده . البرّ : والبار : الكثير الإكرام لأبويه . افترّ : ضحك . استبنْت : عرفت . عينهما : شخصهما ، وجعله آخر المقامة برّا له لموافقته له فى الحيَل ، وَجَرت العادة بأنّ الأب إذا كان نجيباً ، فالابن بالضدّ ولهذا قال الشاعر :

إذا أطلع الدّهْر حرًّا نجيباً ... فكن فى ابنه سَيِّئ الإعتقادْ
فلست ترى مِنْ نجيب نجيباً ... وهل تترك النّار إلا الرمادا

* * *

المقامة الثامنة والثلاثون وهي المروية

حكى الحارثُ بن هَمّام قال: حُبِّبَ إليّ مُذْ سَعَتْ قَدَمِى ، ونفثَ قَلَمِى ، أن أتّخذ الأدب شِرْعة ، والاقتباس منه نُجْعَة ؛ فكنتُ أُنقّبُ عن أخبارِه ، وخَزَنَةِ أسرارِه ؛ فإذا ألفت منهُمْ بُغيَة الملتمس ، وجَذْوة المقتبس ، سَدَدْت يدى بَغَرْزِهِ ، واستنزلْتُ منه زَكاةَ كَنْزِه ؛ على أنّى لم ألقَ كالسَّرُوجىّ فى غزارَةِ السُّحْب ، وَوَضْعِ الهَناء مواضِعَ النُّقَب ؛ إلاّ أنّهُ كانَ أسْيَرَ من المثل ، وأسْرَعَ من القمرِ فى النُّقَل ، وكُنْتُ لِهَوَى مُلاقاتِهِ ، واستحسان مَقاماتِهِ ، أرغبُ فى الاغتراب ، وأستعذب السَّفَرَ الّذِى هو قِطعة من العذابِ .

* * *

قوله : نفث ، أى كتب ، والنَّفْث ما تلقيه من فيك من البُصاق الغليظ ، فشبّه ما يلقيه القلم من المداد بالنَّفْث ، هذا ظاهر اللفظ ، وإنما أراد فى المعنى بالقلم ذِكْره ، ونفثه مفيه ، فكنّى عن البلوغ بذلك ، فهو يريد وقت الحلم ، وهو الوقت يَقْوى فيه على المشى فى الأسفار ، والتصرف ؛ كذا فسره لنا بعض حُذّاق أشياخنا ، وفسرّه الفنجديهى على ظاهره ، فقال : معنى مذ سعت قدمى نفث قلمى ، مذ قدرت على المشى والكتابة والنظم والنثر . شِرْعة : طريقة وشريعة وعادة ، ومعناه : أصرف همتى إلى علم اللغة والعربية . قال الشافعى رضى الله عنه : مَنْ تعلّم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نَبُل مقداره ، ومَنْ تعلّم اللغة رقّ طبعه ، ومن تعلّم الحساب جَزُل رأيه ، ومن كتب الحديث قوِيَت حجته

ومن لم يصنْ نفسَه ، لم ينفعه عملُه .

الاقتباس : الاكتساب وهو افتعال ، من القَبس . نجعة : طلب المرعى ، أى جعلت طلب الأدب لى غذاء ورزقا . أنقّب : أبحث . أخباره : علمائه . ألفيت : وجدت . بغية : حاجة . الملتمِس : الطالب للشىء . جَذْوة : جمرة عظيمة . والمقتبِس : الطالب للنار ، والغرْز : للرجْل ، كالرّكاب للسرْج ، ومعنى شددت بغرزه ، أى تمسكت بركابه وبالغت فى خدمته ، روى ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أخذ بركاب رَجُلٍ لا يرجوه ولا يخافه غفر له » .

غزارة : كثرة ، والسّحب : جمع سحابة ، كَنَى بها عن كثرة العلم . الهناء : القَطِران . النُّقَب : جمع نُقْبة وهو أوّل ما يبدو من الجَرَب ، وهو مثلٌ لمَنْ وضع الشىء فى موضعه ، أراد أنه ماهر ، أى حاذق يعطى كلّ طالب ما يستحقه ويشفيه من سؤاله ، لأن الجهل فى القلب بمنزلة الدّاء ، فهذا يوقع بيانه بموضع الجهل ، فيبرأ صاحب ذلك من دائه ، ووضع الهناء مواضع النقب ، عَجُزُ بيت لدريد بن الصمّة ، وكان خرج فرأى الخنساء الشاعرة تهنأ ذوداً لها ، ثم نَضَتْ ثيابَها واغتسلت وهو يراها ولا تراه فقال :

حَيُّوا تُماضرَ وارْبَعُوا صَحْبِى ... وقِفُوا فإنّ وقوفكم حَسْبِى (١)
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به ... كاليوم طالىَ أُبْنُقِ جُرْبِ
متبذّلاً تبدُو محاسنُه ... يضع الهناء مَواضع النُّقبِ

وتُماضر اسم الخنساء . قوله : أسيَر من المثل ، أى أنه لا يستقرّ ببلد .

---

(١) الشعر والشعراء ٣٠٢ والأغانى ١٥ : ٧٦ وبعد هذا البيت هناك :

أخْنَاسَ قد هَامَ الفؤاد بكمْ ... وأصابَه تَبْلٌ من الحبِّ

النقل ، يريد انتقاله فى المنازل فلا يقيم بمنزلة سوى ليلة ، وينتقل فى الثانية إلى أخرى ، فأراد أنّ أبا زيد لا يستقرّ ببلد إلاّ ما يستقرّ القمر بمنزله وهى ليلة واحدة ، بل هو أسرع من القمر فى ذلك ، وإنما خَصّ القمر به لأنّه أسرع الكواكب ثقلةً من بُرْج إلى بُرْج ، إذ لا يمكث فى البرج إلا يومين أو ثلاثاً ، والبرج منزلتان وثلث ، والشمس تمكث فى البرج ثلاثين يوماً ، وعطارد يمكث فيه سبعة عشر يوماً ، والمشترى اثنى عشر شهراً وزُحَل ثلاثين شهراً ، والمرّيخ شهراً ونصفا ، والزُّهرة ستة وعشرين يوماً ، والرأس والذنب ثمانية عشر شهراً ، ذلك تقدير العزيز العليم .

قوله : وأستعذب السفر الذى هو قطعة من العذاب : هو حديث صحيح ، رواه مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نُهْمَتَهَ من وجهته فليعجّل الرجوعَ إلى أهله ». النُّهمة . بلوغ الهمة والشهوة والحاجة ، ورجل منهوم بكذا مولَع به .

* * *

فلمّا تطوّحتُ إلى مَرْو ، ولا غَرْوَ ، بشّرَنى بمَلْقَاهُ زَجْرُ الطَّيْر ، وَالفأل الذى هو بَرِيدُ الخَيْر؛ فلم أَزَلْ أنشُده فى المحافل، وعند تلقّى القوافل. فلاَ أَجِدُ عنه مُخبِرًا ، ولاَ أَرَى له أَثَرًا ولا عِثْيَرًا ، حتى بلغ اليأسُ الطمعَ وَانْزَوَى التأميلُ وانقطَع ، فإنّى لذاتَ يوم بحضْرة والى مَرْو ، وكان ممّن جمَع الفضلَ والسَّرْو ، إذ طَلَع أبو زَيْدٍ فى خَلَقٍ مُمْلاَق ، وَخُلُق مَلاّق. فحيّا الوالِىَ تحيّةَ المُحْتَاجِ ، إذا لقِى ربَّ التاج ، ثم قال له:

اعلم وقيتَ الذّم ، وكفيتَ الهمّ ؛ أن من عُذِقَت به الأعمال ، أعلقت به الآمال، وَمَن رُفِعَتْ له الدّرجات، رُفِعَتْ إليه الحاجات. وَأنّ السعيد مَنْ إذا قَدَرَ ، وَوَاتَاه القَدَر ، أدّى زكاة النّعم ، كما يؤدّى زَكاة النَّعَم، والتزمَ لأهْل الحَرَمِ ، ما يُلْتزمَ للأهل والحَرَم . وقد أصْبحتَ بحمد الله عَميد مِصْرِك ، وعمادَ عَصْرِك ، تَزْجَى الرّكائب إلى حَرَمِك ، وتُرْجَى الرّغائب من كَرَمِك ، وتُنْزَل المطالبُ بساحتك، وتُسْتَنْزَلُ الرّاحة من راحتِك ، وكان فضلُ الله عليك عظيما ، وإحسانُه لديك عميماً .

* * *

قوله : تطوّحت ، يقال : تطوّح فى البلاد : ذهب به هاهنا وهاهنا ، فأراد بقوله : تطوّحت : رميت بنفسى إليها .

[ذكر مرو]

مَرْو : بلدة بخُراسان[1] ، جليلة لها قرى ومحلاّت ، وتسمّى أمّ خُراسان ، وهى دار خلافة المأمون ، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة ، يُنسب إليها . الثّوب مَرْوِىّ والرجل مَرْوزىّ ، وهو شاذ النسب، ومن مَرْو إلى مَرْو[2] خمس مراحل ، وعلى مرو نهر قوهته بالسّابيان ، وهو جبل عظيم الارتفاع ، تسيل منه أنهار تخترق بلاد خُراسان ، منها وادى خُوارزم ، مسيرته أربعون يوماً ، ووادى القندهار مسافته شهر ، ونهر سجستان ، مسافته شهر ، ونهر مَرْو ، مسافته شهر ، ونهر هَرَاة مسافته عشرون يوماً ، ونهر بَلْخ مسافته اثنا عشر

(١) يريد مرو الشاهجان ، ولصبتها نيسابور .
(٢) يريد من مرو الروذ إلى مرو الشاهجان ؛ ذكرها ياقوت .

يوما ، وبلخ هى متوسّطة خراسان ، منها إلى فرغانة ثلاثون مرحلة مغربا ، وإلى سجستان مما يلى القبلة كذلك وإلى كابول وقندهار كذلك ، وإلى خوارزم كذلك . وأهل مَرْو أطبع الناس على البُخْل ثم أهل خراسان ، قال ثمامة: ما رأيت الدّيكَ يأكل فى بلد قطّ إلا وهو يدعو الدجاجة إلى الحَبّ ، ويلفظ الحب إليها ، إلا بمَرْو ، فإننى رأيته يأكلُ وحده ، فعلمت أنّ لؤمهم كثير جدّا ، وهو فيهم طبع ، ورأيتُ بها طفلا صغيرا ، بيده بيضة ، فقلت له أعطنيها ، فقال لى : ليست تسعُها فى يدك ، فعلمت أنّ المنع طبع مركّب فيهم .

لا غرو : لا عجب . زَجْر الطـــير . التفاؤل بها ، وفسّر الشافعىّ رضى الله عنه قوله النبىّ صلى الله عليه وسلم « أقرّوا الطيرَ على مكِناتها[1] » . لأن الرجل كان فى الجاهلية ، إذا أراد الحاجة أتى الطائر فى وَكْرِه فنفّره ، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته ، وإن أخذ ذات الشمال رجع» . فنهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « لا عَدْوى ولا طِيَرة ، ويعجبنى الفأل » قيل : وما الفأل ؟ قال : « كلمة طيبة ».

[العيافة والزجر]

وزجْر الطير القيام بها، والتشاؤم . وكان عند العرب قوّة زائدة وإدراك ، فينظر الزّاجر منهم للطائر ، ولما يفعل ، فيستقرى من ذلك ما يتيامَن به ويتشاءم منه ، مثل ما يحكى عن أمية بن أبى الصّلت أنه كان يشرب مع إخوان له فى قصر غَيْلان بالطائف ؛ إذ سَقَط غراب على شرف القصر، فنعب نعبة ،فقال له أميّة : بغيك الكَشْكث- وهو التّراب، فقال له إخوانه مايقول؟ قال : يقول: إذا شربتَ الكأس الذى فى يدك مِتّ . ثم نعب نَعْبة ، فقال أميّة نحو ذلك ، فقالوا له :

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية ٤ : ٢٥٠ ، وقال فى شرحه : « أى لا تزجروها وأقروها على مواضعها التى جعلها الله لها » .

وما يقول ؟ قال : زعم أنّ علامةَ ذلك أن يقع على هذه المزبلة تحت القَصْر ، فيستثير عظما ، فيشجَى به فيموت . فبينما هم يتكلّمون ، إذوقع الغراب على هذه المزبلة ليلتقط ، فاستثار عظما ، فأراد أن يبتلعه ، فشجيَ به فمات ، فانكسر أمّيّة ، ووقع الكأس مِنْ يده ، وتغيّر لونه ، فجعلوا يعيّرونه عليه ، ويقولون : ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا ، وكان باطلا ! فألحّوا عليه ، حتى شرب الكأس ، فمال[1] فى شِقّ فأغمى عليه ، ثم أفاق ، وقال : لابرىء فأعتذِر ، ولاقوىّ فأنتصر ، ثم زهقت نفسه[2] .

وحكى المدائنى قال[3] : خرج كُثيّرٌ من الحجاز يريد مصر ، ليزور عَزّة ، فلما قرُب منها رأى غراباً على شجرة ينتف ريشه ، فتطيّر من ذلك ، فلقيه رجل من بنى لِهْب[4] فقال : ياأخا الحجاز ، مالك كاسفَ اللون ؟ فذكر له ما رأى ، فقال : إنك تطلب حاجة لاتدرِكُها . فقدِم مصر ، والناس منصرفون من جنازة عزّة فقال :

---

(١) كذا فى الأغانى ، وفى ط : « فبال » .

(٢) الخبر فى مختار الأغانى ١ : ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) ورد الخبر فى ديوان كثير ٤٦١ هكذا : « قيل : وفدت عزة كثير على عبدالملك بن مروان فلما دخلت سلمت ، فرد عليها السلام ، ورحب بها وقال : ماأقدمك ياعزة ؟ قالت : شدة الزمان وكثرة الألوان واحتباس القطر وقلة المطر ، قال : هل ترين لكثير : »

وقَدْ زَعَمَتْ أنّى تغيّرتُ بعدها ومَنَ ذَا الّذِى ياعَزُّ لا يتغَيَّرُ

قالت لا ، ولكنى أورى له :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضتْ من الصمّ لو تمشى بها العُصْمُ زلّتِ

فقال : ماكنت لتصيرى إلى حاجة أو تنهى نفسك لى فأزوجك منه . قالت : الأمر إليك ، ياأمير المؤمنين ؛ ماكنت لأزهد فى هذا الشرف الباقى لى مادامت الدنيا ؛ أن يكون أمير المؤمنين ولي . فعظم بذلك قدرها عنده ، وأمر لها بمال ، وكتب إلى كثير وهو بالكوفة أن اركب البريد وعجل فإنى مزوجك عزة ، فأتاه الكتاب وهو مضن من الشوق إليها ؛ فرحل فأقبل نحوها ، فلما كان فى بعض الطريق . . » وساق بقية الخبر كما هنا .

(٤) بنو لهب ، من قبائل العرب الذين اشتهروا بالعيافة والزجر . وفى الديوان : « بنو نهد » تصحيف .

رأيتُ غُراباً ساقطاً فوق بانةٍ ينتّف أعْلَى ريشه ويُطايرُهْ
فقلت ولو أنّى أشاء زجرتُه بنفسىَ لِلّهبِّى فهل أنت زاجره
فقال غرابٌ لاغترابٍ من النوى وفى البانِ بَيْنٌ من حبيب تجاوره
فما أعيَف اللّهبىّ لادَرّ دَرُّه وأزْجَره للطّير ، لاطار طائرُه[1]

وممّن زجر لنفسه بشرّ ذو الرّمة فقال :

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق قَضْبَةٍ من القَضْبِ لم يَنْبُتْ لها ورقٌ خضرُ[2]
فقلتُ غرابٌ لاغترابٍ وقضبةٌ لقَضْبِ النوى ، تلك العيافةُ والزّجْرُ

وممّن زجر بخير أبو حيّة ، حين قال[3] :

وقال صِحابى هُدهدٌ فوق بانةٍ هدًى وبيان بالنّجاح يلوحُ
وقالوا دمٌ ، دامت مواثيق بيننا ودامُ لنا حلو الصفاء صَريحُ
وقالوا حمامات ، فحُمّ لقاؤها وطلحٌ فزيرت والمطىُّ طُلُوحُ

ومن مُلح الزّجر زجر أبى نواس ، وذلك أنه استخفى عنه أصحابه ، وكان لايفارقهم ، ووجّهوا رسولاً إليه ، فرمى له ظهر قرطاس من وراء الباب ، غير مكتوب ، وخرموه بزبر ، وختموه بقار ، وأمروا الرسول أن يرمِىَ إليه الكتاب من وراء الباب ، فاستعلم موضعهم ، وتعرف حالهم ، وكتب إليهم :

زجرت كتابكمْ لمّا أتانى بمرّ سوانحِ الطّيرِ الجوارى
نظرتُ إليه مخروما بزبرٍ على ظهرٍ ومختوما بقارِ
فعِفت الظّهر أهيف قُرْطَقِيّا يَحارُ الطّرْف منه باخورارِ
وكان الزّبرُ ذَا شدْوٍ مصيب وقارُ الختم من قارِ القُفار

---

(١) ديوانه : « لاعز ناصره ».
(٢) ملحق ديوانه ٦٦٧
(٣) من قصيدة له فى الأمالى ١ : ٧٠ والاغانى ١ : ٢٤٣ ، وأبيات منها فى المحاسن والمساوى ٢ : ١٧ .

فطِرتْ إليكمُ يا أهلَ وُدِّى بقلْبٍ من هواكمْ مستطارِ
فكيف ترونني وترون زَجْرِى ألستُ من الفلاسفة الكبارِ !

وما أحسن قول ابن قاضى مِيلة[1] وجمع الوصفين :

ولمّا التقينا مُحرِمين وسيرُنا بلَبّيكَ يطوى والرّكائبُ تَعْسِفُ
ففلت لِتِرْبَيْها أبلغاها بأنّنى بهـا مستهامٌ قالتا : نتلطّفُ
تفاءلتُ فى أن يطوى طارقُ الهوَى بأنْ عنّ لى منها البَنان المطرَّفُ
وأمّا دماء الهَدْيِ فهو تواصُلٌ يدومُ ورأىٌ فى الهوَى يتألّفُ
وفى عَرَفاتٍ ما يخبّر أنّنى بعارفةٍ من نَيْل وصلِكِ أسعَفُ
وتقبيل ركنِ البيت إقبالُ دَوْلةٍ لنـا وزمانٌ بالمودّة يعطِفُ
وأباحتْها ما قلتُه فتنَهّدَتْ وقالتْ أحاديثُ العيافة زُخْرُفُ
لئن كنت ترجُو فى مِنَى الفوزَ بالمُنَى فباخَيْفِ من أعراضنا نتخوّفُ
وقد أنذر الإحرام أنّ وصالنا حرامٌ وأنّا عن مرادِكَ نُصْرَفُ
فهذا وَقَذْفى باخلصا لكَ منذرٌ بأنّ النوى لى عن ديارك تَقْذف
فبادِرْ نفارِى ليلةَ النّفر إنّه سريع وقُلْ مَنْ بالعيافة أعرَفُ

* * *

قوله: أنشُده ، أى أطلبه والحافل : الجموع . والقوافل : الرفاق الرواجع . عثيرا : غبارا . اليأس : قطع الرجاء . انزوى: انقبض . التأميل: الترجّى، وهو مصدر أمّل الخير ،أى ترجّاه . انقمع: انكفّ . السّرْو: السيادة . مملاق : فقير. ملاّق : متلطّف فى كلامه. عُذِقت: عُلّقتْ وشدّدت به ،وعذق شاته بعذقها، إذا ربط فى صوفها خرقة تخالف لونها . الدرجات : المنازل الشريفة .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى إفريقية ، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام . ياقوت

«خُلقان يحبُّهما الله ، وهما السخاء والسماحة، وخلقان يُبغِضهما الله ، وهما البخل وسوء الخلق . وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله على قضاء حوائج الناس » .

وقال خالد بن صفوان : لا تسأل الحوائج ثلاثة لا تُسألها : كذوباً ، فتقرّب بعيداً ويبعِّد قريباً ، ولا أحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك ، ولا رجلا له إلى صاحبك حاجة ، فإنه يصيِّر حاجتك بطانة لحاجته .

واتاه : وافقه وطاوعه . أدّى : أعطى . زكاة النّعم : الإبل والشاء ، أى أعطى الصنائع والمعروف .

الحُرَم : جمع حرْمة ، أراد بذلك أهلَ الصِّيانةِ والعفاف .

الفنجديهى : الحرَم أقوام محترَمون ، والحرَم الثانى :الأهل والقرابة ، ومَن يحرُم على الإنسان نكاحُه أو أتركه لضياعه . عميد : سيّد .

مصرك : بلدك ، والمِصْر : الحدّ ، ويكتب أهل نجد : اشترى فلان من فلان الدار بمُصورِها ، أى بحدودها.

قطرب : هو مأخوذ من مَصَرْت الناقة أمصُرها مَصراً ، إذا حَلَبْتَها ، وجعلتَ ضَرْعَها بين إصبعين ، فخرج من اللبن شىء قليل ، فيسمّى مِصْراً ، لأن الناس يجيئون إليه ثم يثبتون ، أوّلَ فأوّلَ وقيل : المصر العلامة .

العماد : ما يقوم عليه الخِباء ، شبّهه فى قيامه بالأمور بالعماد .

تُزْجَى : تساق . الرّكائب : الإبل . حرمك : بلدك وموضعك الذى تحميه . الرغائب : العطايا . ساحتك : فناء دارك . راحتك : كفّك .

ونذكر من الأحاديث ما يوافق هذا الفصل الذى قدّمنا تفسيره .

قال النبىّ صلى الله عليه وسلم «مَنْ عظُمت نعمة الله عليه عَظُمت مئونة الناس

إليه ، فإن لم يَقُمْ بتلك المئونة عرَّض النِّعمة للزوال » .

عمرو بن العاص : والله لَرَجُلٌ ذكَّرنى ، ينام على شِقّة مرّة ، وعلى الأخرى أخرى ، يرانى موضعا لحاجته لَهُوَ أوجب علىّ حقا ؛ إذا سألها منى أن أفضيَها له .

وقف العتّابى بباب المأمون ، فجاء يحيى بن أكثم ، فقال له : إن رأيتَ أن تُعلِم أمير المؤمنين بموضعى ! قال : لست بحاجب قال : لقد علمتُ ، ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِعْوان ، قال : سلكت بى غير طريقى ، قال : إنّ الله تعالى ألحقك بجاه ونعمة فهما مقيمان عليك بالزيادة إن شكرتَ ، وبالتغيّر إن كفرت ، وأنا اليوم لك خير منك لنفسك ، أدعوك إلى ما فيه زيادة نعمتك ، وأنت تأبَى ذلك ، ولكل شىء زكاة ، وزكاة الجاه بذلُه للمستعين .

[من غرر المدائح]

وأما قوله : تزجى الركائب إلى حرَمك ، فهو كثير فى الشعر ، ونذكر منه شيئاً يبين حالة القصد لهذا الاسم ، وقال الحسن يمدح الأمين[1] :

أقولُ والعيس تعرورِى الفلاَة بنا ... صعْر الأزِمّة من مَشْنَى وَوُحْدان[2]

يا ناقُ لا تسأمِى أو تبلُغِى مِلَكاً ... تقبيلُ راحته والركن سيّانِ

محمدٌ خير مَنْ يمشى على قدمٍ ... مِمّن برا الله من إنسٍ ومِنْ جانِ

محمد بين أمـــلاكٍ تفضّله ... ولادتَان من المنصور ثنتان

تنازع الأحدان الشَّبْه فاشتبها ... خَلْقاً وَخُلقاً كما قُدَّ الشِّراكان

سيّان لا فرق فى المعقول بينهما ... معناهما واحدٌ والعِدّة اثنان

وقال حبيب :

إلى أحمدَ الممدوح أمّتْ بنا السُّرَى ... نواعبُ فى عُرْضِ الفَلاَ ورواسمُ[3]

(١) هو الحسن بن هانئ المعروف بأبى نواس ، والأبيات فى ديوانه ٦٥ .

(٢) المرورى : سار فى الأرض وحده . والصعر : جمع أصعر وصعراء ، من الصعر وهو الميل .

(٣) ديوانه ٢٨٦ ، وأمت : قصدت . نواعب : مسرعات . رواسم : ترسم الأرض بأخفافها .

إلى سالم الأخلاق مِنْ كلِّ عائبِ ... وليس له مال من الجود سالمُ
جدير بألاَّ يصبح المال عنده ... جديراً بأن يبقى وفى الأرض غارم[1]

وقال آخر[2] :

سأجهد عزمى والمطايا فإننى ... أرى العفوَ لا يُمتاحُ إلا من الجُهْدِ
سَرَيْنَ بنا رهواً ووخداً وإنما ... يظلّ ويُمسى النّجح فى كنف الوخدِ[3]
قواصدُ بالسير الحثيث إلى أبى ... المغيث فما تنفك ترقُلُ أو تُخْدِى[4]
إلى مُشرق الأخلاق للجود ماحوَى ... ويحوى وما يخفى من الأمر أو يُبْدى
فتًى لم يزل تُقْضَى به طاعة الندى ... إلى العيشة الغراء والشُّؤْدِ الرغد[5]

وقال فيها معتذراً :

أتانى مَعَ الركبان ظنٌّ ظننتُه ... لَفَفْتُ له رأسى حياء من المجْدِ[6]
ومن زمن أبستغيه كأنه ... إذا ذكرت أيامُه زمنُ الورْدِ
أسَرْبِلُ هجرَ القول من لو هَجَرته ... إذاً لمجانى عنه معروفه عندى
كريمٌ متى أمدحْه أمدحه والورى ... معى ومتى ما لُمْتُه لُمْتُه وَحْدِى[7]

وقال أبو الطيب :

فلم تلقَ ابنَ إبراهيم عَنْسِى ... وفيها قوتُ يومٍ للقُرادِ[8]

---

(١) غارم : خاسر.
(٢) هو أبو تمام والأبيات فى ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩
(٣) فى ط : « زهوا » تصحيف . والزهو : السير السهل . والوخد السير السريع .
(٤) الحثيث : السريع . وترقل : تسرع » .
(٥) فى الديوان : « الفيحاء المسراء » .
(٦) ط : « رأساً » .
(٧) هذا البيت من شواهد البلاغة ، وانظر معاهد التنصيص ١ : ٢٥ .
(٨) ديوانه ١ : ٣٥٧ . وفى ط . « عيسى » والعنس : الناقة الصلبة .

فلمّا جئتُه أعلَى محلّى وأجلسنى على السَّبْع الشدادِ[1]
تهلّلَ قبلَ تسليمى عليه وألقى ماله قبلَ الوِسَادِ
كأنّ الهامَ فى الهيجا عيونٌ وقد طُبِعت سيوفك من رقادِ
وقد صغتَ الأسنّة من هموم فما يَخْطِرن إلا فى فؤادى

وقال أبو الهندىّ :

سألناه الجزيلَ فما تأنّى وأعطى فوق مُنْيَتِنا وزادا
وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُدْنا فأحسن ثم عدتُ له فعادَا
مراراً ما قصدتُ إليه إلاّ تَبسّم ضاحكا وَثَنَى الوسادا

وقال أبو الطيب :

ولمّا قلّت الإبلُ امتطينا إلى ابن أبى سليمانَ الخطوبا[2]
مطايا لا تَذِلّ لِمَنْ عليها ولا يبغى لها أحدٌ رُكوبا
وترتع دُون نبتِ الأرض فينا فما فارقتُها إلا جديباً[3]
إذا نُكِبَتْ كِنَانتُه استبنّا بأنصُلها لأنصِلها نُدُوبا[4]
يُصيب ببعضها أفواق بعضٍ فلولا الكَسْرُ لاتّصلت قضيبا[5]

---

(١) قال شارحه: السبع الشداد، يريد السنوات السبع، والشداد هنا: المتقنة الصنع، قال تعالى: (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً)

(٢) ديوانه ١ : ١٤٠ .

(٣) الديوان : « حربيا » .

(٤) نكبت : قلبت على رأسها . والكنانة : الجعبة . قال الشارح « المعنى : إذا ألقى ما فى كنانته رأينا لنصوله آثارا فى فصوله لأنه يرميها على طريقة واحدة، فتصيب النصول بعضها بعضا » .

(٥) الفوق من السهم : موضع الوتر والجمع أفواق . قال شارحه : « المعنى يريد أنه حسن الرمى ، وأنه يصيب ببعض نصوله أفواق السهام التى رماها ، وأنه لولا كسر السهام لاتصلت حتى تصير قضيباً مستوياً ، أى غصنا » .

ألستَ ابن الأولى سعِدُوا وَسادُوا
ولم يلدُوا امرَأً إلاّ نَجِيبا[1]
ونالوا ما اشتهوْا بالحزم هَوْناً وصاد الوحشَ نبلهُمُ دَبيبا
وما ربحُ الرِّياض لها ولكنْ كساها دفنهُمْ فى التُّرْبِ طيبَا

ومن المدح قول السَّرِىّ فى أبى الحصين القاضى :

لقد أضحتْ خِلالُ أبى حُصَينٍ حصونا فى الملمّات الصعابِ[2]
كسانى ذيلَ[3] نائلهِ وآوَى غرائب منطقى بَعْدَ اغترب
فكنتُ كروضةٍ سُقيت سحاباً فأثنت بالنّسيم على السّحاب

وقال بديع الزمان وشاعر الأوان :

يا سيّد الأُمرَا فخراً فما مِلكٌ إلاّ تمنّاك مولًى واشتهاك أبا[4]
وكاد يحكيك صوبُ الغيث منسكبا لو كان طلق الحيّا يُمطِرُ الذّهبا
والدّهر لو لم يخُنْ والشمس لو نطقتْ والليث لو لم يصد[5] والبحرُ لو عَذُبا

هذه الجملة كافية وكأنها تفسير ما أجمل من ذكر ممدوحه .

* * *

ثمّ إنّى شيخٌ تَرِبَ بَعْدَ الإتراب، وعَدِمَ الإعْشاب، حين شاب. قصدتُك من مَحَلّةٍ نازحة ؛ وحالةٍ رَازِحة ، آمل من بَحْرِك دُفعة ، وَمِنْ جاهِكَ رفعة. والتأميلُ أفضل وسائِلِ السائل ، ونائلِ النائل ؛ فأوجِبْ لى ما يجب عليك ، وأحسنْ كما أحسَنَ اللهُ إليك . وإيّاك أن تَلْوِىَ

(١) ط : « وجادوا » .
(٢) ديوانه ٧٣
(٣) الديوان : « ظل نائله »
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٧٦
(٥) ط : « يصل » تحريف .

عِذَارك ، عَمّن ازدارَك ، وأمّ دَارَك ، أو تَقْبِضَ راحك ؛ عمّن امتاحَكَ ، وامتار سَمَاحك ؛ فوالله ما مَجد من جَمَد ، وَلا رَشَد من حَشَد ؛ بل اللبيب مَنْ إذا وَجَد جاد ، وَإن بَدَأ بعائدةٍ عاد ؛ والكريمُ مَنْ إذا استُوهب الذَّهَب ، لم يهبْ أن يَهَب .

ثمّ أمسك يَرْقبُ أكْلَ غَرْسِهِ ، ويرصُدُ مَطْيَبَةَ نَفْسِهِ . وأحب الوالِي أن يعلمَ : هل نُطفتُه ثَمَد ، أم لقريحته مَدد ! فأطرَقَ يُرَوّى فى استيراء زَنْدِه ، واستشفافِ فِرِنْدِه ، والتبس على أبى زيد سِرُّ صَمْتَتِه ، وإرْجاءِ صِلَتِه ، فتوغّر غضبا ، وأنشد مقتضِبا :

* * *

قوله : تَرِب ، افتقر فلم يبق له ما يقعدُ عليه غيرَ التراب . والإتراب : الاستغناء ، وأترب : صار له من المال بكثرة التراب . والإعشاب : إصابة العشب ، وأراد به المال . مَحَلّة : منزل يحلّ فيه .

نازحة : بعيدة . رازحة : كالّة من الهُزال ، ورزح رُزُحًا : كلّ من العمل .

ابن الأنبارى : رزح فلان : ضَعُف ، وذهب ما فى يده ، وأصله من رَزَحَتْ إبلُ فلان وكلابه ، إذا ضعفت ، ولزقت بالأرض ، وقيل : هو من المرزَح ، وهو المطمئن من الأرض ، فكأنّ الرازح قد لزمه ، وضعف عن الارتقاء إلى العلوّ . آمل : أرجو . جاهك : عزّك . والوسائل : جمع وسيلة ، وهو الشّفيع ، فجعل نأمولَه أفضلَ وسيلة . نائل : عطاء ، والنّائل : المعطى ، ونِلْتُ

له بالعطاء أنول وأنلت أنيلُ ، ورجل نالٌ[1] ورجلان نالان ، ورجال أنوال ، ونلتُه أنوله نَوْلا أعطيته ، قال الأعشى :

يَنولُ العشيرةَ ما عنده ويغفر ما قال جُهّالُها[2]

تلوى عِذارك : تعرض بوجهك . ازدارك ، بمعنى زارك ، واستعمل قصدَك . راحك : جمع راحة ، وهى باطن الكف . امتاحك : استسقاك وأراد طلب معروفك ، قال الرّاجز :

أفلح ساق بودّيكَ امتاحا وقرّ عينا ورجا الفلاحا

قوله : امتارَ : استجلب منك الرزق . سماحك : جودك . تَجُدَ : كَرُم ، وصار ماجدا ، أى شريفا ، ومَجُد يمجُد ، مجداً فهو ماجد ، ومجد مجادة فهو مجيد . وقيل : المجد تكرّم الآباء خاصة ، وقيل : الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفى . وقيل كَرم الفعل . جد : بخل . حشد : جمع المال . اللبيب : العاقل . وجد : استغنى . جاد : تكرّم . عاد : فعلها مرة بعد أخرى ، وقد تقدم منظوما . لم يهب : لم يخف . أن يهب : أن يعطى ، وهذا كله قصد فيه التجنيس فجاء منه بكل بديع .

قوله : نطفته ثمَد ، أى قليل .

الأزهرى : النطفة تقال للماء القليل والكثير ، ورأيت أعرابيا شرب من ركية غزيرة الماء فقال : والله إنها لنُطفة باردة ، والثمد : الماء القليل الذى لا مدَد له . قريحته : ذهنه . أطرق : أى أمال رأسه للفكرة . فى استيراء زنده : فى استخراج ناره ، وأراد طلب ما عنده من العلم والاستشفاف : الاستقصاء فى

---

(١) فى القاموس : رجل نال ؛ أى جواد كثير النائل .

(٢) ديوانه ١٦٩ .

النظر والتأمل فيما يبصره، واستشف الثوب : جعله طاقا واحدا ، أو رفعه فى ظل حتى ينظر : أكثيف هو أم رقيق ، واستشفّه : رأى ماوراءه ، والاستشفاف : النظر إلى كلّ شىء صقيل . الفِرِنْد : جوهر السيف ، وأراد أن الوالى أعجب بكلامه ، فأراد أن يعلم هل كان فى حفظه لغيره أو ارتجاله لنفسه . صَمْتَته : سكتته . إرجاء : تأخير . توغّر : توقّد . مقتضبا : مرتجلا .

* * *

لا تَحْقِرَنْ أبيْتَ اللَّعْنَ ذَا أدبٍ ... لِأَن بَدَا خَلَقَ السِّربالِ سُبُروتَا
ولا تَضِعْ لأخى التأميل حُرْمَتَهُ ... أكانَ ذا لَسَنٍ أم كانَ سِكِّيتَا
وانْفَحْ بِعُرْفِكَ مَنْ وافاكَ مُخْتبِطًا ... وانْعَشْ بِفَوْتِكَ من ألفيتَ مَنْكوتَا
خيرُ مالِ الفتَى مالٌ أشادَ له ... ذِكْرًا تنا قَلَهُ الرُّكْبانُ أوْصِيتَا
وما على المشترى حمدًا بموهبةٍ ... غَبْنٌ ولو كان ما أعْطاهُ يَاقُوتَا
لَوْلاَ المروءةُ ضاقَ العُذْرُ عن فَطِنٍ ... إذا اشْرَأبَّ إلى ما جاوَزَ القُوتَا
لكِنَّهُ لابتناءِ المَجْدِ جَدَّ ومِنْ ... حُبِّ السَّماحِ ثَنَى نحو العُلاَ لِيتَا

* * *

قوله : أبَيْتَ اللعن ، تحية ملوك الجاهلية ، قال ابن الأنبارى رحمه الله فى تفسيرها قولان : أحدهما أبيت أن تأتىَ من الأشياء ما تستحق اللّعن عليه ، فاللّعن منصوب ، والآخر ـ وهو أردأ القولين ـ أن تكون الألف بمعنى «يا» ،

وبيت من البيوت مضاف إلى اللعن ، لأن بعضهم يخفض اللعن ، وتقديره : يا بيت اللعنِ : سمة للملك ، نقل من الوجه الأول لكثرة الاستعمال ، ألا ترى أنها تعطى معنى النداء فى البيت ، وتقديره : يا ملك أو يا أمير ، ويتضمّن معناه الدعاء ، أى جعلك الله ممّن يكره اللعن ؛ ولذا وقع اعتراضا بين اللفظين ؛ الأول طالب للثانى ، كما قال ابن محلِّم :

إنّ الثمانين — وبُلِّغتَها — قد أحوجت سمعى إلى تَرْجمان[1]

سَبْرُوتا : فقيرا محتاجا ، والسَّبْروت : الفقير الذى لا ثياب له . ذا لَسَنٍ ، أى فصيحا . سِكِّيتا : عَيِيًّا كثير السكوت . انفَحْ بُعْرْفك ، أى ارم بمعروفك . انعش بغوثك ، أى ارفع بعطيتك ، والغوث الإغاثة ، وهى المبادرة بالنصرة لمن جاء يستغيثك . والإنعاش أن ترى رجلا قد أهوى للسقوط فترفعه ، أو افتقر فتجبره . منكوتا : ملقًى على رأسه ، ونُكِت الرجلُ فهو منكوت ، إذا ضُرِب فأسقِط على رأسه . قوله أشاد : أى رفع .

[الذكر الحسن]

صيتا : ذكرا حسنا . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند الله فانظروا ما يتّبعه من حسن الثناء » .

وقيل لبعض الحكماء : ما أحمد الأشياء ؟ قال : أن يبقى للانسان أحدوثة حسنة .

أكثم بن صَيْفىّ : إنما أنتم خَبر ، فطيّبوا أخباركم ، أخذه حبيب فقال :

وما ابنُ آدم إلا ذكر صالحةٍ أو ذكر سيّئة يسرى بها الكَلِمُ

(١) من قصيدة له فى أمالى القالى ١ : ٥٠

أمّا سمعتَ بدهرِ باد أمّتُــه جاءت بأخبارها من بعدها أُمَمُ

الأحنف : ما ادّخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوى الأحساب .

وقيل لمعاوية : أىّ الناس أحبّ إليك ؟ قال : مَنْ كانت له عندى يد صالحة ، قيل : فإن لم تكن ؟ قال : فمَنْ كانت لى عنده يد صالحة .

قال بُزُرْجُمِهر : إذا أقبلتْ عليك الدنيا فأنفق منها فإنّها لا تفنى ، وإذا أدبرتْ عنك فأنفِقْ منها ، فإنها لا تبقى . أخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

لا تبخلنّ بدُنْيــا وهى مقبلةٌ فليس ينقصها التبذير وَالسَّرَفُ
فإنْ تولّت فأحرَى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرتْ خَلَفُ

وقال آخر :

إذا جادت الدّنيا عليك فجُدْ بها على النّاس طُرًّا قبل أن تتفلّتِ
فلا الجودُ يُفنِيها إذا هى أقبلتْ ولا الشحُّ يُبقيها إذا هى ولّتِ

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر : مَنْ رزقه الله رزقا حسنا ، فلْينفِقْ منه سرًّا وجهراً ، حتى يكونَ أسعدالناس به ؛ فإنما يتركُ ما يترك لأحَدُ رجلين؛ إمّا لمصلح فلا يقل عنده شىء ، وإمّا لمفسد فلا يبقى له شىء . أخذه الشاعر فقال :

اجتَدْ بمالِكَ فى الحيــاة فإنّما يبقى خلافك مصلحٌ أو مفسدُ
فإذا جمعتَ لمفسدٍ لم تُغْنِــهِ وأخــو الصلاح قليله يتزَيَّد

[مما قيل فى المروءة]

قوله : لولا المروءة ، المروءة هى الأفعال الشريفة ، التى يجب أن يقال

الرجل بها مرء ، مثل الرّجولة للأفعال التى يستحقّ الرجل أن يقال له بها رجل .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لا دينَ إلاّ بمروءة » .

وقال عمر رضى الله عنه : المروءة مروءتان : ظاهرة وباطنة ، فالظّاهرة الرياش والباطنة العفاف .

قدم وفدٌ على معاوية رضى الله عنه ، فقال لهم : ما تعدون المروءة ؟ قالوا : العفاف وإصلاح المعيشة ، قال : اسمع يايزيد !

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « تجاوزُوا لذوى المروءات عثراتِهم ، فوالله إنّ أحدهم ليعثر وإنّ يده بيد الله » .

عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : إنّا معشرَ قريش ، نعدّ الحلم والجود سؤدُدا ، ونَعدّ العفاف وإصلاح المال مروءة .

أنوشِرْوان : المروءة ألاّ تعمل عملا فى السرّ تستحيِى منه فى العلانية .

غيره : المروءة اسم جامع للمحاسن كلها .

وقالوا : المروءة العفّة والحِرْفة .

قوله : اشرأبّ : تشوّف ، والتّشوّف أن تسمع بالشىء وتتطلّع أن تراه ، وتمتدّ أن تنظر إليه ، يقول : لولا الأفعال الجميلة كان عذر الفطن الحاذق يضيق عليه إذا سئل وقيل له : قد جاوز مالُك قوتَك ، وفضل عن مؤنتك ، فلِمَ تجهَد فى طلب المال ، وترغب فى الزيادة منه . قال : فالمروءة توسّع عليه عذرَه ، فيقول ذو المروءة . إنما اكتسبه لأنفقَه فى البرّ ، وبيّن هذا بقوله : « ثَنى نحوَ الغِنَى لِيتا » واللِّيت : صفحةُ العنق فيقول : إنما ثَنى عنقَه ، وأما لهَا حبًّا فى السماح .

وقد سَبقه إلى هذا التّهاميّ بقوله :

ولولا المطـايا أنّها سُنّةٌ له لما قال للدّنيا إذا عثرتْ : لعا[1]
فإن باشر الدنيا فللجود نالها[2] وإن هجر الدنيا فعنهـا ترفّعا

فزاد بقوله : « وإن هجر الدنيا » معنى حَسَنًا .

وقالوا : نعم العون على المروءة المال .

وقال الأحنف بن قيس :

فلو مُدّ سَرْوِى بمال كثيرٍ لجـدتُ وكنتُ له باذلاً[3]
فإن المروءة لا تُستطاعُ إذا لم يكنْ مالُها فاضلاً

وقال آخر :

لولا شماتة أعداء ذوِى حسدٍ أو أن أنال بنفعٍ مَنْ يُرَجّينى[4]
لما خطبتُ إلى الدنيا مطالبَها ولا بذلتُ لها عِرْضى ولا دِينى

* * *

وما تنشّقَ نَشْرَ الشُكْرِ ذو كرمٍ
إلاّ وأزْرَى بِنَشْرِ المِسْكِ مفتـوتا
والحمدُ والبُخْـلُ لم يُقْضَ اجتماعُهما
حتى لقدْ خِيـلَ ذا ضبًّا وذا حُوتا

---

(١) ديوانه ١٧٣ ، ولعا : صوت معناه الدعاء للعاثر بأن يرتفع من عثرته .
(٢) ديوانه
* فإن يلتمس الدنيا فللجُودِ لالها *
(٣) البيتان فى البيان والتبيين ٣ : ٢٩٢ .
(٤) البيتان فى العقد لابن عبد ربه ٣ : ٤٣٠ ، وفيه : « وأن أنال » وبعدهما :
لكنْ منافسة الأكفاء تحمِلُنى على أمورٍ أراها سوف تُرْدِينى
وقد خشِيتُ بأن أبقَى بمنزلةٍ لادين عندِى ولادنيا توافينى

والسَّمحُ فى الناسِ محبـــوبٌ خلائقه
والجامد الـكفّ ما ينفكّ مَمْقُوتا

وللشَّحيح على أمواله عِلَلٌ يوسعنَهُ أبداً ذمًّا وتَبكيتاَ

فَجُـــد بما جمعتْ كفّاك من نشبٍ
حتّى يُرَى مُجْتَدِى جَـــدْواك مَبْهُوتا

وَخُذْ نصيبك مِنْهُ قَبْلَ رائِعَـــةٍ
من الزّمانِ تريكَ العُودَ مَنْحُوتاَ

فالدهرُ أنـكَد من أن تَسْتَمِرَّ بِهِ
حالٌ ، تَـكَرَّهْتَ تِلْكَ الحالَ أم شِيتاَ

فقال له الوالى : تالله لَقَدْ أَحْسَنْتَ ، فأىّ ولد الرَّجُلِ أنْت؟ فنظَرَ إليْه عَنْ عُرْض ، وأنشد وهو مُنْغَضٍ :

لاَ تَسْأَلِ المرءَ مَنْ أبوهُ ورُزْ خـلا لَهُ ثمَّ صِلْهُ أو فاصْرِمِ
فما يَشِينُ الشلاَفَ حين حَلاَ مذاقُهاَ كَوْنُهاَ ابنَـةَ الحِصْرِمِ

* * *

قوله : تنشّق ، أى شم . نشر : رائحة . أزرى : عاب . مفتوتاً : مدقوقاً ، يقول : لَشكْرُ المعروف عند أهل الجود أعطرُ من ريح المسك إذا فتّ فانتشرت رائحته .

وقال إبراهيم الشيبانىّ : كنت أرى رجلا من وجوه أهل الكوفة ، لا يجفّ لِبدُه ، ولا يستريح قلبه فى طلب حوائج الناس ، وإدخال المرافق على الضعيف ، فقلت له : أخبرنى عن الحال التى هَوّنتْ عليك هذا التّعب فى القيام بحوائج

الناس ، ماهى ؟ قال: قد والله سمعت تغريدَ الأطيار بالأسحار فى فروع الأشجار، وسمعتُ خُفُوق أوتارِ العيدان وترجيع أصوات القِيان ، فما طربت من صوتٍ قطّ طَرَبِى من ثناء حسن ، بلسانٍ حسن ، على رجل قد أحسن ، وما سمعتُ أحْسنَ من شكر حرّ لرجلٍ حرّ، ومِن شفاعة محتسِبٍ لطالبٍ شاكر ، فقلت له : قبّح أبوك ! لقد حُشِيت كرماً ، فلذة السمع هنا بمنزلة الشم فى البيت .

خيّل : حسب ، والضبّ والحوت قد تقدّما فى الثامنة عشر .

قوله : الجامد الكفّ : هو البخيل، وهو ضدّ السّمْح . ممقوتاً : مبغوضاً . عِلَل : أعذار . يُوسِعْنَه ذمًّا ، أى يكثرن ذمه ، التبكيت : الهوان والتوبيخ . جُدْ : تكرّم . نشَب : مال. مجتدى جدواك : طالب عَطاياك. مبهوتاً: متحيِّراً، يريد أنه يعجب من كثرة ماتعطيه فيتحيّر وما يدرى كيف يشكرك !

[مدح الكرم وذم البخل]

ومن مدح الكرم وذم البخل قالوا :

لو لم يكن فى الكرم إلا أنه من صفات الله عز وجل .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله يحبّ الجود ومكارم الأخلاق ويذمّ سَفْسافها » .

وقيل لقوم من العرب : مَنْ سيّدكم ؟ فقالوا : فلانٌ على بخلٍ فيه ، فقال عليه الصلاة والسلام: « وأىّ داء أدْوى من البخل[1] » !

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

وقال المأمون لمحمد بن عباد : أنت متلاف ، فقال : مَنَع الجود سوء ظن بالمعبود، يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[3]

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٤٣
(٢) سورة الحشر ٩
(٣) سورة سبأ ٣٩

وقال كسرى : عليكم بأهل السخاء والشجاعة ؛ فإنهم أهلُ حسن الظن بالله ، ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرّ بخلهم ومذمة الناس لهم وإطباقُ القلوب على بغضهم ، إلا سوء ظنّهم بربهم فى الخَلَف لكان عظيما ، أخذه محمود الوارق فقال :

مَنْ ظنّ بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل مِنْ سوء ظنّ المرء بالله

وخوّف بخيلٌ سَخِيًّا الإملاق والفقر ، فردّ عليه السخىّ ، يقول: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾(١).

وقال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر : إنّك قد أسرفتَ فى بذل المال ، فقال : بأبى أنتما وأمّى ! إن الله عوّدنى أن يتفضّل علىّ ، وعوّدته أن أتفضّل على عبيده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنى عادته .

قوله : وخذ نصيبك منه قبل رائعة . الرائعة الشيبة ، لأنها تروّع الإنسان أى تفزعه ، وتعلمه أنها تأتيه بالكِبَر والهرم . والعود المنحوت ، أراد به الجسم اليابس لأنّ الهرم يُذهِب نعمة الجسم ، وأصل المنحوت المنجُور .

وأراد بقوله : خُذ نصيبَك قولَهُ عليه الصلاة والسلام: «يقول ابن آدم: مالى مالى ، ومالَه مِنْ مالِهِ إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى » .

[مما قيل فى الشيب]

وقال الشاعر فى الرائعة :

أهلاً برائعةٍ للشيب واحدةٍ تفنى الشباب وتنهانا عن الغَزَلِ(٢)

وقال أبو الطيب المتنبى :

راعتْك رائعةُ المشيب بعارضى ولو انها الأولَى لراعَ الأسحمُ(٣)

---

(١) سورة البقرة ٢٦٨ .

(٢) شرح الكبرى ٤ : ١٢٣ .

(٣) ديوانه ٤ ، ١٢٣ . العارض ، مايل الخد والأسحم : الأسود .

لو كان يُمْكِنُنى سَفَرْتُ عن الصِّبا فالشَّيب من قَبلِ الأوان يُكَتَّمُ[1]

وفى رواية ابن جنى: «رائعة البياض»، وقال: هى أول شعرة تطلع من الشيب. وأنشد ابن الأعرابى «أهلا برائعة الشيب» وأنشد غيره «برائعة بيضاء» أى بشعرة تطلع من المشيب بيضاء تروع الناظر، وهذا أصوب من الوجه الآخر، وقال كُثَيِّر:

كَذَب العواذل بل أردْنَ خِيانتى وبدتْ روائع لِمَّتِى وقُتُومُ[2]

وقال الألبيرى:

بصُرتُ بشيبةٍ وخطت بِلَيْلِى فقلت لها تأهَّبِى للرحيلِ[3]
ولا يَهُنِ القليل عليك منها فما للشيب وَيْحَك من قليلِ
فكمْ قد أبصرتْ عيناك مُزْنًا أصابك طلها قبلَ النُّزولِ[4]
فلا تحقِرْ بنوْر الشَّيب واعلمْ[5] بأنّ القطر يَبْعَثُ بالشُّيولِ

وقال أبو بكر البلوىّ:

نُكِبْت فى شعرى وشَعرى وما نفسىَ فى صبرى بمنكوبَهْ
إذا دنت بيضاء مكروهةٌ منّى فأت سوداء محبوبَهْ

وقال كُشاجم فأحسن:

نظرتُ إلى المراة فروّعتْنِى طلائع شيبتين لدَى المتابِ[6]
فأمّا شيبة ففزعتُ منهـا إلى المقراضِ من حبّ التّصابِى
وأمّا شيبة فصفحتُ عنها لتشهد بالبراءة من خِضَابِى

---

(١) الديوان: «تلثم».
(٢) ديوانه ٢٠٦، والقتوم: الشحوب والتغير.
(٣) ديوانه ١٤٧، ١٤٨
(٤) الديوان: «الهمول»
(٥) ديوانه: «بنزر الشيب»
(٦) ديوانه ١٠

فهالكَ من مشيبٍ قد تبدّى أقمت به الدّليل على شبابي[1]

وقال البحترىّ :

وأبتْ تركى الغديّاتُ والآ صالُ حتىْ قضيْن بالمقراضِ[2]
شعراتٌ أُقصُّهنّ ويرجِعْـ ـنَ رجوعَ السّهام فى الأغراض[3]

وقال ابن المعتزّ :

ألستَ ترى شيباً برأسِى شاملاً ونتْ حيلتى عنهُ وضاقَ به ذَرْعِى
كأنّ المقاريض التى يعتورْنَهُ مناقير طير تنتقِى سُنْبل الزّرْعِ

وقال رجل من الأزد :

ولقد أقولُ لشيبةٍ أبصرتُها فى مَفْرِقى فمحتُها إعراضِى
عنّى إليكِ فلستُ منتهياً لقدْ عَمّمْتُ منك مفارِقى ببياضِ
هل لى سوَى عشرينَ عاماً قدْمَضَتْ مَعْ ستةٍ فى إثرهنّ مواضى
ولقلّمـــا أرتاع منكِ وإنّنى فيما هويتُ وإن وزعتِ لماضِى
فعليك ما اسطَعْتِ الظّهورَ بِلِمّتِى وعلىّ أن ألقاكِ بالمقْرَاضِ

وقال أبو نواس :

وإذَا عَدَدْتُ السنّ كم هِى لم أجدْ للشّيب عذراً أنْ يُلِمّ براسى

وقال أبو دلف :

فى كلّ يوم أرَى بيضاء قد طلعتْ كأنما نبقتْ فى ناظِرِ البَصَرِ[4]
لئن قرضتُك بالمقراضِ عن بَصرى لمـا قَرضتُك عن همّى وعن فكرِى

---

(١) الديوان :

فيـا عجباً لذلك من مشيب أقتُ به الدليل على الذّهَابِ

(٢) ديوانه ١٢٠٩ ، وفيه «خضبت بالمقراض» (٣) الأغراض : الأهداف .
(٤) أمالى المرتضى ١ : ٦٠٨ ، وفيه : «كأنما طلعت فى أسوه البصر»

وقال كشاجم :

أخى قمْ فعاونّى على شيبةٍ بغتْ ... فإنىَ منها فى عَذَاب وفى حَرْبِ[1]
إذا مامَضى المنقاش يأتى بهاأتَت ... وقدأخذت من دونهاجارةَ الجنب
كحانٍ على السّلطانُ يَجْزَى بذنبهِ ... تعلّق بالجيران من شدّة الرُّعْبِ

ولأبى الفضل الدارمىّ :

شيبةٌ نغّصَتْ علىّ شبابى ... فتعمّدتُ نَتفَهـــا غيرَ وانِ
قلتُ ماذا كذا العمرُ التّصابى ... لشبابى أجلْ عنـد الحسانِ
فأجابت جَرَى من الرّسْم للسلـ ... ـطان أخذ البراء مِثلِ الجانى
فإن ازددتَ فى الجفاء فلا تنـ ... ـكرْ قدومى عليك مَعْ إخوانى

وهذا مثل قول الآخر :

وزائرةٍ للشيب لاحتْ بعارضى ... فبادرتُها بالقَطْفِ خوفاً من الحَتْفِ
فقالت على ضعفِى استطلت ووحْدتى ... رويدَك حتى يلحق الجيشُ من خَلْفِى
فلم يك إلا عن قريبٍ فأقبلَتْ ... وعمّت جميعَ الرأس رَغماً على أنفى
فوا أسفا لو كان يُغْنِى تأسّفِى ... على زمنٍ ولّى ونحنُ على حرفِ

وقال الرّمانى :

وثلاثِ شَيْبَاتٍ طَلَعْنَ بمفرِقى ... فظننتُ أن نزولهنّ رَحِيلِى
طلعت ثلاثٌ فى طلوع ثلاثةٍ ... واشٍ ووجهُ مراقب وعذولِ
فعزلْنَنِى عن صَبْوَتى فلئن ذلا ... تُ لقـد سمعتُ بذلّة المعزولِ

وفى معنى قول أبى نواس : « وإذا عددت السن كم هى » قال المعرى :

عجبتْ هنـدُ من تسرُّع شيبى ... قلت هذا عُقْبى فِطام السُّرورِ
عوّضتنى يد التقاسف من مِسْـ ... ـكِ عِذارىَ ريشاً من الـكافورِ

(١) زهر الآداب ٢ : ٨٩٨ .

كأنّ لى فى انتظار شَيْبى حسابٌ غالطنِى فيه صُرُوفُ الدُّهُورِ

وقال ابن الملح الشَّبْلىّ :

طَلَع المشيبُ بلمّتى فتعجّبوا من كدّه وَتعجبُوا من مُهْلَتِهْ
ماشبتمن كبَرٍ ولكن مَنْ يبتْ دنفاً ومشتاقاً يشِبْ من ليلتِهْ

وقال أبو عثمان الخالدىّ :

فديتُكِ ما شبتُ من كِبْرةٍ وهذى سِنِّى وهـذا الحسابُ[1]
ولكن هجرتِ فحلّ المشِيْبُ ولو قد وصلتِ لحلّ الشّباب[2]

وهذا القدر كاف .

* * *

قوله : فالدهر أنكد ... البيت يقول : إن كنت غنياً أو فقيراً فذلك حالٌ لاتدوم، كرهتَ أو رضيتها .

وقوله : أىّ ولد الرجل أنت ، هذا الكلام إنما يقع فى باب النفى ، قال يعقوب : تقول العرب : لاأدرى أىُّ ولد الرجل هو ؟ يعنون بالرّجل آدم وولده الناس ، فكأنه قال : ما أدرى أىّ الناس هو .

عُرْضٍ : جانب . مغضٍ : مغمض عينه ، يريد أنه لم يعجبه سؤاله ، فلم يقبل عليه بنظرِه ، ولا بإنشاده . ورُزْ ، بالراء قبل الزاى ، معناه اختبرْ واطلب . قال ابن الأنبارى : رزت ماعنده ، أى طلبتُه وأردته ، قال الزُّبيدىّ : الرّوْز قريب من التحقيق ، والروز أن تأخذ الصنجة بيدك ، فترفعها لتختبر ثقلها ، قال الشاعر :

وإنّ الله رازَ حلوم قيسٍ فلمـا ذاق خِفّتهـا قَلاها

وقال الأعشى :

فمشى ولم يخش الأنيـ ـس فرازها وخَلاَ بهـا

اصْرِم : اقطع الصحبة . الشّلاف : الخمر الخالصة . الحصرم : الحامض ، لأنّ

(١) ديوانه ١٠٨ (٢) الديوان : « لعاد الشباب »

عود العنب حامض ، ويتولّد عنه شيء لذيذ ، وتقدّم معنى البيتين .

وأما وجود الأشياء مع أضدادها مثل الحلاوة مع ما أصلهُ مرّ فله نظائر ، قال حبيب :

* والنار قد تُنتضَى من ناضِرِ السَّلَمِ *(١)

وقال المتنبي :

فإن الماء يَجْرِي من جمادٍ وإن النار تخرج من زناد(٢)

وقد يجرى أيضاً خلاف العادة فى الأشياء ، فقد يتشابه الشيئان من جهة ، ويتباعدان من أخرى .

قال المعرّى :

قد يَبْعدُ الشيءُ من شيء يُشابِهُه إنّ السماء نظير الماء فى الزَّرَقِ(٣)

قال المتنبي وقد سبقه إليه :

وقد يتقارب الوصفان جدًّا وموصوفا هما مُتباعِدان(٤)

وما أحسن قول ابن صارة :

يا مَنْ يعذِّبنى لمّا تملّكنى ماذا تريد بتعذيبى وإضرارى

تروقُ حسناً وفيك الموت أجمعه كالصّقل فى السّيف أو كالنور فى النار

وقال ابن عبدون أستاذ بلَنْسية :

يا مَنْ محيّاهُ جنّات مفتّحةٌ وهجره لى ذنب غيرُ مغفورِ

لقد تناقضتَ فى خَلْق وفى خُلُقٍ تعاقضَ النّار بالتدخين والنُّورِ

* * *

قال : فقرّبه الوالى لبيانِهِ الفائِق ؛ حتى أحلّه مَقْعَدَ الخائِن . ثم فَرَض له من سُيُوب نَيْلِهِ ، ما آذن بطولِ ذَيْلِهِ ، وقِصَرِ ليلِهِ . فنَهَض

(١) ديوانه ٢٦٩ . تنتقى : تستخرج ، وصدره :

* أخرجتموه بكرهٍ من سَجِيّتِهِ *

(٢) ديوانه ٢ : ٣٦٥ (٣) سقط الزند ٦٨٨ (٤) ديوانه ٤ ، ٢٥٥ .

عنه بِرُدْنٍ مَلْآن ، وقلبٍ جذلان ، وتبعتُه حاذِياً حَذْوَهُ ، وَقافياً خَطْوَهُ ، حتّى إذا خَرَج من بابِهِ ، وَفَصَل عن غابِهِ ، قلت له : هُنِّئْتَ بما أوتِيتَ ، ومُلِّيتَ بما أُوتيتَ . فأسفر وَجْهُهُ وتَلالأَ ، وَوالى شكراً لِلّهِ تعالى ، ثم خطَر اختيالا ، وأنشد ارتجالاً :

مَنْ يَكُنْ نال بالحماقـــة حظّا أو سَماً قَدْرُه لطِيبِ الأُصولِ
فبفضلى انتفعتُ لا بِفُضولى وبقولى ارتفعتُ لا بقُيولِي

ثمّ قال : تعساً لِمَنْ جدَبَ الأدب ، وطُوبَى لمن جدّ فيه ودَأب ، ثم ودَعنِي وذَهَب ، وَأَوْدَعَنِي اللّهَب .

* * *

قوله : مقعد الخائن : كناية عن القرب ، كما أن مَزْجَرَ الكلب كناية عن البعد . سهوب : عطايا ، وأصلها الكنوز والمعادن . نَيْلِه : ماله الموهوب ، وفى كتاب العَيْن : أفلت المعروف ونلته ونوّلته واسم ماتهب النَّوال والنَّيْل . آذن : أعلم . طول ذيله : كثرة ماله . قصر ليله : يريد قلة همه ، لأنّ المهموم لاينام فيطول ليله ، ووصف الليل بالطول والقصر ، وله باب مشهور فى كتب الأدب تركنا ذكره لشهرته وكثرته ، وعلّته راجعة لما ذُكِر من أن لَيْلَ السرور قصيرٌ ، وليل الهمّ طويل .

[مما قيل فى طول الليل]

وحدث إسحاق الموصلىّ قال : دخلت على الرشيد وهو مُستلقٍ على قفاه وهو يقول : أحسن والله فتى قريش وظريفها وشاعرها ، قلت : فيمَ ذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال فى قوله :

لا أسأل الله تغييراً لما فعلتْ نامت وقد أسهرتْ عينيَّ عيناها
فاللَّيل أطولُ شيء حين أفقِدُها واللَّيل أقصر شيءٍ حين ألقاها

ثم قال : أتعرفه ؟ قلت بصوت ضعيف : لا ، قال: بحق عليك ؟ قلت: نعم هو الوليد بن يزيد ، فقال استر ما سمعتَه مني ، وإنه ليستحق أكثرَ مما وصفته به[1]

ولبعضهم وأجاد :

إنّ اللّيالىَ للأنام مطيّةٌ تُطْوَى وتُنشر بينها الأعمارُ
فقِصارهُنّ مع الهموم طويلةٌ وطِوالهُنّ مع السرورِ قصارُ

وأنشد الفنجديهى للطرائفى :

أخو الهوى يستطيلُ الليلَ من سهرٍ واللَّيل فى طوله جارٍ على قَدَرِ
لَيْلُ الهوى سَنَةٌ فى الهجر مدَّتُه لكنّه سنة فى الوصل من قِصَرِ

وأنشد السّلامى رحمه الله :

ليلى وليلى سَواءٌ فى اختلافهما قد صيَّرانى جميعاً فى الهوى مثلا[1]
يجود بالطول ليلى كلّما بخِلَتْ بالطّول ليلَى وإن جادتْ به بَخِلاَ

وقال ابن أبى دباكل :

يطولُ اليومُ لا ألقاكِ فيه وحولٌ نلتقى فيه قَصِيرُ

وتبعه بشار ، فقال وأحسن :

---

(١) الخبر والشعر فى شرح المختار من شعر بشار ٢١ ، والشعر أيضاً فى زهر الآداب ٧٤٩

لا أظـــلم الليـــلَ ولا أدّعِي أنّ نجوم الليل ليست تغورْ[1]
ليـلى كما شاءت فإن لم تَزُرْ طال وإن زارتْ فليلى قصيرْ
تصرّف الليـل على حكمها فهو على ماسرّ فَتْهُ يَدُورْ

وزاد ابن العريف الزاهد على هذا المعنى ، فقال وأحسن :

لستُ أدرى أطال ليلىَ أم لا كيف يدرى بذاك مَنْ يتقلّى
لو تفرغت لاستطالة ليـلى ولرعْيِ النّجوم كنتُ مُخِـلاّ
إن للعـاشقين عن قصر الليـ ـل وعن طوله من الهمّ شُغْلاَ

قوله : ردن ، أى كم . جذلان : مسرور . حاذياً حذوه ، أى متبعا له جاعلا قدمى موضع قدمه ، فيتّسع فيه ، فيقال : حذوت حَذْوَه ، أى فعلت مثل فعله ، وأصله فى حَذْو النعل بالنعل ، وقد تقدم .

قافيا : متبعاً . فَصَل : زال وخرج . غابه : موضعه ، والغاب الشجر الملتفّ يتّخِذ الأسد فيه بيْتاً . مُلّيت : أطيل لك ومتّعت به ، من الملاوة ، وهو الحين . أوليت : أعطيت . أسفر : أضاء ، ومثله تلألأ ، إلاّ أن معناه أبلغ ، وأصل تلألأ : ابيضّ ، فأشبه بياض اللؤلؤ ، وصفاءه ، يريد أنّه انبسط وجهه وحسنت خلقته لما دعاه . والَى : كَرّر . خطر اختيالا : جرّ أثوابه إعجاباً بنفسه . مما قدره : ارتفعت منزلته . طيب الأصول : شرف الجدود . الفُضُول : الحمق والدخول فيما لا يعنى . والقُيُول : مَنْ دون الملك ، واحدهم قَيْل ، وأراد بهم الأجداد الأشراف ، وطابق بين الحماقة والفضول ، وبين طيب الأصول والقيول ، وسلخه من قول المتنبى :

---

(١) نسب القالى فى الأمالى ١ : ١٠٠ هذا الشعر لعلى بن بسام وكذلك فى زهر الآداب ٨٤٩ والنويرى ١ : ١٣٥ ، ونثار الأزهار ٢٣ ، وديوان المعانى ١ : ٣٤٩

ما بقومِي شرفتُ بل شَرُفوا بِي وبنفسي ارتفعتُ لا بجُدُودِي [1]

أشار إلى نسبه من ملوك كنده .

قال آخر :

أيها الفاخر جهلاً بالحسبْ إنّما الناس لأمّ ولأبْ
إنما الفخر بعقل راجحٍ وبأخلاق حسانٍ وأدبْ
ذاك مَنْ قد فاخر النّاسُ به فاق مَنْ فاخر منهمْ وغلَبْ

وقال الحكيم بن قنبر :

لاخير فيمن له أصلٌ بلا أدبٍ حتّى يكون على مانابه حَدِبَا
كم مِنْ حسيبٍ أخي عِيّ وطمطمةٍ فدْمٍ لدى القوم معروفا إذا انتسبَا
فى بيت مكرمةٍ آباؤه نُجُبٌ كانوا الرءوس فأضحى بعدهم ذَنَبَا

وقد تقدمت نظائره .

قوله: تَعْسا ، أى هلاكا . جدب: عاب ، وفى الحديث: «جدب ابن الأثير بالسمر بعد العِشاء» [2] أى عابه ، وقال ذو الرّمة .

إذا نازعتك القولَ مَيّةُ أو بَدَا لك الوجه منها أو تَضاءَلَ الدِّرْعَ سالِبُهْ [3]
فمالك من خدرٍ أسيلٍ ومنطقٍ رَخيمٍ ومِنْ خلق تعلل جادبُهْ [4]

قوله : دأب ، أى دام عليه . أودعنى : ضمننى ، وجعله فى قلبى . اللّهب : جَمْر النار .

ومما يتعلّق بما قدمناه من الشعر قول جحظة .

---

(١) ديوانه ١ : ٣٢٢ . (٢) النهاية لابن الأثير ، وقال : «أى ذمه وعابه»
(٣) ديوانه ٤٢
(٤) أسيل : سهل . رخيم : فيه لين . جادبه : عائبه .

أرى الأعياد تتركنى وتمضِى وأوشك أنّها تبقَى وأمضِى
علامة ذاك شيبٌ قد علانِى وضعفٍ عند إبرامى ونَقْضِى
وما كذبَ الّذى قد قال قبلى إذا مامرّ يوم مرّ بعضِى
أرى الأيام قد ختمتْ كتابى وأحسبها ستتبعه بفضّ

وعلى قوله: « إذا مامرّ يوم مرّ بعضى » قال بعضُ بنى حمدان:

المرء وقت له تناهٍ مقدّرٌ طوله وعَرْضُهْ
فكلّما مرّ منه يوم فإنّما مرّ منه بعضُهْ

وجحظة مطبوع الشعر، هو القائل فى أبى بكر بن دريد:

فقدتُ بابن دريدٍ كلّ قائدةٍ لمّا غدا ثالثَ الأحجار والتُّرَبِ [1]
وكنت أبكى لفقد الجود مجتهداً فصرت أبكى لفقد الجودِ والأدَبِ

أين هذا من قول الفرزدق يرثى سائسا، أنشده أبو محمد فى الدرة:

ليبك أبا الخنساء بغلٌ وبغلةٌ ومخلاة سوء قد أضِيع شعيرُها [2]
وتَجْرَفة مطروحة ومِحسّة ومقرعة صفراء بالٍ سهودها

أخذه من قول زيد الخيل يرثى عبداً له:

أمّا تعاورَتك الرّماح فلا أبكيك إلا الدّلو والمرسِ

وقد قدّمنا فصلا فى التشاؤم بالأدب فى قوله، فقد دهانى شؤمه وأنهى عليه هنا بقوله: تعساً لمن جَدَب الأدب، وطوبى لمن جدّ فيه وأدب.

---

(١) تاريخ بغداد ٢ : ١٩٧
(٢) درة الغواص ٩٧ .

[فصل فى مدح الأدب]

ونذكر هنا فصلا مقنعاً فى مَدحِه ، حسبما شرطنا من الجرى معه على أغراضه .

قال العلاء بن أيوب كان يقال : مَثَلُ الأديب ذى القريحة ، مثلُ دائرة تُدَار من خارجها ، فهى فى كلّ دارةٍ تدار تتّسع وتزداد عِظَماً ، ومثلُ الأديب غير ذى القريحة مثلُ دائرة تُدَار من داخلها ، فهى عن قليل تبلغ إلى باطنها .

أوصى بعض الحكماء بَنيه ، فقال لهم : الأدب أكرمُ الجواهر طبيعةً ، وأنفسُها قيمة ، يرفع الأحساب الوضيعة ، ويفيد الرغائب الجليلة ، ويُغْنِى من غيره عشيرة ، ويكثر الأنصارَ من غير رزيّه ، فالبَسوه حُلّة ، وتزيّنوا به حِلْيَة ، يؤنسكم فى الوحشة ، ويجمع القلوب المختلفة .

وقال شبيب بن شبّة : اطلبوا الأدب فإنه مادّة للعقل ، دليل على المروءة صاحب فى الغربة ، مؤنس فى الوحشة ، حلية فى المجلس .

وقال الخليل : مَنْ لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جمالا .

وأنشد الأصمعىّ رحمه الله :

إن يك للعقل مولود فلست أرَى ذا العقل مستوحشاً من حادث الأدَبِ
إنى رأيتهما كالماء مختلطاً بالتّرب تظهر عنه زهرة العُشُبِ

وقال عبد الملك لبنيه : عليكم بالأدب ، فإنكم إذا احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا .

ابن المقفع : إذا أكرمك الناس لمالٍ أو لدنيا ، فلا يعجبنّك ، فإنّ تلك كرامةٌ تزول بزوالهما ، ولكن ليعجبنّك إذا أكرموك لدين أو أدب .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كفاك من علم الدين أن تعرف مالا يسع جهله ، ومن علم الأدب أن تروِى الشاهد والمثل .

وقال بُزُرْجُمِهر : ماورّثت الآباء الأبناء خيراً من الأدب ، لأن به يكسبون المال ، وبالجهل يتْلِفونه .

وقال: حسنُ الخُلق خير قرين ، والأدب خير ميراث ، والتقوى خيرُ زاد.

وقالوا : ثلاث لاغربة معهن مجانبة الرِّيَب ، وحسن الأدب ، وكفّ الأذى.

وقال بُزُرْجُمِهر : من كثر أدبه كثر شرفه ، وإن كان قبلُ وضيعاً ، وبعد صيته ، وإن كان خاملا ، وسادَ وإنْ كان غريباً ، وكثرت الحاجة إليه وإن كان فقيراً

وقال عمر رضى الله عنه عنه : من أفضل ما أعطيَتُه العرب الأبيات ، يقدّمها الرجل بين يدى حاجتِه ، فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم .

وقالوا : الأدب أدَبَان . أدب الغريزة ، وهو الأصل وأدب الرّواية وهو الفرع ، ولا يتفرّع الشيء إلا عن أصله ، ولا ينمو الأصل إلاّ باتصال المادّة .

وقال حبيب فأحسن:

وما السَّيْفُ إلاّ زَبْرَةٌ إن تركتَه ... على الخِلْقة الأولى لَمَا كان يقطعُ[1]

وقال آخر :

ما وهبَ الله لامرئٍ هِبَـةً ... أفضلَ من عقله ومن أدَبِهْ
هُمَا كمال الفتى فإن فُقِدَا ... ففقدُه للحيـاة أحْسَنُ بِهْ

وقالوا : إذا كان الرجل طاهر الأدب ، طاهر المنبت ، تأدّب بأدبه ، وصلح بصلاح أهله وولده .

وقال الشاعر :

رأيت صلاح المرء يُصلِحُ أهلَهُ ... ويَعْديهمُ عند الفساد إذا فَسَدْ
يعظَّم فى الدنيا لأجل صلاحِهِ ... ويُحْفَظُ بعد الموت فى الأهل والولَدْ

---

(١) ديوانه ١٢٨ . الزبرة : القطعة من الحديد .

المقامة التاسعة والثلاثون وهي العمانية

حدَّثَ الحارثُ بن هَمّام ، قال : لهجْتُ مُذ اخضرَّ إزاري ، وَبَقَل عِذاري ، بأنْ أَجُوبَ البَرَاري ، على ظهورِ المَهاري ، أُنجدُ طوراً ، وأسْلُكُ تارَةً غوراً ؛ حتَّى فَلَيْتُ المعالِمَ والمجاهلَ ، وبَلَوْتُ المنازلَ وَالمَنَاهِل ، وأدْمَيْتُ السَّنابكَ والمناسِمَ ، وَأنضيتُ السَّوابقَ والرَّواسم فلمّا مَلِلتُ الإضْحارَ ، وقدْ سَنَحَ لِي أَرَبٌ بِصُحار ، مِلْتُ إلى اجْتِيازِ التَّيَّار ، واخْتِيارِ الفُلْكِ السَّيَّار ، فَنَقَلْتُ إِلَيْهِ أساودى ، واستصحبتُ زادِي ومَزَاودِي ، ثم ركبتُ إليه ركوبَ حاذرٍ ناذرٍ ، عاذلٍ لنفسه عاذِرٍ . فلمَّا شَرَعْنا فى القُلْعَة ، ورَفَعْنَا الشُّرُعَ للشِّرْعَة ، سَمِعْنَا مِنْ شاطِىءِ المَرْسَى ، حِينَ دَجا اللَّيْلُ وأَغْسَى ، هاتفًا يقول : يا أَهْلَ ذا الفُلْكِ القَوِيم ، المزجّى في البَحْرِ العَظيم ، بِتَقْدِيرِ العَزِيزِ العَلِيم ، هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنجيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أليمٍ ! فَقُلْنا : أَقبِسْنَا نارَكَ أَيُّها الدَّليلُ وأَرْشِدْنا كما يُرْشِدُ الخليلَ الخليلُ .

* * *

لهجتُ ، أى اشتدّ حبّى ، وأصله فى الفصيل إذا رضع أمه ، يقال : لَهِج بضَرْع أمّه ، إذا لزمَه ليرضعه . اخضرّ إزارى ، كنى به عن الشباب ، وكانت العرب إذا بلغ منها الغلام الحلُمَ ، وأشعر لبس الإزار ليَستُر عورته . بقل عذارى : اخضرّ شاربى ، وبدا الشعر فى وجهى أخضر مثل البقل .

[مما قيل فى العذار]

ونذكر هنا شيئا مما قيل فى العِذار ، قال أبو نُواس :

مِنْ أينَ للرشأ الأغنّ الأحْوَرِ ... فى الخدّ مثل عِذاره المتحيّر
قمر كأنّ بعارضَيْه كليْهما ... مِسْكاً تساقطُ فوق وردٍ أحمر

وقال أيضاً :

قَدْ كانَ بَدْرَ السّماء حسناً ... فالنّاس فى حبِّــه سواءُ
فــزاده ربُّهُ عِــذارا ... تمّ به الحسنُ والبهاءُ
لاتعجبوا ، رَبُّنــا قــديرٌ ... يزيدُ فى الخلق ما يشــاءُ

وقال ابن رشيق :

حَمَّتْ عــذارَاهُ بقبلهِ ... فاستلّ من عينيه سَيْفَيْنِ[1]
نذلك الحمّر من خــدّه ... دمٌ جرى بين الفريقيْنِ

وقال غيره :

قمرٌ كأنّ قَوَامَه ... من قدّ غصنٍ مسترَقُّ
وكأنّما قــلم الزمــرّ ... دفى عَوَارِضِهِ مشــقُّ

ولأبى الفضل الدارمىّ :

فإذا الّذى خَطّ الجمالُ بوجهه ... خَطّيْن هاجا لوعةً وبَلَابلا
ماصَحّ عندى أنّ لحظَكَ صارمٌ ... حتى رأيتُ بعارضيْك حمائلاَ

وقال أيضاً :

قلتُ للملْقى على الخدّين مِنْ ... وردٍ خُمَارا
أسبل الصُّدغُ على خدّيك من مسكٍ عِذارا

(١) نقله فى التنف ٨١

أم أعان الليلَ حتّى غلب الليلُ النّهارا
قال ميدان جرى الحـــنُ عليه فاستدارا
ركضتْ فيه هجونٌ فأثارته غبـــارا

قوله : أجوب ، أى أقطع . البرارى : الصّحارى . المهارِى : إبل كرام . أنجد : أطلع ، والنّجْد: المرتفع . والغور : ضدّه ، وقد أنجد وغار . أسلك : أدخل وأمشى . فلَيْت : قطعت . المعالم : المواضع المعلومة ، والمجاهل ، ضدّها . بلوْت : جرّبت . المناهل : مواضع المياه . السفابك : أطراف الحوافر . المناسم : جمع منسِم ، وهو مقدّم خُفّ البعير . أنضيت : أهزلت . السوابق : الخيل . الروامم : الإبل السريعة ، ورَسَمَت الناقة فهى رَاسمة ، إذا أثّرت فى الأرض من شدة وطئها ، قال أبو عبيد رحمه الله : إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلا ، فهو التّزيد ، فإذا ارتفع عن ذلك ، فهو الذّميل ، ثم الرّسيم . الإصحار : الدّخول للصحراء ، يريدَ مَلَلت من سفر البر . سنح : ظهر وعرض . أرَب : حاجة .

[ذكر صُحَار]

صُحَار : سوق عُمان ، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر ، مُرْساها فرسخ فى فرسخ ، وبلاد عُمان ثلاثون فرسخاً ، ماولى البحر سهول ورمال ، وما تباعد عنه حزون وجبال ، وهى مدن ، منها مدينة عمان وهى حصينة على الساحل ، ومن الجانب الآخر مياه تجرى إلى المدينة ، وفيها دكاكين التّجار مفروشة بالنُّحاس مكان الآجرّ ، وهى كثيرة النخل والبساتين وضروب الفواكه والحنطة والشعير والأرز وقصب السكر ، وفى الأمثال: مَنْ تعذّر عليه الرزق فعليه بعُمان ، وفى أحوازها مغاص اللؤلؤ . وعُمان من أحواز اليمن سُمّيت بعمان بن سبأ .

الفنجديهىّ : صحار اسم بلدة بكورة عُمان وهى قصبتها ممّا يلى الجبل .

• • •

التيّار : البحر . الفُلْك : السفينة . التّيّار : الكثير المشى ، والفُلْك يكون واحدا وجمعا ، ويذكّر ويؤنث .

أساودى : أمتاعى، لأنها تسوّد الأرض بظلها ، وهى جمع أسودة ،وأسودة جمع سَواد ، وسواد الأمير ثَقَلُه . أبو عبيد : كُلّ شخص سَواد ، من متاع أو إنسان أو غيره . الحاذِر : الخائف . ناذر : حالف ، وأراد به الذى ينذر بخبر إن سلمه الله تعالى من هَوْل البحر . عاذل وعاذر ، يريد أنه يعذِل نفسه عن التغرير بدخول البحر ومقاساة أهواله ، ويعْذِرُها لكثرة المقاجر . شَرَعنا فى القُلْعة : أخذنا فى قَلْع المراسى ، ورفع القلع وهى الشّرُع. قوله: أغشَى، أى أظلم هانِئاً ، أى صائحا . القويم : المستقيم . المُزْجَى : المسوق المسير ، قال الله تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ ﴾ أى يسيّرها ، وأزجاه : إذا ساقه . أقبسنا : أعطنا أرْشِدْنَا : دُلّنا ، قاله الأزهرى رحمه الله .

* * *

فقال : أَتَسْتَصْحِبُونَ ابْنَ سَبِيلٍ ، زَادُهُ فِى زَبِيلٍ ، وَظِلُّهُ غيرُ ثَقِيلٍ ، وَما يَبْغِى سِوَى مقيل . فأجمعنا عَلَى الْجُنُوحِ إِلَيهِ وَأَلاَّ نَبْخَلَ بالمعُونِ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا استَوى على الْفُلْكِ ، قالَ : أعُوذُ بمالِكِ الْمُلْكِ ، مِنْ مَسَالِكِ الْهُلْكِ . ثُمَّ قالَ : إنَّا رَوَينا فى الأخبار ، المنقولةِ عن الأحْبارِ ، أنَّ الله تَعالَى ما أخذَ على الْجُهَّالِ أَن يَتَعَلَّمُوا ، حَتى أخذَ على الْعُلَماء أنْ يُعَلِّمُوا ، وإن مَعِى لَعُوذَةً ، عن الأنبياء مأخُوذة ، وعِنْدِى لكُمْ نصيحَة ، بَرَاهينُها صَحِيحة ، وَما وَسِعَنِى الكِتمان ، وَلاَ مِنْ خِيمِى

الحِرْمان فتدبَّرُوا القَـــــوْلَ وتفهّموا ، واعْمَلُوا بِما تُعَلَّمُونَ وعَلِّمُوا .

ثمّ صاحَ صَيْحَةَ المباهِي ، وقال : أتَدْرُون ما هي ! هِيَ واللهِ حِرْزُ السَّفر ، عِنْدَ مَسِيرِهِمْ فِي الْبَحْرِ ، وَالْجُنَّةُ مِن الْغَمّ ، إذا جاشَ مَوْجُ الْيَمّ ، وبِهَا اسْتَعْصَمَ نوحٌ مِن الطُّوفان ، ونجا ومَنْ معه من الحيـــوان ؛ عَلَى ما صَدَعَتْ بِهِ آيُ القُرْآنِ . ثم قرأ بَعْدَ أساطيرَ تَلاَها ، وزخارفَ جَلاَها ، وقال : ارْكبوا فيها باسم اللهِ مَجْرَاهَا ومُرْسَاهَا . ثمّ تنفّسَ تَنَفُّسَ الْمُغْرَمِين ، أو عِبادِ اللهِ المكرَمِين .

وقالَ : أمّا أنا فقدْ قُمْتُ فيكُمْ مَقامَ المبلِّغين ، ونصحتُ لكُمْ نُصْحَ المبالِغين ، وسَلَكْتُ بِكُمْ مَحَجَّةَ الرَّاشِدِينَ ، فاشْهَدِ اللَّهُمَّ وأنتَ خيرُ الشاهدينَ .

* * *

ابن سبيل : هو المسافر الذى انقطع به ، وهو يريد الرجوعَ إلى بلده ، ولا يجد ما يتبلّغ به ، فله سهم فى الصدقات . زَبيل : قُفّة من جلود ، وألغز به بعضهم فقال :

وذى أذنين لايقتات قوتاً ... وجوفٍ للحوائج واحتمالِ
يكلّف شغل أهل البيت طُرًّا ... وتُحمل فيه أقوات العيال
تُسِرُّ إليه فى الأسواق سِرًّا ... فلا يُفشيه إلا فى الرِّحالِ

ظله غَيْر ثقيل ، أى هو خفيف الروح ، وقد تقدّم معنى استثقال ظلّه فى

الثانية والعشرين ، ويريد بظله شخصه ، كما يسمّى الشخص سواداً ، لأنه يسوّد الأرض بظله .

قال زياد بن عبد الله: قيل للشافعي رضي الله عنه:هل تمرض الرّوح ؟ قال : نعم من ظلّ الثقلاء ، قال: فمررت به يوما وهو بين تَقِيلين، فقلت كيف الروح؟ قال : في النّزْع .

وقال الهيثم بن عديّ : النّظر إلى الثقيل حُمّى الروح . مقيل: موضع جلوس في القائلة . الجنوح : الميل ، والماعون اسم للمطر . وأنشد أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه :

يجُجّ صبيره الماعون جَجًّا إذا نسم من الهيف اعتراه

والماعون الزكاة ، قال الرّاعي :

قومٌ على الإسلام لمّا يمنعوا ماعُونَهم ويضيّعوا التّهليلا

مسالك : طرق ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : بسم الله الملك، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، الآية ﴿ بسم الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لغفور رحيم ﴾ .

وقوله : إن الله تعالى ما أخذ على الجُهّال أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا ، قيل : معنى أخذ : أوْجَب ، وأراد قوله تعالى : ﴿ وإذ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الّذينَ أُوتوا الكتاب لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يَكْتُمُونَهُ ﴾

أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما آتى الله تعالى عالماً علما إلا أخذ عليه الميثاق ألاّ يكتمه » . قال الحسن بن عمر : أتيت الزّهريّ بعد أن ترك الحديث ، فألقيته على بابه ، فقلت : إمّا أن تحدّثني وإما

أن أحدثك ، قال : حدّثنى ، فقلت : حدّثنى الحكم بن عيينة ، عن يحيى بن الجزار ، قال : سمعتُ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : ما أخذ الله على الجهال أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا ، قال : فحدّثنى بأربعين حديثاً.

قوله: عُوذة ، أى ما يتعوّذ به الإنسان من الحِرْز وشبهه. براهينها : حُجَجها. خيمى : طبعى . الحرمان : منع الفوائد . المُباهى : المفاخِر الكثير الإعجاب . السَّفْر : المسافرون. الجُفّة ، الستر . جاش: تحرّك وهاج . اليمّ : البحر . استعصم : امتنع . الطوفان : الماء العامّ . صدَعَتْ : نطقت . آى : جمع آية ، وتقدمت . الأساطير ، هى الأباطيل . زخارف : أشياء مُزيّفة المغرمين : المعذبين ، والمُغْرَم المولع بالحب وغيره . الرّاشدين : الهادين للطريق .

* * *

قال الحارث بْنُ هَمَّام : فَأَعْجَبَنَا بَيَانُهُ البادِى الطُّلاَوة ، وعَجِبْتُ لَه أصواتُنَا بالتِّلاَوَةِ ، وَأَنِسَ قَلبِى مِنْ جَرْسِهِ ، مَعْرِفَةَ عَيْنِ شَمْسِه ، فقُلْتُ لَهُ : بالَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ اللُّجِّىّ ؛ أَلَسْتَ السّروجىّ ! فقال لى : بلى ، وَهَلْ يَخْفَى ابْنُ جَلاَ ! فأَحْمَدْتُ حينئذٍ السَّفَر ، وسَفَرْتُ عَنْ نَفْسِى إذْ سَفَر ، ولَمْ نَزَلْ نسيرُ والبَحْرُ رَهْوٌ ، والجـوُّ صَحْو ، والعيش صَفْو ، والزّمانُ لَهْو ، وأَنَا أَجِدُ للقيانِه ، وَجْدَ المُثْرِى بِعِقيانِهِ ، وأفرحُ بمناجاتِه ، فَرَحَ الْغَرِيق بِمَنْجاتِهِ ، إلَى أَنْ عَصَفَتِ الجَنُوب ، وعَسَفَتْ الْجُنُوب ، ونَسِىَ السَّفْرُ مَا كَانَ . وجاءَتْ الموجُ مِنْ كُلِّ مكان ؛ فمِلْنَا لِهَـذَا الْحَدَثِ السَّائر ، إلى إحْدَى الجزائر ؛ لنُرِيح ونَسْتَرِيح ؛ رَيْثَمَا تُوَاتِى الرِّيح .

فتمادَى اعتياصُ المَسير ؛ حَتى نفِدَ الزّادُ غير اليَسير ؛ فقال لى أبوزَيد : إنَّهُ لَنْ يُحْرَز جَنَى العُودِ بالقعود ، فهل لَكَ فى استثارَةِ السُّعُودِ بالصعودِ ! فقلْتُ لَهُ : إنِّى لَأتبَعُ لَكَ مِنْ ظِلّك ، وأطوَعُ مِنْ نَعْلِكَ .

* * *

الطُّلارة : الحسن والقبول . عُجْت : ارتفعت . آنس : أحسّ وأدرك . جرسه : صوته الخفىّ . عين شمسه : حقيقة نفسه ومعرفته اللجّى : العظيم اللجّة وهى معظم الماء .

[ذكر الطوفان]

ونذكر هنا بعض ماحدث من طُوفان نوح عليه السلام :

ذكر أهلُ الأخبار أن نوحاً عليه السلام أوّلُ نبىّ بُعِث ، وأنّ قومه كانوا أهلَ أوثان ، يعبدونها من دون الله ، فبُعِث لهم نوح فدعاهم إلى الله ، فكانوا يبطشون به ، ويستخفّون به ، وهو يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . فلمّا كثر استخفافُهم به ، قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك فإنهم مغرقون . فأقبل على قَطع الخشب وضَرْب الحديد وتهيئة العود بالقار وغيره ، فصنعه من خشب الساج ، وجعل طوله ثمانين ذراعا وعرضه خمسين ذراعا ، وطوله فى السماء ثلاثين ذراعا . وكان قومه فى خلال صنعة السفينة يأتونه أفواجاً ، يستخفّون عقله ، ويعدُّون فِعلَه من جنونه ، ويقولون له : عملت سفينة فى البرّ ، فيقول لهم : سوف تعلمون . فلما اطمأنوا فى الفلك فار التّنور من الهند ، وقال الشعبى رحمه الله

من السكوفة . وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وتفجّرت الأرض عيوناً ، فكان بين إرسال الماء وارتفاعه أربعون يوماً ، فلما بلغ الماء إليهم أووْا إلى الجبال ، فكانت الجبال تستقبلُهم بالحجارة ، وتغرِقُهم في الماء ، فماتوا غرق ، وارتفع الفُلك ، وجعل يجرى في موجٍ كالجبال ، ودار الأرضَ كلها في ستة أشهر وعشر ليال . ويقال : إنهم ركبوها لعشر ليال مَضيْنَ من رجب ، ونزلوا يوم عاشوراء من المحرّم ، فلذلك صام الناس يوم عاشوراء ، وأتت السفينة الحَرَم فدارت به أسبوعاً ، ولم يبق شيء من الخلائق ولا من الشجر إلاّ هلك ، إلا نوح ومَنْ معه ، وإلاّ عوج بن عنق - فيما يزعم أهل الكتاب - وانتهت آخرا إلى الجوديّ ، وهو جبل بالحصْنين من أرض الموْصل فنزلت عليه .

* * *

قوله: ابن جلا ، أى المشهور المعروف ، يقال للرجل إذا كان عالى الشرف واضح الأمر لايخفى مكانه : هو ابن جَلا ، أى هو الذى الأمور ينفسه ، وأوضحها ، قال سحيم بن وثيل :

أنا ابنُ جلاَ وطَلاّعُ الثنايا متَى أضعِ العمامة تعرِفُونِي

وكان صاحبَ غارات ، يطلع فيها من ثَنِيّة الجبل على قومه ؛ قال ثعلب : العمامة تُلبس في الحرب وتُوضع في السِّلم ؛ قال ابن الأعرابيّ : يقال للسيّد: ابن جلا، قال سيبويه رحمه الله : جَلاَ فعل ماض، كأنه يعنى الذى جلا ، أى أوضح وكشف .

قوله : أحدْت ، أى وجدته محمودا . سَفَرْت : كشفت وأزَلْت الهم . سَفَر : عرّفنا بنفسه ، ويقال : سفرتُ عن نفسى كما سَفَر ، أى عرّفته شخصى كما عرفنى هو شخصه ونفسَه . رهو : ساكن ، ويقال : فعل ذلك رَهْوًا ، أى ساكناً من غير تشدّد ، قال تعالى : ﴿واترك البَحْرَ رَهْواً﴾ . والرّهْو عند العرب الساكن ، يقال : جاءت الريح رَهْوًا ، أى ساكنة ، ويجوز أن يكون رَهوا من

نعت موسى عليه السلام، أى اتركه على هيئتك ، أو يكون من نعت البحر ، أى دَعْه يا موسى ساكناً واقفاً ماؤه واعبره . الجوّ : ناحية . السماء هنا : نقّ من السحاب المثرى: الغنى . والعِقْيان : الذهب ينبت نباتاً . عصفت الريح : اشتدّت. الجُنوب : الريح القبلية . عسفت : جاءت من كلّ جانب ، والعسفُ ركوب الأمر على جهالة . والخبوب ، بخاء معجمة ، جمع خِبّ ، وهى الرواية الصحيحة عن ابن جَهْور وغيره ، وهو هَيْج البحر واضطراب الماء، وهو الذى صحّحه الفنجديهىّ . كأن أبا عمرو القَسْطَلىّ شاهدَ هذه الحالة من هول البحر فوصفه بقوله[1] :

إليك شحنّا الفُلْك تهوى كأنّها ... وقد ذُعِرتْ من مغرب الشمس غربانُ
على لُجَجٍ خضرٍ إذا هبّت الصَّبا ... ترامَى بنا فيها ثَبيرٌ وثَهْلانُ
مواثلَ يرعى فى ذراها مواثلٌ[2] ... كما عُبِدَتْ فى الجاهلية أوثانُ
تقاتل مَوْجُ البحر واليمّ والدُّجى[3] ... تموجُ بنا فيها عيونٌ وآذانُ
ألا هلْ إلى الدنيا معادٌ وهل لنا ... سوى البحر قبرٌ أو سوى الماء أكفانُ

وقال آخر :

وسماء فى الثرى مخضلّةٍ ... لازَوَرْدِيّةٍ ما فيها صفا
غطّتِ[4] الأرضَ فلم تترك لنا ... من فضاء الأرض إلاّ طَرَفا
فكأنّ الأرض فيها عائمٌ ... غاب إلاّ هامةً أو كتِفا

---

(١) هو ابن دراج القسطلى ، واسمه : أحمد بن محمد بن العباس بن أحمد بن سليمان بن عبيد ابن دراج ، وفى كنيته خلاف ، ذكره الدكتور محمود على مكى فى حواشى ديوانه ص٢١ ، والأبيات فى ديوانه ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) الديوان :

* مَوَاثِل تَرعى فى ذُرَاهَا مَوَاثِلاً *

(٣) الديوان : « يقلن وموج البحر والهم والدجى » .

(٤) ط : « غصت » .

وكأنّ الموج فيها سكرٌ لبسوا لأما وغالوا حُجُفا
خافقٌ راجفةٌ أحشاؤه كحشا المهجورِ يهوى أسفا

قوله : نسى السَّفر ما كان، أى نسوا ما كان من طيب العيش بصفو الصحو. قولُه : الحدَث الثائر ، أى الأمر الطارئ . لنريح ، أى لنُريح أنفسَنا من تعب الهوْل والخوف ، وأراحَ الرجلُ : استراحَ وأراح غيرَه ، وأراحَ الريحَ وأروحَها واستَرْوَحها: وجدَها . رَيْث : قَدْر ، والرّيث اللُّبْث والبُطء . تُواتِى : توافق . اعتياص : التواء وتصعّب . نفِدَ : فَنِىَ . استِنْثارة : استخراج ، يقول : هل لك فى إدراك الحظّ بالخروج من السفينة إلى البريّة .

* * *

فَنَهَدْنا إلى الجزيرة ، على ضُعفٍ من المِيرَة ؛ لنركُضَ فى امتراء الميرَة ؛ وكِلانا لا يَملِك فَتيلا ، ولا يَهتدِى فِيها سبيلا ؛ فأقبلْنا نَجُوس خِلالَهَا ، ونتقيّأ ظِلالَهَا ، حتّى أفضَيْنا إلى قَصْرٍ مَشيدٍ ، له بابٌ مِنْ حَديد ، ودُونَه زُمْرَةٌ من عَبيد . فَنَاسَمْناهُمْ لنتَّخِذَهُمْ سُلَّماً إلى الارْتقاء ، وأرشِيَةً لِلاستِقاء ؛ فألْفَينا كُلاًّ منهمْ كَثيباً حسيراً ؛ حتّى خِلْناه كسيراً أو أسِيراً . فقلنا : أيَّتُها الغِلْمة ، ما هذه الغُمَّة ؟ فلم يُجيبوا النِّداء ، ولا فاهُوا بِبَيْضاء ولا سَوْداء ، فلمّا رأينا نارَهُمْ نارَ الحُباحِب ، وخُبْرَهُم كَسَراب السَّباسِب ، قُلْنا : شاهَتِ الوُجُوه ، وَقَبَّح اللّكعُ وَمَنْ يَرْجوه . فابْتدرَ خادمٌ قد علَتْه كَبْرَة ، وعَرَتْه عَبْرة ، وقال : يا قوم ، لا تُوسِعُونا سبًّا ، ولا تُوجِعُونا عَتْبا ؛ فإنا لَفى حُزْنٍ شامِلٍ ، وشُغْلٍ عنِ الحديثِ شاغل ، فقال له أبو زيد : نَفِّسْ خِناقَ

الْبَتّ ، وانفِثْ إن قَـدَرْتَ عَلَى النَّفْث ، فإنك ستجد مِنِّى مَرّافاً كافياً ، وَوَصّافاً شافياً .

* * *

نَهْدنا : تقدَّمْنا . المِريرة : قُوّ النفس . تركُض ، بفتح أوّلها ، وأصل الرّكْض ، تحريك القوائم ، ومنه ﴿ واركُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ ، ولهذا قيل للجنين إذا اضطرب فى بطن أمه : قد ارتكض ، ومن مُشْكل أبيات المعانى :

قد سبق الحَلْبَةَ وهو راكِضُ فكيف لا يسبقِ وهو رابضُ

المراد : أنّ أمه سبقت الجياد وهى حامل به ، فأضاف السَّبْقَ إليه لاتصاله بها ، وأراد براكض تحريكه قوائمه فى مقرّه ، والرَّكْض يستعمل فى الخيل وغيرها فيقال : ركضَ البعيرُ برجله ، والطائر بجناحه .

قوله : امتراء ، أى استخراج . المِيرة : جَلْب الرزق ، ومار الرجل على أهله مَيْراً : جلب لهم القوت .

نجُوس خلالها : تطوف فى طرقها ، قال الليث وابن سيده : الجوس والجَوَسان : التردّد فى خلال الدّور والبيُوت ، وقال الأصمعىّ والأزهرىّ وأبو عبيدة : جاسوا الموضع : وطئوه ، وفلان يجوس بنى فلان ، أى يطؤهم يطلب فيهم . وقال الطبرى والنقّاش والزّجاج والثعالبى : ﴿ فجاسُوا[٢] خِلالَ الديار ﴾ ، أى طافوا بين بيوتهم ، يقتلونهم ويطلبونهم ، ذاهبين وجائين . والخلل : الفرجة بين الشيئين ، والجمع خِلال . تَتَقَيّأ : نستظلّ ، وتقيّأ به : استظلّ به ، وتقيّأ : تقلّبَ

أفضينا : وصلنا . مَشِيد: مرتفع البناء، والشِّيد : الجصّ . زمرة : جماعة. ناسمناهم: قربنا منهم ، وناسمَه: سارّه وَشامَهُ ، وناسمت الرجلَ: قربت نسمتك من نَسَمته ، وتحدّثت معه سرًّا . أرشية : حبالا . الارتقاء : الصعود . المَسْك : الجلد ، يريد أنه شديد التوجّع ، وهذا كما تقول : لقيت فلانًا فى ثوب نمِر ، أو فى جلد أسد، أى لقيته بادىَ الشرّ ، قال الشاعر :

فطوراً ترانا فى مُسُوكِ جِيَادنا وطوراً ترانا فى مُسُوك الثَّعالِب

قال البكرىّ : الخيل توصف بالإقدام والثعالب بالرّوغان ، فيريد أنهم مُقْدِمُون على أعدائهم يوما ، ورائغون عنهم يوما . وقال الأستاذ : أى أُسِرُوا فكُتِفوا بجلود خيلهم المعقورة وفى جلود الثعالب ، كناية عن خُبْث الأسير . فاهوا : نطقوا . سوداء : كلمة رديئة نار الحباحب : ما تطاير من الشَّرَر فى الهواء بتصادم حجرين أو بضرب حافر فى حَجَر ، وتلك نارٌ لا منفعة فيها ، وقيل : الحُباحب رجل بخيل كان يُوقِد نارا ضعيفة لئلا يُقصَد ، فإن أحسّ بإنسان أطفأها لئلا يَقْتبِس أحدٌ من ناره ، وقيل : نار الحباحب نار سراجه ، ولبخله كان إذا جاء أحد يوقد منه أطفأها ، وقال عبد الصمد بن المعذّل فى أخيه :

ليت لى منك يا أخى جارةٌ من محاربِ
نارُها كلّ شَقْوةٍ مثلُ نارِ الحُباحِبِ

يريد جارةَ القطامىّ التى يقول فيها :

إلى حيزبونٍ تُوقِد النّارَ بعد ما تَلَفَّتِ الظَّلْماء من كلّ جانبِ

فلمّا تنازعْنا الحديثَ سألتُها عن الحيّ قالت: معشرٌ من محاربِ
ألا إنما نيران قومي إذا شَتَوْا لطارقِ ليل مثل نار الحُباحِب

وقيل : الحُباحبّ ذباب يطير بالليل ، له شعاع كالسراج . قوله : خُبرهم ، الخُبر بضم الخاء ، مصدر خبرت أخبُر إذا امتحنت ، والسباسب والبَسابس : الأرض المستوية ، واحدها سَبْسَب وبَسْبَس . شاهَتِ الوجوه: قُبحت الوجوه . وفى الحديث : « أخذ عليه الصلاة والسلام قبضةً من تُرابِ يَوْمِ بدر فحثاها فى وجوه المشركين ، وقال: شاهت الوجوه »، ويقال شاهَ وجهُ الرجل يشوهُ شوْهاً وشَوْهة، قبح، ووجهٌ مشوّه ، أى مقبّح، ورجل أشوه وامرأة شوهاء . والكَلَع الثيوم ، وقد لكع لكعا فهو ألكع، ولُكَع ولكيع ، إذا لؤم وحُمق وامرأة لَكاع ولَكيعة . قوله : علته كَبْرة ، أى أسنّ وكَبِر . وعرته عَبْرة ، أى غشيته دَمْعة. والخادم : الخصىّ ، موصوف بطول العمر وسُرعة العَبْرة ، قال الهيثم بن عدىّ : فى الخصىّ عشر خصال لاتجتمع فى غيره : التّهمة ، والنميمة ، والشّرَه ، وسُرعة الدمعة ، وطول العُمر ، وكِبَرَ القَدَم ، والتبرّى من الصلع ، والإجارة فى الصفر ، والقيادة فى الكِبَر ، والاسترخاء فى المقعدة وسعة الحجر . لاتوسعون سَبًّا ، أى لاتكثروا شتمنا عتبا لوما وموجدة ، وعتبت عليه أعتب عتبا وعتابا ، وأعتبه : أرضاه ، والمُعْتَبَى الرضا ، واستعتبته طلبت إليه أن يعتب ، وقال النابغة :

* وإن تك ذَا عُتْبى فمثلُك يُعْتِب *[1]

وقال حبيب :

سَرَتْ تحمل العُتْبى إلى العَتْب والرّضا إلى السّخط والعذر الجميل إلى الجِفْدِ[2]

---

(١) ديوانه ١٤ ، وصدره :

* فإن أكُ مَظْلُوماً فعبدٌ ظلمتَه *

(٢) ديوانه ٢١٥

الخِناق : الحبل يُخنَق به كالعقال للجمل يُعقَل به . نفّس : روّح وحلى عن المخنوق . والبَثّ : الحزن . انفُث : تكلّم ، وأصله ابصُق ، عَرّافا : كثير المعرفة ، والعَرّاف : العالم بالشيء ، وأصله الكاهن .

* * *

فقال لَهُ : اعْلَمْ أَنّ ربَّ هذا الْقَصْرِ هو قُطْبُ هَذِهِ الْبُقعة ، وشاهُ هذه الرّقعة ؛ إلاّ أَنّهُ لَمْ يخلُ مِن كَمَدٍ ، خُلوّه مِن ولَدٍ ؛ ولم يزلْ يستكْرِمُ المَغارِس ، ويتخيَّر من المفارِش النَّفائِس ؛ إلى أَنْ بُشِّرَ بِحَمْلٍ عَقِيلَة ، وآذَنَتْ رَقْلتُهُ بفَسِيلة ، فنُذِرَت لهُ النُّذور ، وأُحْصِيَتِ الأيّام والشُّهور . ولمّا حانَ النِّتاج ، وصِيغَ الطّوْق والتّاج . عَسُرَ مَخاضُ الْوَضْع ، حَتّى خِيفَ عَلَى الأَصْل والفَرْعِ ؛ فَمَا فِيناَ مَنْ يَعرفُ قراراً ، وَلاَ يَطْعَمُ النَّوْم إلاّ غِراراً . ثمّ أَجْهَشَ بالبُكاء وَأَعْوَلَ ، وردَّدَ الاسْترْجاعَ وطوّل . فقال لَهُ أبو زيد : اسْكُنْ يا هذا واسْتَبْشِر ، وَأَبْشِر بالْفَرج وبَشِّر ؛ فعندى عزيمةَ الطَّلْق ، الّتى انْتَشَرَ سَمْعُهاَ فى الْخَلْق . فتبادَرَتِ الْغِلْمةَ إلَى مَوْلاَهُمْ ، متباشرينَ بانْكِشافِ بَلْوَاهُمْ ، فلم يكُنْ إلاّ كَلاَ ولاَ ، حَتى بَرَزَ مَنْ هَلْمَمَ بنا إليه . فَلَمّا دَخَلْنا عَلَيْه ، وَمَثَلْنا بَيْنَ يَدَيْهِ ، قال أبو زيد : إِيهَنِكَ منالُكَ ، إن صَدَق مَقالُكَ ، ولم يَفِلْ فالُك .

* * *

قُطْب هذه البقعة ، أى رئيس هذه الأرض ، وقطب القوم : سيّدهم الذى يلجئون إليه .

وشاه هذه الرقعة : مَلِك هذه الجزيرة ، وأراد بالرقعة سُفْرة الشطرنج ، وشاهها : ملِك جيشها الذى يتصرّف فى بيوتها كيف شاء ، وقد أحسن مَنْ قال فيها :

أرضٌ مربّعة حمراء من أدَمِ ... ما بين خِلّين موصوفَين بالكرَمِ
تذاكَرَا الحرب فاختالاَ لها شَبَهاً ... من غير أن يَسْعيا فيها لسفك دمِ
هـذا يُغير على هـذا وذاك عَلَى ... هذا يُغير وعين الحرْب لم تَنم
فانظر إلى فِطَنٍ جاشتْ بمعرفةٍ ... فى عسكرين بلا طَبْلٍ ولا علَمِ

قوله : كَمَد ، أى حزن . المغارس والمفارش : النساء ، كأنّ النُّطَف تغرَسُ فيهنّ فيكثر الولد منها النّفائس : الكرائم . عَقِيلة : خَيِّرة ، والعقيلة درّة البَحْر ، وبه سُمِّيَت المرأة لكرمها وشرفها ، وكل كريمة من النساء والإبل والخيل فهى عَقِيلة . الرَّقْلة : النّخْلة الطويلة . الفَسيلة : نُخَيلة تكبُر فى أصل النخل ، أراد أنّ المرأة حملت بولد . نذرت النذور ، أى وَعِدَتْ بفعل خير إن سلم الحمل . أحصِيت : عددت ، وعلم مابقىَ منها . حان النِّتاج : قرب وقت الولادة صِيغَ : صُنِع . الطَّوْق : الثوب يلبسه المولود بغير جيب ، ولمّا سبَق إلى جذيمة ابن أخته عمرو ، وكان له طَوْقٌ يلبسه فى الصِّغر ، فقال له : البسه فلم يَسَعْه ، فقال : شبّ عمرو عن الطوق ، فذهبت مثلا ، قال ابن القَبْطُرْنة[1] فى الحكم بن حزم ، وكلّفه ذلك ابن سراج :

---

(١) ط : « القبطرية » تصحيف ، صوابه من نفح الطيب ، قال « وكان بنو القبطرنة بالأندلس أشهر من نار على علم ، وقد تصرفوا فى البراعة والقلم ، ولهم الوزارة المذكورة والفضائل المشكورة » .

رأى صاحبى عَمْراً فكلّف وصْفَه وحمّلنى من ذاك ماليس فى الطّوْقِ[1]
فقلت له : عمرو كعمرو فقال لى صَدَقْتَ ولكن شبّ هذا عن الطّوْقِ

عَسُر : صعب . مخاض : تحرّك الولد عند الولادة ، وقيل : وجع الولادة . القَرار : السكون . الغِرَار : النوم القليل ؛ وهو من غَرّ الطائرُ فرخَه يَغُرّه ، إذا أطعمه شيئاً بعد شىء ، وأخذه من قول الشاعر :

لا أذوقُ النّومَ إلاّ غِرَاراً مثل حَسْو الطّير ماء الثّمادِ[2]

ولا يَطْعَمُ النّوم ، أى لا يذوقه ، ويقال : طعمه وتطعّمه : ذاقه ، وفى المثل : تَطَعّم تُطعم ، أى ذُقْ تَشْتَهِ . أجهش : أى تَهَيّأ للبكاء ، والإجهاش : تغيّر الوجه عند إرادة البكاء . أعوَل : رفع صوته بالبكاء . الاسترجاع ، قد تقدّم . الطّلْق : وجع الولادة ، سُمّى طَلْقاً على التفاؤل للمرأة بالانطلاق بالولَد . سمّها : ذكرها الجميل . تبادرت : تَسَابَقَتْ .

وجمْع غلام غِلْمة وغلمان . البَلْوى : البلاء . كَلاَّ وَلاَّ ، أى كالفظ بها ، وهى كناية عن قلة اللّبث وسرعة الأمر ، ويُضرب بلا المثل ، فيقال : أخف من لا على اللسان ، وأقل من لا فى اللفظ ، وقال جرير :

يكون نزول القوم فيها كَلاَّ ولاَّ غِشاشاً ولا يُدْنُونَ رِجْلا إلى رجلِ[3]

غِشاشا ، أى قليلا . ويقال : لقيه على غِشاش ، أى على عجلة ، وقال الكُمَيْت :

---

(١) نفح الطيب ١ : ٦٣٦ ، قلائد العقيان ١٢٦ ، قال فى النفح : « وركب أبو الحسن بن القبطرنة إلى سوق الدواب بقرطبة ومعه أبو الحسن بن سراج فنظر إلى أبى الحكم بن حزم ؛ غلاماً كما مق تمائمه ؛ وهو يروق كأنه زهر فارق كمائمه ، فسأل أبا الحسين بن سراج أن يقول فأوقع عليه ؛ فثنى عنان القول إليه ، فقال » وذكر البيتين .

(٢) الكامل ١ : ١٥١ ــ بشرح المرصفى ، من أربعة أبيات نسبها إلى بعض الأعراب ، وفى ط « الثمار » تحريف .

(٣) ديوانه ٤٦١ ، وفيه « رحلا إلى رحل » بالحاء .

كلاَ وكذا تغميضُهم ثم هجتُمُ لدَى حِينَ أن كانوا إلى النوم أفقرَا[1]

يقول : كان نومُهم فى القلة والسرعة ، كقول القائل : لا وذا .

وقال الحسن[2] رحمه الله :

يا عاقد القَلْب مِنّى هلاّ تذكَّرْت خِلاّ
تركتَ مِنّى قليلاً مِنَ القليلِ أقلاّ
يكادُ لا يتجزّى أقلّ فى اللفظ مِن لاَ

وفى أبيات البديع :

وأرْوَع أهداه لِىَ اللّيلُ والفَلاَ وخمس تمسّ الأرض لكنْ كَلاَ ولاَ

جعل قوائم فرسه وهى الخمس تمسّ الأرض فى المشى كلا ولا على اللسان . قوله : برَز ، أى خرج . هلم : دعا ، وقال لنا هلمّ مَثَلنا : وَقَفْنا ، ومثل بين يديه : انتصب قائماً . منالك : عطاؤك . ولم يفل قالك : لم يخطىء رأيك ، وقال رأيه فيولةً : ضَعُفَ وأخطأ .

* * *

فاسْتَحضَر قلماً مَبْرِيًّا ، وزَبَداً بحْرِيًّا ، وَزَعْفَرَانًا قَدْ دِيفَ ، فى ماء وردٍ نظِيف ؛ فَمَا إنْ رجَع النَّفَس ، حتّى أَحْضِرَ ما الْتَمَس ، فسجَد أبوزيدٍ وعفّر ، وسَبّحَ وَاسْتَغفر ، وأَبْعَد الحاضِرِينَ ونفّر . ثمّ أخذ الْقَلَمَ واسْحَنْفَر ، وكتب على الزَّبَدِ بالمُزَعْفَرِ :

---

(١) اللسان (لا) ، وفيه « تغميضة » .

(٢) هو الحسن بن هانئ ، أبو نواس

أيُّها الجنين إنّى نصيـــــحٌ لك، والنُّصْحُ مِنْ شروطِ الدِّينِ
أنتَ مستعصِمٌ بِكِنٍّ كَنِينٍ وقرارٍ من الشُّكُونِ مَكِينِ
ما ترى فيهِ ما يروعكَ من إلـــفٍ مداجٍ ولا عَدُوٍّ مُبِينِ
فتى ما برزتَ مِنْه تَحَوَّلْـــتَ إلى منزلِ الأذَى والهُونِ
وَتَرَاءى لك الشَّقاءُ الّذى تَلْـــقَى فتبكى له بدمعٍ هَتُونِ
فاستدِمْ عيْشَك الرغيدَ وحاذِرْ أن تبيعَ المحقوقَ بالمظْنُونِ
واحترِسْ من مُخادعٍ لَك يَرْقِيـــكَ ليُلْقِيكَ فى العذاب المُهِينِ
وَلَعَمرِى لَقَدْ نصحتُ ولـكِنْ كمْ نصيحٍ مُشَبَّهٍ بظنينِ

* * *

والزَّبَد: حجر معروف، وهو شديد البياض دقيق الثقب جدًّا، يوجد عائمًا على وجه الماء يصرف فى الأكحال. وقالت الحكماء: من خصائص الزَّبد البحرىّ أنه إذَا عُلِّق على امرأة ماخض سَهُل عليها الولادة، ويكون فى بحر اليمن. ديف: خُلِط. التمس: طلب عفْر: جعل وجهه على الأرض، والعَفَر التراب. اسْحَنْفَر: جدّ وشمر للكتابة، ويقال: اسحنفر فى الأمر، إذا نحفز فيه. وقالت جارية من العرب:

يا أمّتا أبصرَنِى راكبٌ مُسْحَنْفِرٌ فى مَسْرَبٍ لاحِبِ[1]
عازلتُ أحثُو التّربَ فى وجهِهِ عمداً وأحمى حَوْزَةَ الغائبِ

(١) تنسب هذه الأبيات للبحترى، وانظر الديوان وحواشيه ص ٣٠١.

فأجابتها أمها[1]:

الحضن أولى لو تأبيته من حَثْيك التّرب على الراكب

مسرب : طريق لاحب بيّن . الغائب : زَوْجها . الحصن: العفّة . تأبّيته : تعمّدته وقصدته . المزعفر : المداد من الزّعفران . الجنين : الولد فى بطن أمه . النّصح : ضدّ الغش ؛ قال الخطّابى : النّصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظّ للمنصوح ، وقيل: أصلُها من نَصَح الرجل ثوبَه ، أى خاطه، والنّصّاح : الخيط، شبّهوا فعل النّاصح بالخيط الذى يلائم الخلَل والفتوق ، والتوبة النّصوح ، كأنها ترقّع ماخرقته المعصية . مستعصم : مستمسك ممتنع ، واستعصم[2] فى ذكر يوسف : امتنع وتأبّى . كِنّ : موضع يكنّ فيه . كَنِين : ساتر ، والسكين : المستور . والقرار : المكان المطمئنّ الذى يَستقرّ فيه الماء ، وأراد به الرّحِم . يُروعك : يفزعك . إلف : صاحب . مداج : يَظْهر الحُبّ ، ويضمر خلافَه ، وداجاه: ساتَره بالمداوة . بَرَزتَ : خرجت. الأذى: الضرر. الهُون : الهَوان . تَراءى : تظاهر . هَتُون : كثير السّيلان. وهتنت السّماء : صبّت . الرّغيد : الواسع . المحقوق : الّذى لا يُشكّ فيه . المظنُون : المشكوك فيه ؛ فهو يُشير على الصبىّ أن يُقيمَ فى بَطْن أمه ولا يخرج للدُّنيا . ظَنِين : متّهم .

• • •

ثمّ إنّه طَمَسَ المكتُوبَ عَلَى غَفْلَة ، وَتَفَل عَلَيْه مائة تَفْلَة ، وشدّ الزّبَدَ فى خِرْقَةِ حَرِيرٍ ، بعْد ما ضَمَّخَها بعَبِير ، وَأَمَر بتَعْليقها على فَخِذِ

---

(١) فى الديوان :

قالت لهـا ضاحكةً أمُّهـا أنتِ كمثل الأمَلِ الخائبِ

(٢) هو قوله تعالى فى سورة يوسف ٣٢ ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾

الماخِضِ ، وألاَّ تعلَقَ بِهَا يَدُ حائض ، فلم يَكُنْ إلاَّ كَذَوَاقِ شَارِب ، أو فواق حالِب ، حتَّى انْدَلَق شَخْصُ الولَد ، خِصِّيصَى الزَّبَد ، بقُدْرَةِ الواحدِ الصَّمَد .

فامتلأَ القَصْرُ حُبوراً ، وَاستُطِيرَ عَميدُهُ وعبيدُه سُرُوراً ، وأحاطتِ الجماعة بأبي زيدٍ تُثْنِي عليه، وتُقبِّلُ يَدَيْهِ ، وَتَتَبَرَّكُ بمَسِّ طِمْرَيْه ؛ حتَّى خُيِّلَ إلَىَّ أنَّهُ القَرَنِيُّ أُويْس ، أو الأَسَدِيُّ دُوَيْس .

* * *

طَمَس : غطّى ، وطمست الدار إذا غطّى التراب آثارها ومحاها . والتَّفَل: نفخ يخرجُ معه بُصاق متفرّق ، وأوله البَزْق ثم التَّفْل ، ثم النَّفْث ، ثم النفخ .

ضَمَّخَها : لطّخها . عَبِير: أخلاط من الطِّيب. الماخض: الحامل. ولا تَعْلَقُ بها يد حائض ، تمويه بأن مكتوبه من القرآن والحائض لا تمسّه . الذَّواق : مسّ الطعام أو الشراب بلسانك . الفُوَاق : ما بين الحلبتين من الوقت ، لأنّ الناقة تُحْلَب ثم تترك ساعة يرضّها فصيلُها لتدرّ ثم تحلب . اندَلَق : خرج بسرعة ، وكلّ شيء يدرّ خارجا بسرعة فقد اندلق ، واندلق السَّيْفُ من غِمْدِه إذا سقط من غير أن يسلّ . خِصِّيصَى الزَّبد ، أى خاصّيته التى ينفرد بها عن الأحجار ، واختصصتُ بالشيء : انفردتُ به ، وجاءنى خصِّيصَى القوم ، مقصورا ، أى خاصّتهم ، وخصَصْتُه بالشيء خصوصا وخُصوصيّة وخِصِّيصَى .

ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما وُلِدَ فى أهل بيت غلامٌ إلا أصبح فيهم عِزٌّ لم يكن » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وُلِدَ له مولود فأذَّن فى أذنه اليمنى وأقام فى اليسرى ، دفعت عنه أم الصبيان » .

حُبورا : سرورا . واستُطير : داخله السرور . عميدُه : سيّده طِمْرَيه : ثوبيه .

وذكر ابن قُتيبة بسندٍ متصل بابن عباس رضى الله عنهما ، أنه قال : مَرَّ عيسى بن مريم عليه السلام على بقرةٍ قد اعترض ولدُها فى بطنها ، فقالت : يا كلمةَ الله ، ادعُ الله أن يخلِّصَنى ، فقال : يا خالقَ النَّفْس من النَّفَسِ ، ويا مُخرج النَّفَس من النَّفْس ، ويا مخلِّص النَّفْس من النَّفْس خلِّصها ، فألقت ما فى بطنها ، فإذا عسرت على المرأة ولادتُها فيكتب على مكيال ، ثم تعطاه المرأة .

وذكر الفَنْجديهيّ بسندٍ متصل بأبى هريرة رضى الله عنه ، قال : بينما عيسى ويحيى عليهما السلام فى البرية إذْ رَأيا وحشيّةً ماخضا[1] ، فقال عيسى ليحيى : قل تلك الكلمات : جَنَّة ولدت مريم ، مَرْيَم وَلَدَتْ عيسى ، الأرض تدعوك يا ولد ، اخرج يا ولد ، اخرج .

قال حمّاد بن زيد : فما يكونُ فى الحىّ امرأةٌ ماخض ، فيقال هذا عندها إلاّ ولدتْ ، حتّى الشاة التى يتعسّر وضعها ، فيقال هـذا عندها ، فلا تبرح حتى تضع .

يونس بن عبيد الله : اللهمّ أنت عُدّتى عند شِدَّتى ، وأنت صاحبى عند كُرْبَتى ، وأنت ولىّ نعمتى ، مَنْ قالها عند النُّفَساء إذا عسر عليها ولدها ، أو على بهيمة ، أذن الله تعالى فى خروجه .

وذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إذا عسر على المرأة ولادتُها ، فليكتبْ لها بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سُبْحانَ الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لم يلبثُوا إلاّ عشيّةً أوضحاها ﴾[2] ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ . لم يَلْبَثُوا إلا ساعةً من نهارٍ بلاغ فهلْ يُهْلَكُ إلا القوم الفاسقون ﴾[3] .

(١) الماخض : الحامل .
(٢) سورة النازعات ٤٦ .
(٣) سورة الأحقاف ٣٥ .

قال سفيان : يكتب هذا فى جام وتُسقاه .

وذكر عن أبى الزّناد قال: كنت مِثْنَاثاً ، فقيل لى استغفرالله إذا جامعت، ففعلت فوضع لى بضعة عشر ذكرا .

قوله خُتِيل : أى شبّه .

[ذكر أويس القرنى]

وأويس القَرَنىّ بَشَّر به النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو من التّابعين .

وفى صحيح مسلم: إنّ أهل الكوفة وَفَدُوا على عمر رضى الله عنه ، وفيهم رجل مِمّنْ كان يسخر بأويس، فقال عمر رضى الله عنه :هل هاهنا أحد من قَرَن ؟ فجاء ذلك الرجل ، فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له أويس ، لايدع باليمن غير أمّ له ، وقد كان فيه بياض ، فدعا الله ، فأذهبه الله عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم ، فمن لَقِيَه منكم فليستغفرْ لكم .

وفيه عن أُسَيد بن جابر ، قال : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أتاه أمداد أهل اليمن سأل: أفيكم أويس بن عامرٍ ؟ حتى أتى على أويس، فقال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال: من مُرَادٍ ، ثم من قرن ؟ قال : نعم ، قال : فكان بك بَرَصٌ فبرئتَ منه إلاّ موضع الدرهم ؟ قال : نعم ، قال : ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « يأتى عليكم أوَيْس بن عامر ، مع أمداد أهل اليمن ، من مُرَاد ثم من قرن ، وكان به بياض فبرِىءَ منه إلا موضع الدرهم ، له والدة هو بها بارٌّ لو أقسم على الله لأبرّه ، فإن استطعت أن يَسْتَغْفِر لك فافعل» ، فاستغفرْ لى فاستغفر له ، فقال عمر رضى الله عنه أين تريدُ ؟ فقال : الكوفة ، قال ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون فى غبر النّاس أحبُّ إلىّ . قال: فلما كانَ فى العام القابل حَجّ رجل من أشرافهم،

فوافى عمرَ رضى الله عنه ، فسأله عن أُوَيس ، فقال : تركتُه رثَّ البيت ، قليل المتاع . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : يأتى عليكم أويس ابن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُراد ثم من قَرَن ، وكان به بَرَص فبرئ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بارّ،لو أقسم على الله لأبرّه ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل. فأتى أويسا فقال : استغفر لى ، فقال : أنت أحدث عهدا بسفر صالح ؟ قال : نعم ،قال له : لقيت عمر ؟ قال : نعم ، فاستغفر له ، ففطن له الناس ، فانطلق على وجهه ، قال أُسَيْد : وكسوته بُرْدة ، فكان كلما رآه إنسان قال : من أين لأُوَيسٍ هذه البُرْدة !

وفى كتاب الإحياء : أنّه لما ولىَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : أيّها الناس ، مَنْ كان من أهل العراق فليقمْ ، فقاموا ، فقال : اجلسوا إلاّ مَنْ كان من قَرَن ؟ فجلسوا إلا رجلا واحداً ، فقال له عمر رضى الله عنه قَرَنىٌّ أنت ؟ قال: نعم ، قال : أتعرف أويسا ؟ قال : نعم ، وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين ؟ والله ما فينا أحمق ولا أجنّ ولا أحوج منه ! فبكى عمر رضى الله ، ثم قال : ماقلت ، إلاّ أنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر » . ولمّا كان عند أهله كالمجنون بَنَوْا له بيتاً على باب دارهم ، فكان تأتى عليهم السَّنة لا يرَوْن وجهه ، كان يخرج أوّل الأذان ويأتى بعد العشاء الآخرة ، وكان طعامُه أن يلقط النَّوى ، فكلّما أصاب حَشَفَةً خبأها لإفطاره، فإن أصاب مايقوته باع النَّوى،وتصدّق به ،وإلاّ اشترى منه مايقوته. وكان لباسه قطع الأكسية من المزابل ، يلفقُ بعضَها إلى بعض ، ثمّ يلبسها ، وإذَا مرّ بالصبيان رجموه ، يظنُّون أنه مجنون ، ولهذا أعظَّم النبى صلى الله عليه وسلم حرمته ، فقال : « إنى لأجد نفس الرحمة من قبل اليمن » إشارة إليه .

[ذكر الأمير دبيس]

وأما دُبَيس فهو الأمير سيف الدولة بن مَزْيد الأسديّ ، وقيل: دبيس بن صدقة بن مزيد ، وذكر أبو الحسن عليّ بن الحسين بن أبي طالب الباخرزيّ الأمير أبا الأعز دبيس بن عليّ فقال: خدمتُه ببغداد ، وعبرتُ إليه أختَ يده الجواد ـ يعني دجلة ـ وهي زاخرة الأمداد ، فإذا باحة للطارقين مباحة ، وراحة في كَفِّها للعفاة رَاحَة ، وقباب التفّت بها غابُ القنا ، واشتركَ مع أسودها الناس في فرائس الغنى .

قال الفنجديهيّ : سمعت بعضَ أهل الفضل يقول ببغداد : لما سمع الأمير دبيس ، أن الرئيس أبا محمد الحريري ذكرهُ في مقاماته ، وأورد فيها بعض صفاته ، أنفذ إليه من الخلع السنيّة ، والجوائز الهنيّة ومزية العطية ، ماعجز عنه الوصف ، وكلّ عنه الطرف ، واقتضاه علوّ همته ، وسموّ قدرته . ثم عصى دبيس على الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفَضْل بن المستظهر بالله ، وسعى في إراقة دمه ، وجَمع العساكر وحشد ، وقصد بغداد في عسكر عظيم ، وعاث في أطرافها ، وأفسد في أكنافها ، فخرج المسترشد بالله أمير المؤمنين من دار الخلافة ، واجتمعت إليه الأجناد ، وظهر إليه وحمل عليه ، فهُزم دبيس وعسكره ، وانتهى إلى الحِلّة المزيدية ، فانتهبها ، وذلك في المحرّم في سنة سبع عشرة وخمسمائة . وانهزم دبيس في خواصّ من أصحابه وغلمانه خوفاً من الخليفة ، ومرّ نحو الشام ثم قتل الأمير دبيس بن صدقة بن مزيد في سنة ثلاثين أو في سنة تسع وعشرين ، قتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه لأمور أنكرها وأسباب امتعض لها ، نُسبت إليه[1] .

ثمّ انثالَ عليهِ من جوائز المجازاة ، ووصائِلِ الصِّلاتِ ، ما قَيّض له

الغِنَى، وبيَّضَ وجْهَ المُنَى، ولم يَزَلْ يَنْتابُه الدَّخْل، مذ نُتِج السَّخْل؛ إلى أنْ أعْطِيَ البَحْرُ الأمان، وتَسَنَّى الإتمامُ إلى عُمان؛ فاكتفَى أبو زيدٍ بالنِّحلَة، وتأهَّبَ للرِّحلة؛ فلم يَسْمَحِ الوالِي بحركتِه، بعد تجْرِبة بَرَكَتِه، بل أوْعَزَ بضمِّه إلى خُزانَتِه. وأن تُطْلَقَ يَدُه فى خِزانَتِه.

قال الحارث بن همّام: فلمّا رأيتُه قَدْ مال، إلى حَيْث يُكْتَسَبُ المال، أنحَيْتُ عليه بالتّعنيف، وهَجَّنتُ له مفارقةَ المألَفِ والأليف، فقال: إليك عنّى، واسمَعْ مِنّى.

* * *

قوله: انثال، أى انصبّ. جوائز: عطايا. وصائل: متّصلات غير منقطعة، والوصائل: ثياب حمر مخطّطة تُصْنَع باليمن يلبسها النساء، قال الشاعر:

* لها حُبُكٌ كأنّها من وصائلِ *

فيَوْض: قُدِّر وساق يتقابه، أى يقصده ويأتيه مَرّةً بعد أخرى.

الدخْل: الغط يا التى تدخل إليه من قبل الأمير وغيره، ورجل كثير الدخل: إذا كثر دخول الرزق عليه. والسَّخْل: الولد.

ومما يستحسن فى التهنئة بمولود قول الخُلوانىّ:

نجْم تولّد من شمسٍ ومن قمرٍ ... وأين مَنْ أبواه الشّمْس والقَمَرُ

شمس المفافِ ومجد البدْرِ بينهما ... تولّد النور إلاّ أنه بشرُ

أخذه من قول ابن الرومى :

شمس وبَدْرٌ ولَدَا كَوْكَبًا أقسمت بالله لقد أنجبا

وجاء الرّمادى يُهَنِّئُ الفقيه ابن العطار بمولود ، فقال :

يَهْنِيكَ مازادتِ الأيام فى عددِكْ من فلذةٍ بَرَزتْ بالسَّعْدمن كَبِدِكْ[1]
كأنما الدهرُ دهرٌ كان مكتئباً من انفرادك حتى زادَ فى عَدَدِكْ
لا خلّفتك الليالى تحت ظِلّ ردًى حتى ترى ولداً قد شبَّ من وَلَدِكْ

قوله : تَسَنّى الإتمام ، أى تيسّر إتمام المشى والإقلاع . اكتفى : اقتنع . النِّحلة : العطية . أوْعَزَ وَوَعز ، تقدم ، يعقوب : لا يقال . وَعَز بالتخفيف . حُزَانته : جماعته ، وعياله الذين يتحزّنون لفكيته ولفقده ، ويحزن هو لِضَيْعَتِهِمْ . أنحيت : ملت عليه وقصدته به . التعنيف : اللوم والأخذ باللسان . المألف : البلدة وموضع الألفة . الأليف : الصّاحب . إليك عنى : تباعد هنى .

* * *

لا تصبُونَّ إلى وَطَنْ فِيهِ تُضَامُ وتُمْتَهَنْ
وارْحَلْ عن الدارِ الَّتِى تُعْلِى الوِهادَ على القُنَنْ
واهْرَبْ إلى كنَّ يَقِى ولو أنَّهُ حِضْنَا حَضَنْ
وار بأْ بنفسك أن تقيـــمَ بحيث يَغْشاك الدّرَنْ
وجُبِ البلادِ فأيُّها أرْضاكَ فاخْتَرْهُ وَطنْ
وَدعِ التــذكُّرَ للمعا
هِدِ والحَنِينَ إلى السَّكَنْ

(١) نفح الطيب ٣ : ٤١٤

واعلمْ بأنّ الحُـرّ فى أوطانِهِ يَلْقَى النَبَنْ
كالدرِّ فى الأصداف يُسْـتَزْرَى ويُبْخَسُ فى الثَّمَنْ

* * *

تَصْبُونَّ : تَمِيلَنّ ، وصبوت إليه مِلْتُ بالمحبّة . تُضَام : تذل . تمتهن : تحتقر ، وقال محمد بن بشر فى هذا المعنى :

إنّما أزْرَى بقـدرى أننى لستُ من بَابةِ أهلِ البَلَدِ
ليس منهم غير ذى مقلِيَةٍ قدوى الألباب أو ذِى حَسَدِ
يتحامونْ لقائى مثلَ ما يتحامونْ لقاء الأسَـدِ
مطلعى أثقل فى أعينهـمْ وعلى أنفسِهمْ من أحُـدِ
لو رأونى وسط بحرٍ لم يكنْ أحـدٌ يأخـذ منهم بيدِى

وقال البحترىّ :

أشرقٌ أم أغرّب ياسعيـدُ وأنقص من زَماعِى أم أزيدُ[1]
عَدَتْنِى عَنْ نصيبينَ الْعَوَادِى فبختى أبلهٌ فيها بَليـدُ
وأخلفنى الزمان على رجالٍ وجوههمُ وأيديهمْ حديدُ
لهم حُلَلٌ حسُنّ فهنّ بيضٌ وأخلاق سَمُجْنَ فهنّ سود

ومن نبا به بلده القاضى أبو محمد عبد الوهاب ، خرج من بَغْداد يريد مصر ، فشيّعه أكابرها ، ومن أصحاب محابرها جملة موفورة ، فقال لهم : والله لو وجدت بين أظهركم رغيفين كلّ يوم ، ماعدلتُ ببلدكم بلوغ أمنية ، والخبز عندهم يومئذ ثلثمائة رطل بدينار ، وقال :

(١) ديوانه ٥٨٠ .

سلامٌ على بغدادَ مِنّى تحيّةٌ وحُقّ لها منى السّلامُ المضاعَفُ(١)
لعمرُك ما فارقتُها قالياً لها وإنى بشطّىْ جانِبَيْها لعارفُ
ولكنها ضاقت عَلَىّ برُحْبها ولم تكن الأقدار ممن يُساعِفُ
فكانت كخِلٍّ كنت أهوى دنوّهُ وتأبَى به أخلاقُه فيخالفُ

وقال أيضاً :

بغدادُ دار لأهلِ المال واسعةٌ وللفقاليس دار الضّنْكِ والضّيقِ(٢)
قد صرتُ أمشى مهاناً فى أزقّتِها كأننى مصحفٌ فى كَفّ زنديقِ

قوله: الوِهاد والقُنن: الانخفاض والارتفاع ، والقُنة : أعلى الجبل ، والوَهْدَةُ القعدة من الأرض تجرى إليها مياه جهاتها . حَضْناً : جانباً حصيناً مانعاً . أرباً ، أى ارتفع . يغشاك : يُغطّيك . الدَّرَن: الوسخ . المعاهِد : منازل سكناه . الحنين: الشوق . السّكَن : الأهل . الأصداف : محالّ الجوهر . يستزرى : يستحقر . يبخس : ينقص ، ومعنى هذه الأبيات يقول : أرحل من بلد يعلو فيه قدر أصاغر الناس قدرَ أكابرهم ، ولا تُقِمْ فيه على الهوان ، وارفع قدر نفسك من أن تقيم بموضع توسّخك فيه الإهانة ، فإنّ المرء حيثُ يضع نفسه ، وطُفْ بالبلاد ، واختر وطناً ما أرضاك ، فإنّ الحرّ يضيع فى وطنه ، ولا يعرف قدره .

الأصمعىّ : سمعتُ بعضَ العرب يقول : الفقر فى الوطن غربة ، والغنى فى الغربة وطن .

ونظر أبو الحسن إلى برذونٍ يُستَقَى عليه ، فقال : المرء حيث يضع نفسه ، لو هَمَلَج هذا لم يُبْلَ بما ترون .

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣٩ (٢) معجم البلدان ٢ : ٢٤١ .

الزبير رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن العباد عباد الله ، والبلاد بلاد الله ، فحيثما وجدتَ خيراً فأقم ، واحمد الله » .

وقال هلال بن العلاء الرّقّ :

لا تجزعنّ وإن نأتْ أرضٌ تُنالُ بها المحبّهْ
وطنُ الغريب يَسارُه والفقرُ فى الأوطان غربَهْ

وقال آخر :

أشدّ من فاقةِ الزّمانِ مقام حُرٍّ على الهوانِ
فاسترزق الله واستغنِهِ فإنه خيرُ مستعانِ
فإن نبا منزلٌ بحرٍّ فمن مكانٍ إلى مكانِ

وقال آخر :

شرّق وغرّب تجد من غادرٍ بدلاً فالأرض من تربةٍ والنّاسُ من رجُلِ

وقال آخر :

مَنْ ضاق عنك فأرض الله واسعةٌ عن وجه كلّ مضيق وجه منفرجِ
خيرُ المذاهب فى الحاجات أنجحُها وأضيق الأمر أدناه من الفرجِ

* * *

ثمّ قالَ : حَسْبُكَ ما استمعتَ ، وحبّـــذَا أنتَ لَو اتّبَعْتَ . فأوضحتُ له معاذيرى ، وقُلت له : كُنْ عَذِيرِى . فعَذَرَ واعتَذَر ، وزوّدَحتّى لم يَذَرْ ، ثمّ شيّعنِى تَشْيِيع الأقارِب ، إلى أنْ ركبتُ فى القارِب . فودّعْتُه وأنا أشكرُ الفِراقَ وَأذُمّه ، وَأوَدّ لو كان هلكَ الجنِين وأمّه

* * *

حسبك : يكفيك . أوضحت : بيّنت . معاذيرى : أعذارى ، والعَذِيرةُ : العذر ، ويقال : عذيرك من كذا، بمعنى هلمّ معذرتك منه ، وقيل: العذير بمعنى عاذر ، فَعِيل بمعنى فاعل ، أى هلمّ لمن يعذرك منه .

ثعلب : العذير ، مصدر بمعنى النَّكير ، ومعنى عذيرى منه ، أى مَنْ يعذِرنى منه !

وعذَر : قَبِل العذر . والله أعلم .

obeikandl.com

المقامة الأربعون وهي التبريزية

أخبر الحارثُ بنُ هَمّام، قالَ: أزمَعْتُ التَّبْريز مِنْ تَبْريز، حينَ نَبَتْ بالذَّليلِ والعَزيز، وَخَلَتْ من المُجير والمُجيز؛ فبينَما أنا في إعْدادِ الأُهْبَة، وارْتيادِ الصُّحبة، أَلْفيتُ بها أبا زيدٍ السَّروجيَّ مُلْتَفًّا بِكِساءٍ، ومحتفًّا بِنِسلاءٍ، فسألتُه عَنْ خَطْبه، وإلى أيْنَ يسْرُبُ مَعَ سِرْبه؛ فأَوْمَأَ إلى امرأةٍ مِنْهُنَّ باهِرَةِ السُّفور؛ ظاهِرَةِ النُّفور، وقال: تزوَّجتُ هَذِه لِتُؤْنِسَني في الْغُرْبة، وَتَرْحَضَ عَنِّي قَشَفَ الْعُزْبة، فَلَقِيتُ مِنْهَا عَرَقَ القِرْبة، تَمْطُلني بِحَقِّي، وتُكَلِّفُني فَوْقَ طَوْقي، فأنا مِنْها نِضْوُ وَجىً، وحِلْفُ شَجْوٍ وشَجىً. وها نَحْنُ قَدْ تَساعَيْنا إلى الحاكِم، لِيَضْرِبَ عَلَى يدِ الظَّالِم؛ فإنِ انْتَظَمَ بَيْنَنا الوِفاق، وإلاَّ فالطَّلاقُ والانْطِلاق.

قال: فمِلْتُ إلى أن أُخْبِرَ لِمَنِ الْغَلَب، وكَيْفَ يكون المُنْقَلَب! فَجَعَلَتْ شُغْلي دَبْرَ أُذُني، وصَحِبتُهما وإنْ كُنْتُ لا أُغْني.

* * *

أزمعتُ: عزمتُ، والزِّماع العَزْم، والتَّبْريز: الخروج إلى البراري، وهي الأرضُ الفضاء بلا شجر. تَبْريز: قرية من كُوَر أذربيجان من عمل خُراسان، بينها وبين المراغة عشرون فرسخا.

نَبَتْ: قلعت وارْتَفعت. المجير: الذي يُجيرُك من النّاس ويكفيك شرّهم، والمجيز: الواهب الجائزة وهي الصِّلة. ارتياد: طلب. مُحَلِّقًا. محلقا. خَطْبه:

أمْرِه . يسرُب : يذهب . ومِرْبه : جماعة نسائه . أومأ : أشار . باهرة : ظاهرة . والسُّفور : كَشف النِّقاب عن الوجه . تَرْحَض : تغسل ، ورَحَض الثوبَ يَرْحَضُه غسله . قشَف : تغيّر ، ورجل متقشّف : لا يتعهد الغسل والنظافة . والقَشف : سوء العيش . وَمَطَله حقَّه ، كناية عن جماعه لها ، والمَطْل في الأصل : المدّ ، يقال : مطل القَيْن الحديد يمُطُّه مَطْلاً إذا ، مدّه وطوّله ، فمعنى يَتمطّى : تطوّل عليّ . والطَّوْق : الطاقة . نِضْوَجَى : هزيل من الجفاء ، وأراد به شرّها وما يلقاه منها . حِلْف شَجْو : صاحب حزن . والشَّجا : الاختناق بالعظم وهو شيء صعب : ليضرب على يدِه : ليكفّه ويمنعه

* * *

فلمّا حضَرا القاضي ؛ وكان مِمَّنْ يَرَى فضلَ الإمساك ، ويَضِنُّ بنُفاثةِ السِّواك ، جثَا أبو زَيْدٍ بَيْنَ يَدَيْه ، وقال : أيَّدَ الله القاضي وَأحْسَن إليه ، إن مَطِيَّتي هذه أبيَّةُ القِيادِ ، كثيرةُ الشِّرَادِ ؛ مع أنّي أطوعُ لها مِنْ بَنانِها ، وأحْنَى عَلَيْها مِنْ جَنانِها . فقال لها القاضي : وَيْحَكِ ! أما علِمْتِ أنّ النُّشوزَ يُغضِبُ الرَّبَّ ، ويُوجِبُ الضَّرب ! فقالت : إنّهُ مِمَّنْ يَدُور خَلْفَ الدّارِ ، ويأخُذ الجارَ بالجار ، فقال له القاضي : تبًّا لك ! أتَبْذُرُ في السِّباخ ، وتَسْتَفْرِخُ حَيْثُ لا إفْراخ ! اعزُبْ عنّي ، لا نَعِمَ عَوْفُكَ ، ولا أمِنَ خَوْفُكَ ، فقال أبو زيد : إنّها وَمُرْسِلِ الرِّياحِ ، لأكْذَبُ من سَجاح !

فقالَتْ : بل هُوَ ومَنْ طَوَّقَ الحمامَة ، وَجَنَّحَ النَّعامَة ، لأكْذَبُ مِنْ أبي ثُمامة ، حِينَ مَخْرَقَ باليَمامَة !

* * *

لا أُغْنِي ، أى لا أنفع ، الإمساك : الشح ، يضِنّ : يبخل ، والنُّقاية : ماتطرحُه من فمك من السّواك بعد الانتفاع به ، وهذا وإن كان فى غاية البخل مُنتَزَعٌ من قول الشاعر :

لقد بخلتْ حتى لو أنّى سألتُها ... قَذَى العين من ضاحى التراب لَضَنَّتِ

وقال آخر فى معناه :

يبخل بالماء ولوْ أنه ... منغمسٌ فى وَسَطِ النِّيلِ
شحًّا فلا تطمع فى خَيْرِه ... ولو توسَّلْتَ بجبريلِ

وقال آخر :

ما كنتُ أحسِب أن الخبز فاكهةٌ ... حتى نزلتُ على أوْفَى بنِ منصورِ
يا حابس الرَّوْث فى أعقاب بَغْلَتِه ... خوفًا على الحبِّ من لَقْط العصافير

وهذا الباب مستوفًى فى الرابعة والأربعين :

ومما يُستطرف من لفظ السِّواك ، قول بعض الظرفاء :

قد هجرتُ السِّوَاكَ من أجل أنّى ... إن ذكرتُ السِّواكَ قلتُ سِواكا
وأحِبّ الأراك من أجْلِ أنّى ... إن ذكرتُ الأراك قلت أراكا

جَنَا : برك ، أيّد : قوّى مطيّتى : زَوْجَتى ، أبيّة : صَعْبة ممتنعة على قائدها . الشِّراد : النُّفور ، أحْنى : أعطف وأرْحَم . جَنانها : قلبها .

النُّشوز : عصيان الزوج ومخالفته ، والنُّشوز أصله الارتفاع . ووَبْخ ، معناها التوبيخ والتقبيح ، وتستعمل أيضاً للترحّم ، وقوله : وبوجب الضرب من قوله تعالى : ﴿ واللاّتى تَخافُونَ نُشُوزَهُنّ فعِظُوهُنّ واهجروهن فى المضاجع واضْرِبُوهُنّ ﴾[1] فنشوزهن : عِصْيانهُنّ . الأزهرىّ : النُّشوز : كراهة كلّ واحد من الزوجين صاحبه ، ونشزَتْ تنشُز فهى ناشز

(١) سورة النساء ٣٤ .

ابن عمر رضى الله عنهما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لا تُسْكِنُوا النّساء الغرَف فيشرفن ، ولا تعلّموهنّ الكتابة ، واستعينوا عليهنّ بالضرب » .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَلّقُوا السوط حيث يراه أهل البيت » .

ووصّى بعضَ أهله فقال : « أنفِقْ على أهلك من طَوْلِك ، ولا ترفع عصاك عنهم ، وأخِفْهم فى الله » ؛ فمعنى لا ترفع عصاك ، أى لا تترك تأديبهم فى الله تعالى . قوله : ويأخذ الجار بالجار ، العرب تسمى فَرْج المرأة بالجار ، ودُبرها جار الجار ، وأخذه الحريرى من قول أعرابى جاء لامرأته وقد اغتلم واشتدّت شهوته ، فأنعظ ، فلما قرب منها وهجم عليها قالت له : إنى حائض ، قال لها : فأين الهنة الأخرى ؟ ثم حمل عليها وهى تدافعه وتصيّه ، وهو ماض فى شغله ينشدها :

كلاّ وربّ البيت ذى الأستارِ لأهتِكَنّ حلق الحمّـــارِ
* قد يؤخذ الجارُ بذنب الجارِ *

قال الخليل : الحمّار : ما استدار من طَوْق الجفن ، وكذلك حمّار الظّفر والدبر ، ومما يبيّن هذا المعنى قول الشاعر[1] :

جارُك قَدْ يجنِي عليكَ وقَدْ تُعْدِى الصّحاحَ مبارِكُ الجُرَبِ[2]
ولربّ مأخوذٍ بذنب قَرينِهِ ونجا المقارُف صاحبُ الذّنبِ[3]

---

(١) البيتان فى العقد ٥ : ١٥ و ٢٣٢ ، ونسبهما لذؤيب بن عمرو ، يقولهما لأبيه ، وذكر قبلهما :
يا كعب إن أخاك منحقّ إن لم يكن بِكَ مرّةً كعبُ

(٢) فى العقد « جانيك من يجنى عليك » .

(٣) المقارف : المرتكب ؛ وموضع هذا البيت فى العقد ٥ : ٢٣٧
والحربُ قد تضطرُّ صاحبَها نحو المضيق ودونَهُ الرّحبُ

أتبذر : أتزرع ، والبَذْر الحبوب تزرع : السَّباخ : الأرض ذات الملح والرَّشْح ، وهي لا تنبت شيئاً لملوحتها وقلة جفافها ، وأراد: أتزرعُ نطفتَك في موضعٍ لا يقبل الولد ، تستَفْرِخ : تلتمس عمل الفرخ . اعزب : غب

طوّق الحمامة : جعل لها طَوْقاً ، والحمام عند العرب ذوات الأطواق نحو القواخِت والوَرَاشين والقمارىّ ، ودخلت الهاء على أنه واحد للجنس لا للتأنيث ،

الليث : تقول العرب : حمامة ذكر ، وحمامة أنثى ، والجميع الحمام .

الشافعي : كلّ ما عبَّ وهَدَر فهو حمام ، يدخل فيه القمارى والوراشين ؛ سواء كانت مطوّقة أو غير مطوّقة ، آلفة أو وحشية ، وهذا القول كأنّه الأكثر لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يأمر بأخذ الحمام التي تستفرخ في البيوت ، وليست ذوات أطواق ، وكان يسمّيها حماما ، وكان في منزله حمام أحمر ، اسمُه وَرْدان ، وقد قدّمنا فصلا في الحمام في الصدر

تَخَرَّق الرجل : أوهم أنه على حق وصواب ، وهو على خلافه

[قصة زواج مسيلمة بسجاح]

وأوردُ هنا في شرح تزويج مسيلمة بسجاح ما يبيّن سخف نبوّتهما ، وإن كان الحريري قد أشار إلى ذلك في هذه المقامة .

(١) كان مسيلمة بن حبيب الحنفيّ ، ثم أحد بني الدِّيل ، قد تسمّى بالرحمن في الجاهلية ، وكان من المعمّرين .

ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تَسَمّى بالرحمن قبل أن يولَد عبد الله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمّا بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت قريشٌ تقول: إنّما يعلّم محمدا رجلٌ يقال له الرحمن، فنزلت ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾(٢) وكانت بنو تميم قد تخاذلت في أمر الرِّدة بعد موت النبي صلى الله

(١) القصة في تاريخ الطبري ٣ : ٢٧٦ وما بعدها (٢) سورة الرعد ٣٠

عليه وسلم واختلفوا فى ذلك اختلافاً شديداً ، فبينما هم على ذلك إذ فاجأتهم سجاح بنت الحارث مقبلةً من الجزيرة ، تقود بنى ربيعة . فأتاهم أمرٌ كان أعظمَ تِمّامُه فيه من الاختلاف ، وكانت سَجَاح تميميّة وبنو أبيها فى تغلب ، وادّعت النبوّة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة ، فاجتمعتْ عليها بنو تميم ورؤساء تغلب ، فادّعت أنّها أنزل عليها . « يأيّها المؤمنون المتقون ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكنّ قريشاً قوم يبغون » . فاجتمعت تميم كلها تنصرُها ، فكان فيهم الأحنف وحارثة بن بدر ووجوه بنى تميم ، وكان مؤدّبها شبيبَ ابن ربعىّ الرياحىّ ، فقالت : « أعِدُّوا الركاب ، واستعدوا للنّهاب ، ثم اغدوا على الرّباب ، فليس من دونهم حجاب » . فصمدت إليهم ، وقتلت فيهم قتلاً كثيراً ، ثم قالت لأجنادها : اقصدوا اليمامة ، فقيل لها إن شوكة أهل اليمامة قويّة شديدة وقد غَلُظ أمرُ مسيلمة ، فقالت : « يامعاشر تميم ، اقصدوا اليمامة ، فاضربوا فيها كل هامة ، وأضرموا ناراً ملهامة ، حتى تتركوها سَوْداء كالحمامة » ، وإنّ الله تعالى لم يجعل هذا الأمر فى ربيعة — تعنى نبوّة مسيلمة — وإنما جعلها فى مُضَر ، واقصدوا هذا الجمع ، فإذا قصدتموه عكرّتم على قريش .

فسارت فى قومها ، وهم عدد لا يُحصى ، وبلغ مسيلمةَ الخبرُ ، فضاق به ذرعا ، وتحصّن فى حِجْر حصن اليمامة ، وأحاطت به جيوشها ، فأرسل فى وجوه قومه ، وقال : ماترون ؟ قالوا : نسلّم هذا الأمر لها ، فإن لم تفعل فهو البوار . فقال لهم بدهائه : سننظر . ثم بعث إليها ، وقال : إنّ الله قد أنزل عليك وحياً وعلىّ ، فهلمّى نجتمع فنتدارس ما أنزل الله ، فمن عرف الحق تَبِعه ، واجتمعنا ، فأكلنا العرَب أكلاً بقومى وقومك . فأنعمت له ، فأمر بضرب قبّة من أدَم ، فضُرِبت وأمر بالعود المندلىّ فبُخّرت به ، وقال : أكثروا من الطيب ، فإن المرأة إذا شمّتْ رائحته ذكرت الباه . وأتته إلى القبة ، وقالت : هات ماأنزل عليك ربك ،

فقال: « ألم تر كيف فعل ربك بالحُبْلَى ، أخرج منها نسمةً تَسْعَى، ومن بين صِفاق[1] وحَشَى ، من بين ذكر وأنثى ، وأمات وأحيا ، إلى ربكم يكون المنتهى » . قالت: وما ذاك ؛ قال : « ألم تر أن الله خلقنا أفراجاً ، وجعل لنا النساء أزواجاً ، فنولِجُ فيهنّ قعسا إيلاجاً ، ونخرجه منهنّ إذا شِئنا إخراجا » ، قالت : فبأىّ شىء أمر ربك ؟ قال :

ألا هُبِّي إلى الخِدعْ ... فقد هُيِّئ لك المضجعْ
فإن شئتِ ففى البيت ... وإن شئتِ ففى الخِدَعْ
وإن شئتِ سَلَقْناكِ[2] ... وإن شئتِ على أربَعْ
وإنْ شئتِ بثلثيه ... وإن شئتِ به أجمَعْ

قالت : بل به أجمع . قال : كذلك أوحى إلىّ . فواقعها فلمّا قام عنها قالت : إنّ مثلى لا يُنكَح هكذا ، فيكون وَصْمَةً على قومى ، ولكنّى مسلّمة لك النبوّة ، فاخطبنى إلى أوليائى يزوّجوك ، ثم أقود معك تميماً . فخرج وخرجت معه ، واجتمع الحيّان : حنيفة وتميم ، فقالت سَجاح : إنه قرأ علىّ ما أنزل عليه ، فوجَدْتُه حقا ، فتبعته ، ثم خطبها فزوّجوه منها .

وقال الأغلب العجلى فى ذلك :

قد لقيتْ سَجاحُ من بعد العمَى ... ملوّحاً فى العين مشدودَ القُوَى
كأنّ عِرْق أيْرِه إذا بدا ... حبل عجوز ضفرت سَبْعاً قُوَى
مازال عنها بالحديث والمُنَى ... والخُلُقِ السَّفْسافِ يَرْدَى فى الرَّدَى[3]
قال : ألا أدخِلُه ؟ قالت : بَلَى ... فشام فيها مثلَ محراب العَصَا

---

(١) الصفاق : الجلد الأسفل الذى تحت الجلد الذى عليه الشعر .
(٢) سلقه : ألقاه على قفاه .
(٣) السفساف : الردىء . ويردى مثل يرضى : هلك .

تقول لمّا غاب فيها واستوَى لمثل هذا كنت أحْسِبك الحُسَى

واليمامة بلدُ الزرقاء . وسيأتى ذكرها فى الخمسين ، فعلى نحو ماذكرنا من أمرسجاح ، ذكَرَها أكثرُ أهلُ الأخبار.

وقال الفنجديهىّ: سَجاح بنت الحارث بن سويد بن عِقْيان ،من بنى يربوع ، كُنْيتها أم صادر ، ادّعت النبوّة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة فى بنى تغلِب ، فاستجابوا لها ، وتبعها قوم من تميم ، وظهر أمرها حتى هابتْها العرب وصالحتها ، لتجوز فى بلادهم حيث شاءت . فسمعت بمسيلمة فى اليمامة ، فقالت لقومها «عليكم باليمامة ، دُفّوا إليها دفيف الحمامة[1]، فإنها غزوة صرامة ،لا تلحقكم بعدها ملامة ».

وبلغ مسيلمةَ خبرُها فهابها ، وخاف إن هو شُغِل بها عليه ثمامة بن أثال وشرحبيل على حُجْر اليمامة إذ هما من قِبَل أبى بكر رضى الله عنه ، فأرسل إليها يستأمنها على نفسه ، فأمّنته فجاءها فى أربعين من بنى حَنيفة ، فقال لها : نصف الأرض لى، والنصف الذى كان لقريش صار لك ، فقالت : لا يردّ النصف إلا من جَنف ، فاحمل النّصف . فصالحها على أن يحمل إليها نصف غلاّت اليمامة من تلك السنة ، وعلى أن يُسلِفَها ثمن غلات السنة المقبلة .ففعلت منه ، وقدِم لها مغلّ تلك السنة ، ورجعت إلى الجزيرة ، فلم تزل فى بنى تغلِب حتى نقَلَهُمْ معاوية عام انفراده بالملك إلى الكوفة ، فانتقلت معهم ، وحسن إسلامها .

[قصة تخاصم أبى الأسود مع امرأته]

وأظن أن الحريرىّ صوّر تخاصمَ زوجة أبى زيد معه على تخاصم أبى الأسود الدؤلىّ مع زوجته عند معاوية .

---

(١) ط : « الجماعة » تحريف ، والصواب ما أثبته من تاريخ الطبرى .

حدث أهل الأخبار قالوا : كان أبو الأسود كبيراً عند معاوية ، وكان معاوية يجالسه ويُدْنيه ، ويسأله فيجيبه فيما يعلم ، فبينما هو ذات يوم عند معاوية وقد قدم المدينة إذ دخلت عليه امرأة بَرْزَة[1] فقالت : أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به ! إنّ الله جعلك خليفة فى البلاد ، ورقيباً على العباد ، يُسْتَسْقى بك المطر ، ويُسْتَنْبت بك الشجر ، ويُؤمَّن بك الخائف ، ويُرْدَع بك الجانف[2] . أنت الخليفة المصطفى ، والأمير المرتضى ؛ فنسأل الله لك النعمة فى غير تغيير ، والبركة من غير تقتير ؛ فقد ألجأنى إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق بى عنه المخرج ، من أمر كرهتُ عاره ، لمّا أردتُ إظهاره ، فليكشف عنى أمير المؤمنين ، وليُنصفنى من الخصم ، ولكن ذلك على يديه ، فإنى أعوذ بك وبَحْقَوَيْك من العار الوبيل ، والأمر الجليل ؛ الذى يشتدّ على الحرائر ، ذوات البيوت الأخاير .

فقال لها معاوية : مَنْ هذا الذى أشركِ شعارَه ؟ قالت : أمر طلاقٍ جائر ، من بَعْلٍ غادر ، لا تأخذه من الله مخافة ، ولا يجد بأحد رأفة ، قال : ومَنْ بعلُكِ ؟ قالت : هو أبو الأسود . فالتفت معاوية إليه فقال : أحقٌّ ما تقول هذه المرأة ؟ فقال : إنّها تقول من الحق بعضاً ، وليس أحد يطيق عليها نقضا . أما ما ذكرتْ من أمر طلاقها فحق ، وسأخبرك عن ذلك بصدق ، أنا والله ما طلقتُها لريبة ظهرتْ ، ولا مِنْ هفوةٍ حضرت ؛ ولكن كرهت شمائلها ، فقطعت حبائلها . قال : فأىّ شمائلها كرهتِ ؟ قال : إنك تهيِّجها علىّ جواب عتيد ، ولسان شديد . قال : لابدّ من جوابها ، قال : هى يا أميرَ المؤمنين كثيرة الصَّخب ، دائمة الذَّرَب ، مُهينة للأهل ، ومُؤذِية للبَعْل ؛ إن ذكَر خيراً دفنته ، وإن ذكَر شرّا أذاعته ، تخبر بالباطل ، وتَطِير مع الهازل ، لا تنكِل عن عَتْب ، ولا يزال زوجها معها فى تعب ؛ فقالت : أما والله لولا حضور أمير المؤمنين ، ومَنْ حضر من المسلمين ،

---

(١) امرأة برزة ، أى بارزة المحاسن . أو المرأة الجليلة التى تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون .

(٢) الجانف : المائل .

ترددت عليك بوادرَ كلامك بنوادرَ تردَعُ كلَّ سهامك. فقال معاوية : عزمتُ عليك لما أجَبْتِه ! فقالت : هو والله ياأمير المؤمنين سئول جهول ، ملحاح ملول ، إن قال فشرّ قائل ، وإن سكت فقَدْمٌ غائل ، ليثٌ حين يأمن ، ثعلب حين يخاف ، شحيحٌ حين يُستضاف ، إن التُمِسَ الجود عنده انقمع ، لما يعلم من لؤم آبائه ، وقصر رشائه ، ضيفه جائع ، وجاره ضائع ، لايحمي ذِماراً ، ولا يُضْرم ناراً ، ولا يَرعى جِواراً ، أهون الناس عليه مَنْ أكرمه ، وأكرمهم عليه من أهانه .

فقال معاوية : مارأيت أعجبَ منها . انصرفي رواحاً[1] ، فلمّا كان العشيّ جاءت ، فلما رآها أبو الأسود قال : اللهمّ اكفني شرّها ، فقالت : كفاك الله شرّي ، وأرجو ألاّ يعيذك من شرّ نفسك . قال : ناوليني هذا الصبيّ حتى أحمله ، قالت : ماجعلك الله بأحقّ من يحمل ابني منّي . فوثب فانتزعه منها ، فقال معاوية : مهلا يا أبا الأسود . قال : ياأمير المؤمنين حملتُه قبل أن تحمِلَه ، ووضعته قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه في أدبه ، وانظر في أوَده ، أمنحه علمي ، وألهمه حلمي ؛ حتى يكمل عقله ، ويستحكم قِيلُه ، قالت : كلاّ أصلحك الله احمله خِفّاً ، وحلته ثِقلاً ، ووضَعه شهوة ، ووضعته كُرْهاً . حجري فناؤه ، وبطني وعاؤه ، وثديي سقاؤه ، أكلؤه إذا نام ، وأحفظه إذا قام .

فقال معاوية : مارأيت أعجبَ من هذه المرأة ! فقال أبو الأسود : ياأمير المؤمنين ، إنها تقول من الشعر أبياناً فتجيدها ، قال : فتكلّف أنت لها أبياناً لعلك أن تقهرها بالشعر ، فقال أبو الأسود :

مَرْحباً بالتي تجور عليها ثمّ أهلاً بالحاملِ المحمولِ
أغلقتْ بابها عليّ وقالت إنّ خير النِّسا ذواتُ البعولِ
شغلتْ قلبها عليّ فراغا هل سمعتم بفارغٍ مشغولِ !

(١) الرواح : العشي .

فقالت :

ليس مَنْ قالَ بالصواب وبالحـــقِّ كَمَنْ حاد عن مقار السبيلِ
كان حجرى فِناءهُ حين يُضْحى ثم ثدبى سقاؤه بالأصيـــلِ
لستُ أبغى بواحِدى يابن حربٍ بدلاً ما رأيته والجاهـــلِ

فقال معاوية رضى الله عنه :

ليس مَنْ قد غذاه طفلاً صغيراً وسقاه من ثديه بالجدُولِ
هى أولى به وأقربُ رحما من أبيه وفى قضاء الرّسولِ

ثم دفعه معاوية إليها .

* * *

فزفَرَ أبو زيدٍ زَفيرَ الشُّواظ ، واستَشاطَ استِشاطَةَ المغتاظ ، وقال لها : وَيْلَكِ يادَرفارِ يا فَجار ، يا غُصَّةَ البَعْل والجار ، أتَعمَدين فى الخَلْوةِ لِتَعْذيبى ، وتُبدِينَ فى الحفلَةِ تَكْذيبى !

وقد علمتِ أنّى حِينَ بَنَيْتُ عَلَيْكِ ، ورَنَوْتُ إليكِ ، ألْفَيتُكِ أقبَحَ مِنْ قِرْدَة ، وأيْبَسَ مِنْ قِدَّة ، وأخْشَن من لِيفَة ، وأنتَنَ مِنْ جِيفَة ، وأثقَلَ مِنْ هَيْضة ، وأقْذَرَ مِنْ حِيضَة ، وأبْرَزَ من قِشْرَة ، وأبرَدَ مِنْ قِرَّة ، وأحمَقَ من رِجْلة ، وأوْسَعَ من دِجْلة ؛ فَسَتَرْتُ عَوارَكِ ، ولم أُبْدِ عارَكِ . عَلَى أنّه لَوْ حَبَتْكِ شَيْرِينُ بجَمالِها ، وزُبَيْدَةُ بمالِها ، وبِلقيسُ بعَرْشِها ، وبُوران بفَرْشِها ، والزَّبّاء بمُلْكِها ،

ورَابِعة بِنُسْكِها ، وخندفُ بِفخرِها ، والخَنْساء بِشِعْرِها فى صَخرِها ، لأنِفتُ أَنْ تَكُونِى قعِيدَةَ رَحْلِى ، وَطَرُوقَةَ فَحْلِى .

* * *

قوله : زفر : أى تنفّس بغيظ ، والزَّفْر والزَّفير ردّ النفس فى جوفه حتى تنفخ عروقه . قال ابن عرفة : الزَّفير من الصدر والشَّهيق من الحلق . الشُّواظ : النار بغير دخان وزفيره : صوت انقاده . استشاط : اشتدّ غيظه وانتشر فى جسده .

يا فَجَار : ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قذف امرأته جُلِد يوم القيامة مائة جلدة بسياط من نار » .

والغُصّة : ما يختنق به . والبعْل : الزوج ، وأراد أنّها مؤذية يشقى بها زوجها وجارها ، كما يشقى صاحب الغُصّة . تعمِدين : تقصدين . الخَلْوة . الانفراد . والحفْلة : الاجتماع . بنيتُ عليك ، أى تزوّجتك ، وكانت العرب إذا تزوّج الرجل بَنَى على أهله قُبّة ، فيسمّى دخول الزوج بناء لذلك . رنوتُ : نظرتُ . ألفيتك : وجدْتُك . قِدّة : شراكة تُقَدّ من جلد غير مدبوغ . واللِّيفة ، واحدة ليف النخل ، وهى التى تكون بين الجرائد . هَيْضة : هى التخمة تئول إلى القىء والإسهال وقِشْرَة الشىء : ما علا عليه

ودِجْلة : نهر العراق ، وعليه بغداد والبصرة ، وواسط على جَرْفها ، ويجرى على وجه الأرض أربعمائة فرسخ . ولم يحمل الحريرىّ مبالغة السعة على هذه ؛ وإنما أراد دجلة العوراء ؛ وهى التى انتشر ماؤها فى البطاح ، حتى صارت سعتها هنالك ثلاثين فرسخا فى مثلها .

وقال ابن سُكّرة يهجو امرأة بالسِّمَنة :

لاتعذُلونى على ما كان من مَلَلٍ مَنْ ذا يراكِ ولا يصبُو إلى المَلَلِ[1]

(١) يتيمة الدهر ٣ : ١٣ .

إن كنت أبصرت أشفى منك فى بصرى فلا بلغتُ الذى أهواه مِنْ أمل
البحر أنت ، وأيْرى ليس من سَمَكٍ وليس بينى و بين البحر من عمل

قال هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبىّ : زوِّجْنى امرأة من كلْب ، فزوّجه ، فقال له ذات يوم يهزل معه: تزوّجنا إلى كلْب، فوجدنا فى نسائهم سعة، فقال الأبرش : ياأميرَ المؤمنين ، إن نساء كلبٍ خُلِقْنَ لرجال كلب .

وسمع رجل من كِنْدَة رجلا يقول : وجدنا فى نساء كندة سعة ، فقال : إنّ نساء كندة مكاحل فقَدَتْ مَرَاودها.

قيل: لامرأة تُطلَّق كثيراً : ماباللك تُطلّقين أبدا ؟ قالت: يريدون الضّيق: ضَيّق الله عليهم .

قوله: فسترت عَوارك ، ابن عباس، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مامِنْ مُسْلِمٍ اطّلع على عورة مسلم فأذاعها عليه شماتة وعدوانا إلا كان حقاً على الله أن يَفْضَحه عاجلا أو آجلا ، ومَنْ سترها عليه كان حقًّا على الله أن يدخله فى سَتره وحجابه يوم تُبْلَى السرائر وتُخْرَج الخبآت » . حَبَتْك : أى خَصّتك .

وشيرين هى بنت أبرويز بن هرمز ، وكانت آية فى الجمال ، وغاية فى الحسن والكمال ، فاقت نساء زمانها صيانةً وظَرْفاً، وبَهَرتْهنّ ملاحةً ولُطْفاً ، وخلّفت فى العراق آثاراً منها قصر شيرين ، ولها قصة منظومة مشهورة بالعجمية .

[زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد]

وزبيدة : هى بنت جعفر بن عبد الله بن أبى جعفر المنصور ، زوجُها هارون الرشيد ، وجدّها المنصور ، وعَمّها المهدى ، وابنها الأمين ؛ فكانت الخلافة قد اكتنفتها ، وليس فى بنى هاشم عباسيّة وَلَدَتْ خليفة إلا هى . ولدت فى حياة المنصور ، فسمّيت أمَة العزيز .

وكان المنصور يرقصها ويقول: بازُبَيْدة أنت زبيدة ! فغلب ذلك على اسمها، وكانت أموالها لا تحصى ، وأنفقت فى سبيل الله وفى الحج وفى بناء المساجد والقناطر ما لم ينفقه أحد قبلها ؛ فمن ذلك ماأنفقت فى حفرها للعين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ، فإنّها حفرتها ، ومهّدتْ الطريق لها فى كلّ رفع وخفض ، حتى أجرتها من مسافة اثنى عشر ميلا ، فأحصى ماأنفقت فيها فوجد ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ، دون ما كان فى وقت الشغل بها فى البذل ، وما عمّ أهلَ القافلة ، ولها فى طريق مكة من العراق آثار كثيرة فى مصانع حفرتها ، وبِرَكٍ أحدثتها ، تنزل وفود الحج عليها ، فلا تجد ماء إلا فيها ، فيشربون ويسقُون إبلَهم ، ويتزوّدون وهم فى الكثرة أعداد لا يحصيهم إلا خالقُهم ، والكل داعون لزبيدة إلى زماننا هذا.

وأما آثارها الملوكية ، فإنّها أوّلُ من اتّخذت الآلات من الذهب والفضة المكلّلة بالجوهر . وبلغ ثوب وشى اتّخذ لِلباسها خمسين ألف دينار .

وهى أول من اتّخذ القباب من الفضة والأبنوس ، وكلاليبها من الذهب ، ملبسة بالوشى والديباج ، وأنواع الحرير الملوّن ، وهى أوّل مَن اتخذ الخفاف المرَصّعة بالجوهر ، وشمام العنبر . ولما أفضى الأمر إلى ابنها الأمين رفع منازل الخدَم ككوثر وغيره ، فلمّا رأت حُبّه فيهم اتخذت له الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعمّمت رءوسهنّ ، وجعلت لهن الطّرَر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، فبانت قدودهنّ ، وبرزتْ خُصورهنّ . وبعثت بهنّ إليه ، فاستحسنهنّ وأبرزهنّ للناس ، فسمّوهنّ الغلاميات .

وأخبارها كثيرة ، وعندما قُتِل الأمين دخل عليها بعضُ خدمها ، فقال لها : ما يُجْلسك وقد قتِل أمير المؤمنين ؟ فقالت : ويلك وما أصنع ؟ قال : تخرجين وتأخذين بدمه ، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان ، فقالت : اخسأ لاأمّ لك ! ما للنساء وطلب الدماء ثمّ أمرت بثيابها فسُوّدَت ودعت بدواة ، فكتبت إلى المأمون:

أخيرَ إمام قام من خير عنصرٍ ... وأفضل راقٍ فوق أعواد مِنْبَرِ
ووارثَ علم الأوّلين وفخرَهم ... إلى الملك المأمون من أمّ جعفرِ
كتبتُ وعيني تَسْتَهِلُّ دموعها ... إليك ابن عمي من جُفوني ومحجري
أصبْتُ بأدنى الناس منك قرابةً ... ومن زال عن عيني فقلّ تصبُّري
أتى طاهرٌ، لا طهّر الله طاهراً،[1] ... فمـــا طاهر في فعله بمُطهَّرِ
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالي وحرّق أدوُري
يعزّ على هارون ما قد لقيتُه ... وما نالني من ناقص الخلق أعورِ
تَذَكّرْ أميرَ المؤمنين قرابتي ... فديتُك من ذي قربةٍ متذكّرِ
فإن كان ما أبدى لأمرٍ أمرته ... صبرتُ لأمرٍ من قَدِيرٍ مُقَدَّرِ
وإنْ كان ما قد كان منه تعدّياً ... على أمير المؤمنين ففيّرِ

فلمّا قرأها المأمون، بكى بكاء شديداً، ثم قال: إنّي لأقول كما قال عليّ أمير المؤمنين حين بلغه قتلُ عثمان رضي الله عنهما: والله ما أمرتُ، ولا رَضِيتُ، اللهمّ جَلِّلْ قلب طاهر حزنا.

قال إبراهيم الحربي: رأيتها في المنام، فقلت لها: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفر لي، فقلتُ: بما أنفقت في طريق مكة؟ فقالت: أما النفقات فرجعت أجُورَها إلى أربابها، وغفر لي بنيّتي.

[بوران بنت الحسن بن سهل وزوجها بالمأمون]

وأما بُوران فهي خديجة بنت الحسن بن الحسن بن سهل، تزوّجها المأمون على يد إسحاق الموصليّ، وفي هذا التزويج قِصّة الزّبال وهي طويلة ظريفة، نذكرها على جهة الاختصار، حدّث إسحاق الموصليّ قال:

---

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون ؛ قتل الأمين بتدبيره سنة ١٩٨ .

بينا أنا ذات يوم عند المأمون ، وقد خلا وجهُه ، وطابت نفسه ، فقال : يا إسحاق ، هذا يوم خلوة وطيب ، فقلت : طيَّب الله عيش أمير المؤمنين ، وأدام سرورَه وفرحَه . فأخذَ بيدى ، وأدخلنى فى مجالس غير التى كنّا فيها ، فأخذنا من لذّاتنا وشرابنا حتى غَرُبت الشمس ، فقال : قد عَزَمْتُ على دخلة إلى دار الحرم ، فلا تَرِمْ حتى آتيك ، فنَهض وبقيتُ إلى عامة الليل ، وكان المأمون أشغفَ خلق الله بالنساء ، وأشدّهم ميلاً إليهنّ ، فقلت فى نفسى : هو فى لذة وأنا فى غير شىء ، وتذكرتُ صبيّةً اشتريتُها ، وكنت عزمت على افتضاضها فنهضت إلى الباب ، فقال الحاجب : أين تريد ؟ فقلت : الانصراف ، قال فإن طلبَك ، قلت هو من لذة السرور فى شُغْلٍ عن طلبى ، فقيل لى : إن غلمانك استبطئوك وانصرفوا . فجئت بدابة ، فركبتُها ومشيت ، فأحسست بالبول ، فصدت إلى زقاق لأبول ، فبلْتُ وقت لأتمسح بالحيطان إذا أنا بشىء معلّق من تلك الدور ، فنهضت فإذا بزِبيل[1] كبير بأربع آذان ، ملبس ديباجا ، فقلت : إنّ لهذا سببا ، وبقيت أتروّى فى أمره ، ثم قلت : والله لأجلسنّ فيه كائنا ما كان ، فجلست ، فلمّا أحسّ بى الذين يرقبونه ، جذبوه إلى رأس الحائط ، فإذا أربع جوار يقُلْن لى : انزل بالرّحب والسعة ، فمشتْ بين يدىّ جارية بشمعة ، حتى نزلتُ إلى دار نظيفة إلى مجالس مفروشة ، لم أرَ مثلَها إلاّ فى دار ملك ، فجلست فما شعرت إلاّ بعد ساعة ، حتى أزيلت ستور كانت فى ناحية الدار ، وإذا وصائف يتماشين ، فى أيديهنّ الشمع ، وبعضهنّ بمجامر يحرق فيها العود ، وبينهنّ جارية تتهادى كأنّها البدر الطالع ، فنهضتُ قائماً ، فقالت : مرحبا بك من زائرا وجلست . ثم استطردتْ إلى سؤالى أبدع استطراد ، فقلت : انصرفت من عند بعض إخوانى ، وغَرّنى الوقت ، وحرّكنى البول ، فعدلتُ إلى هذا الزقاق ،

---

(١) الزبيل : القفة أو الوعاء .

فوجدت زبيلاً معلّقاً ، فحملنى النبيذ أنْ جلست فيه ، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبَنيه ، قالتْ : لا ضيرَ ، أرجو أن تحمَد عاقبة أمرك ، قالت : فما صناعتك ؟ قلت: بزّاز من بغداد ، قالت : فهل رويت من الأشعار شيئاً ؟ قلت : شيئاً ضعيفا ، قالت : فذا كِرْنا ، قلت : إن الداخل حشمةً ولكن تهدئين ، قالت : صدقَت ، فأنشدْتنى لجماعة من القدماء والمحدَثين من أجود أقاويلهم ، وأنا مستمع لا أدرى مِمّ أعجب ! أمِنْ حسنها ، أم من حُسْن روايتها وجودة ضبطها للغريب ، أم من اقتدارها على النّحو ومعرفة أوزان الشعر ! ثم قالت: أذَهَب ما كان عندك من الحصَر ؟ قلت : إى والله ، قالت : فإن رأيت أن تنشدنا ، فأنشدتُها لجماعة من القدماء ما فيه مقنع ، فاستحسنتْ ذلك ثم قالت: والله ما ظننت أن يوجد فى أبناء السوقة هذا !

ثم أمرت بالطعام فأُحْضِر ، وقالت : المماجلة[1] أول الرضاع ، فدونك . وجعلتْ تقطّع وتضع بين يدىّ ، وفى المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه ما لا يكون إلا عند سلطان ، ودعت بالشّراب ، فشربتُ قَدَحًا ، ثم سكبتْ لى قدحاً ، فشربت ، ثم قالت: هذا أوان المذاكرة بالأخبار وأيام الناس ، فاندفعتُ فقلت : بلغنى أنه كان كذا ، وكان رجل يقال له كذا ، حتى أتيت على عدة أخبار حسان ، فسُرّت بذلك ، وقالت : كَثُر تعجُّبى أن يكون أحدٌ من التجار يحفظ مثل هذا ، وإنّما هذه أحاديث ملوك ، فقلت : كان لى جار يُنادم الملوك ، فإذا تعطّل حضرتُ معه ، فربّما حدّث بما سمعتِ ، فأخذتها عنه . فقالت : لَعمْرى لقد أحسنتَ الحفظ ، وما هذا إلا لقريحة جيّدة ، وأخذنا فى المذاكرة إذا سكتّ ابتدأتْ هى ، وإذا سكتّ ابتدأتُ أنا ، حتى قطعنا عامة

---

(١) يقال : ملج الصبى أمه ، أى تناول ثديها بأدنى فمه ، والكلام على التشبيه .

الليل ، وبخور العود يَعْبق ، وأنا فى حالة لو توهمها المأمون لطار فرحاً . فقالت : إنك من الرجال وضيء الوجه ، بارع الأدب ، وما بقىَ عليك إلا شيء واحد . قلت : وما هو ؟ فقالت : لو كنت تترنَّم ببعض الأشعار ! فقلت : والله لقديما كُلِفْتُ به ولم أرزَقه ، فأعرضت عنه ، وفى قلبى منه حزازة ، وكنت أحبّ أن أسمع فى مجلسى هذا منه شيئاً لتكمل ليلتى ، قالت : كأنّك عرّضت بنا ! قلت : والله ماهو تعريض ، قد بدأتِ بالفضل وأنتِ جديرةٌ باستتمامه . فأحضِر عودٌ بأمرها ، فغنّت بصوت ماسمعت كحسنه ، مع حسن أدائه ، وجَوْدة الضرب . فقلتُ : والله لقدأ كمل الله فيك خلالَ الفضل وحَباكِ بالكمال الراجح ، والعقل الوافر ، والأخلاق الرضيّة والأفعال السنية . قالت : هل تعرف هذا الصوت ومَنْ غنّى فيه ؟ قلت : لا والله ، قالت الشعر : لفلان ، وكان سببه كذا والغناء لإسحاق ، قلت : وإسحاق هذا جُعِلْتُ فداك فى هذا الحال ! قالت : بخٍ بخٍ ! إسحاق بارع هذا الشأن ، قلت : سبحان الله ! لقد أعطىَ هذا مالم يعطه أحد ، قالت : فكيف لو سمعتَ هذا الصوت منه ! فلم نزل كذلك حتى إذا انشقّ الفجر أقبلت عجوز كأنها دَايةٌ لها ، قالت : أى بنيّة ، إن الوقت قَدْ حضر ، فنهضتْ عند قولها ، فقالت : مصاحباً ، لتستر ما كنا فيه ، فإن المجالس بالأمانات ، فقلتْ : جُعِلت فداك ، أفأحتاج إلى وصية فى ذلك ! وودعتها وجارية بين يدىّ إلى باب الدار ، ففُتح لى ، وخرجت إلى دارى فصلّيت الصبح ، ونمْتُ .

فأنبَهنى رسول المأمون فسِرْتُ إليه ، فلما رآنى ، قال : ياإسحاق ، تشاغلنا عنك ، فما كان حالك ؟ قلت : اشتريت صبيّةً وكنت معلّقَ القلب بها ، فمضيتُ لها ، وشربت معها ونِمْت ، فقال : يُنهيأ مثل هذا ، فهل لك فيما كنا فيه أمسِ ! فقلت : وما يمنع من ذلك ؟ فنهضتُ إلى مجلس أمس ؛ فلما كان العشاء قال : لا تَرِمْ ، فإنى أجيئك ونهض ، فتأمّلت ما كنت فيه البارحة ، فإذا هو شيء

لا يصبر عنه إلا جاهل؛ فخرجتُ . فقال الغلمان : الله الله، فإنه أنكر علينا تخليتَك ، فوعدتُهم أن آتيَ قبل أن يجيء ، وأنّ خروجي لعذر ، وفي الحين أرجع .

فنهضت إلى الزّبيل فجلست فيه ، فرُفع بي إلى موضع البارحة ، فإذا هي قد طلعت ، فقالت : لقد عاودت ، فقلت : ولا أظنّ إلاّ أني قد تقتّلت ، فقالت : مادح نفسه يقرئك السلام ، قلت : فهفوة فنّي بالفضل. قالت : قد فعلنا ، ولا تُعد، فأخذنا في مثل الليلة السالفة من المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر .

فانصرفتُ إلى منزلي وصليت ونمت ، فأنبهني رسولُ المأمون ، فلمّا رآني قال : أبيت إلا مكافأة لنا ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ماذهبت إلى ذلك ، ولكن ظننت أن أمير المؤمنين قد تشاغل عني بلذّته ، وأغفل أمري ، وجاء الشيطان ، فذكّرني أمر تلك الملعونة، فبادرت قال: فما كان منك ؟ قلت : قضيت الحاجَة منها ، قال: فقد انقضى ما كان بقلبك منها ، وواحدةٌ بواحدة ، والبادي أظلم. قلت : بل أنا أظلم ، وإليك المعذِرة ، قال : لا تثريبَ عليك ، فهل لنا في مثل حالنا أمس؟ قلت : إي والله ، فقمنا إلى موضعنا إلى الوقت ، فقال : يا إسحاق ما عزمُك ؟ قلت : لا عذرَ لي ، قال : فعزمت عليك لتجلس حتى أجيء ، فإني عازم على الصّبوح ، وقد نغّصتَ عليّ منذ يومين ، قلت : فالليلة إن شاء الله ، فما هو إلا أن غاب وجالتْ وساوسي ، فلمّا تذكّرت ما كنت فيه البارحة هان عليّ ما يلحقني من سَخَطِه؛ فوثبت مبادراً ، فوثب إليّ جند الدار ، وحُبست ، فقلت : الله الله ! إني معلّق البال ببعض مالي منزلي ، فقالوا : ما إلى تركك من سبيل ، فلم أزل أرغّب هذا وأقبّل يَدهذا ، ووهبت خاتمي لهذا ، وردائي لهذا، وخرجت أعدُو حاسراً حتى وافيت الزّبيل ، فتعدّدتُ فيه ، فرُفِعتُ إلى موضعي ، وأقبلت ، فقالت : صدقنا ! قلت : إي والله ، قالت : أجعلتُها دارَ مقامُ ؟ فقلت : جُعِلت فِداكِ ! حق الضيافة ثلاث ، فإن رجعتُ فأنتُم في حلٍّ من دمي . قالت:

والله لقد أتيتَ بحُجَّة ، ثم جلسنا فى مثل تلك الحال ، فلماّ قرُب الوقت علمت أن المأمون لابُدّ أن يسألنى، ولا يقنع منى إلا بشرح القصّة ، فقلت لها : أراك ممّن يعجب بالغناء ، ولى ابن عمّ أحسنُ منّى وجها ، وأظرف قدًّا ، وأكثر أدبا ، وأنا حسنة من حسناته ، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق الموصلى ، قالت : طفلىّ وتقترح ؟ قلت لها : أنت الحكَمة ، قالت: إن كان ابنُ عمك على ما تصف فما نكره معرفتَه ، ثم جاء الوقت فنهضتُ فلم أصل إلى دارى إلاّ ورسل المأمون قد هجموا علىّ ، وحملونى حملا عنيفاً ، فوجدته على كرسىّ وهو مغتاظ ، فقال: يا إسحاق أخرجتَ من الطاعة ! قلت: لا والله قال : فما قصّتك وما هذا الانحراف؟ فأصدقنى ، قلت : فى خلوة ، فأومأ إلى مَنْ بين يديه فتنحّوْا فحدثته الحديث وقلت له : قد وعدتُها فى أمرك ، قال : قد أحسنت ، ولولا ذلك لنكّلت بك، فقلت: قد سلّم الله، فأخذنا فى لذتنا فى ذلك اليوم ، وهو لا يسمع منى غيرَ حديثها، فلم يتمّ النهار إلا والمأمون معلّق القَلب، فلما جاء الوقت سِرْنا وأنا أوصيه وأقول: بجنّب أن تظهرنى بحضرتها ، ودعنى من نخوة المُلك ، وكن لى تبعاً ، وهو يقول: نعم ويلك ! وإن قالت : غنّ كيف أصنع ؟ قلت : أنا أدفعها عنك .

ثم سرنا إلى زبيلين فقعدنا فيهما ، فرُفعنا إلى الموضع ، فأقبلت فسلّمت ، فما تمالك إذ رآها أن بُهِت فى حسنها ، وقالت لى : والله ما أنصفتَ ابن عمك إذ لم ترفع منزلته ، وكان قد قعد دونى ، فقالت : ارتفع فديتُك ، أنت جديد ، وهذا قد صار من أهل البيت ، فنهض إلى صدر البيت ، وأقبلتْ تُذاكره وتناشده وتمازحه ، وهو يَظْهر عليها فى كل فن . ثم أحضِر النّبيذ فشربنا ، وهى مقبلة عليه ومسرورة به ، وهو أكثر ، وأخذتِ العود فغنّتْ صوتاً ، وقالت : وابن عمك هذا من التجار ؟ قلت : نعم ، قالت : إنكما لغريبان . فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب ، ثم رأيتُه ينظر إلىّ نظر الأسد إلى فريسته ، فصاح : يا إسحاق ، فنهضت وقلت: لبيك يا أميرالمؤمنين !

قال : غنّ هذا الصوت ، فلمّا علمتْ أنه الخليفة نهضت إلى كِلّةٍ مضروبة ، فدخلتها ، فلما فرغتُ من الصوت ، قال : انظر مَنْ ربّ هذه الدار ؟ فسألت عجوزاً ، فقالت : هو الحسن بن سهل ، فقال : عليّ به ، فغابت العجوز ساعة وإذا الحسن قد حضر ، فقال له : ألك ابنة ؟ قال: نعم بوران ، قال: فزوّجتها لي قال : لا والله ، قال : فأنى أخطبها إليك ، قال : هي أمَتُك ، وأمْرُها إليك ، قال : قد تزوّجتُها على نقد ثلاثين ألفاً نحملها إليك صبيحة يومنا ، فإذا قبضْت المال فاحملها إلينا ، قال : نعم ، ثم خرجنا .

فقال : يا إسحاق لا يقف على ما وقفْتَ عليه أحد، فسترتُ الحديث إلى أن مات المأمون ؛ فما اجتمع لأحدما اجتمع لي في تلك الأربعة الأيام : مجالسة المأمون بالنهار، ومجالسة بُوران بالليل ، ووالله ما رأيتُ أحداً من الرجال في ملوكهم مثل المأمون، ولا شاهدت امرأة تقارب بُوران فهما وعقلا ، وما أظن أحداً وقف من العلوم على ما وقفت عليه .

وفي المسعودي : انحدر المأمون إلى فم الصّلح في شعبان سنة تسع ومائتين ، وأملك[1] بخديجة بنت الحسن بن سهل، ونَثَر الحسن في ذلك الإمْلاك مالم ينثره قطّ ملك في جاهلية ولا إسلام ، نثر على الهاشميين والقواد والكتّاب بنادق مسك، فيها رقاع بأسماء ضياع، وجوار وأسماء دِيار ودوابّ وغير ذلك ، فإذا وقعت البندقة بيد الرجل ، ففتحها فيجدها على قدر سعده ، ثم ينثر بعد ذلك الدنانير والدراهم ونوافج المسك على عامة الناس ، وأنفق على المأمون وعلى جميع قواده ، فلما أراد المأمون الانصراف إلى مدينة السلام قال له : يا أبا محمد ، سلْ حوائجك ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ عليّ مكاني من قِبَلك ، فأمر المأمون أن يحمل له خراج فارس والأهواز لسنة[2] .

وذكر الحريري في الدّرة أن المأمونَ لمّا بنى على بُوران ، فرش له حصير منسوج بالذهب ما مسّه أحد ، وعليه در منثور ، فوجّه الحسن إلى المأمون أن

(١) أملك : تزوج (٢) مروج الذهب ٤ : ٣٠

هذا نثار يجب أن يُلتقَط، فقال المأمون لمن حوله من بنات الخلفاء : شرّفن أبا محمد ، فمدّت كل واحدة منهنّ يدها ، فأخذت دُرّةً وبقيَ باقي الدرّ يلوح على الحصير المذهب ، فقال : قاتل الله أبا نُواس ، لقد شبّه بشيء ما رآه قط ، فأحسن في وصف الخمرة والحباب الذي فوقها فقال !

كأنّ صُغرى وكُبرى من فواقِعها حَصْباءُ درٍّ على أرض من الذّهبِ[1]

فكيف لو رأى هذا معاينة !

ويقال : إن الحسن بن سهل نثر في ذلك العرس على المأمون ألف حبة جوهر وأشعل بين يديه شمعة عنبر، وزنها مائة رطل ، فأمر له المأمون بمائة ألف ألف درهم، وأقطعه مدينة فم الصّلح ، وهي قريبة من واسط ، وكان العُرس بها .

وذكر المبرّد أن الملاحين الذين تصرّفوا في هذا العرس نيّفوا على السبعين ألفاً ، وكانت جراية السلطان عليهم ، ولما بَنَى المأمون على بُوران وأراد غشيانها حاضت ، فقالت : أتى أمر الله فلا تستعجلوه ! فنام في فراش آخر ، فلمّا أصبح دخل عليه أفاضل ندمائه يهنّئونه ويدعون له فأنشدهم بديهاً :

فارس في الحرب منغمِسٌ عارف بالطّعن في الظُّلَمِ
رامَ أن يُدْمِي فريستَه فأتَقتْهُ من دم بدمِ

وأكثر الشعراء في ذلك الإملاك ، وأستظرف منها قولَ ابن أبي حازم الباهليّ :

بارك الله للحسَنْ ولبُورانَ في الخَتَنْ[2]
يابنَ هارون قد ظفرْ تَ ولكنْ ببنت مَنْ!

---

(١) ديوانه ٢٤٣

(٢) البيتان في معاهد التنصيص ٣ : ١٣٩ ، من شواهد التوجيه ، وهو إيراد الكلام بوجهين مختلفين ، وهنا لم يعلم ما أراد بقوله : « ببنت من» .

فلما وصلت إلى المأمون قال : لا والله ماندْرِى أخيراً أراد أم شرًّا .

ويشبه هذا أن رجلا أتى رجلا خياطاً بثوب ليقطع له منه قميصاً ، فقال : والله لأفصلنّه لك تفصيلا، لايُدْرَى أقميص هو أم قباء ؟ ففعل ذلك ، فقال له صاحب الثوب : وأنا والله لأدعونّ لك دعاء لايُدْرَى ألك هو أم عليك ؟ وكان الخياط يسمّى بِشْرا ، وكان أعور ، فقال :

خاط لِي بشرٌ قَبَاء لَيْت عينيه سواء[1]

وأتت المأمون بجهاز لم يُسمع بمثله قطّ كان فيه الفُرُشُ منسوجةً بالذهب .

وقال إبراهيم بن العباس الصّولىّ يهنئ الحسن بمصاهرة المأمون :

هنّئتَ أكرومةٌ جلّت نعمتَها أعلت وليّك واجتثّتْ أعاديكا[2]

ما كان يُحْبَى بها إلا الإمام ولا كانت إذا قُرِنَتْ بالخلْق تعدوكا

وماتت بُوران فى سنة إحدى وسبعين ومائتين ، وقد بلغت ثمانين سنة .

وتَمّ بُوران أخرى وهى بنت كسرى ، وأمها مريم بنت قيصر ، ملكت سنةً ونصفاً ، وليست المعنيّة فى المقامة .

* * *

[ذكر بلقيس وعرشها]

وأما بِلقيس فهى ابنة شراحبيل بن أبى سرح بن الحارث بن قيس بن صيفى ابن سبأ ، وكان سبب مراسلة سليمان إليها أنه فقد الهدهد ، وبه يُعرَف قُرْب الماء من بُعده ، فنزل سليمان عليه السلام بمفازة ، فدعا بالهدهد فلم يُوجَدْ ، فقال وهو غاضب ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ ...﴾[3] الآيات. وكان الهدهد قدمرّ بعرش

(١) معاهد التنصيص ٣ : ١٣٨ ، ونسبه إلى بشار، وذكر بعده :

فقلتُ شعراً ليس يُدرَى أمديحٌ أمْ هجـــاء

(٢) ديوانه ١٣٥، ١٣٦ (٣) سورة النمل ٢٠ ومابعدها .

بِلقيس وبساتينها ، فلمّا رجع تلقّته الطير ، فقالوا : تَوَعَّدَك رسول الله بنتف ريشك أو بذبحك، فينقطع نسلُك،فقال : وما استثنى؟ قالوا : بلى، قال :﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾،أي بعذر مبين فأتى سليمانَ فقال:ماغيَّبك عني؟قال:﴿أحطتُ بما لم تحطْ به ﴾ حتى بلغ ﴿ فانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قالَ سَنَنظرُ أصدقْتَ.. ﴾ الآيات فوجّهه بالكتاب ، فوافقها في قصرها ، فسدّ عليها بالكتاب ضوء طاق ،فالتفتت فألقى إليها الكتاب ، فأخذته وغطّته بثوب ، ونادت في قومها فقالت : ﴿ يأيُّها الملأُ... ﴾ الآيات، فقالوا لها: ﴿نحن أولو قوة...﴾ الآيات. ثم قالت: إن قَبِل الهدية فهو مَلِكٌ من ملوك الدنيا وأنا أعزّ منه ، وإن لم يقبلها فهو نبيّ من عند الله .

فلما رجع بالهدية قال سليمان: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ ﴾ إلى ﴿وهم صاغرون﴾ . فلما رجع إليها رسلُها بالخبر، خرجتْ فزعة في قومها ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومعها ألف قَيْل ، وأهل اليمن يسمون القائد القَيْل ـ مع كل قَيْلٍ عشرة آلاف . وكان سليمان مهيباً لا يبدؤه أحدٌ بشيء حتى يسأله عنه ، فخرج فرأى رَهَجاً قريباً منه،فقال:ماهذا ؟ قالوا : بلقيس ، قال : وقد نزلت منّا بهذا المكان . ثم قال : ﴿ أَيُّكُمْ يأتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ فأتاه به الذي عنده علم الكتاب قبل ماقطع كلامه ، وصرفَ بصَره ، فرآه مستقرًّا عنده ، فقال:هذا من فضل ربي . ثم جاءت بلقيس وقعدت إلى سليمان،فقيل لها :﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ فنظرتْ إليه وقالت :﴿ كأنّه هو﴾ ثم قالت: تركته في قصري والجنود محيطة به،فكيف جيء به! وكانت شعراء الساقين ، فقالت الجن :إن نكحَها سليمان فولدت له غلاماً ماننفكّ من العبودية أبداً ، فهلمّ نبغي له بنهاناً ، فيرى شَعْرَها فيه فلا يتزوّجها ، فبنوا له صَرْحاً أخضر من قوارير كأنه الماء ، وجعلوا في باطن طرائقه كلّ شيء من الدواب والسمك وغيره ، وأُلقِيَ لسليمان كرسي في أقصاه :فلما رأى منه مارأى قعد عليه ،ودعا بها فلما رأت صور السمك فيه حسبته لجّة ، وكشفتْ عن ساقيها.فأبصر شَعْرَها سليمان ،

فصرف بصره عنها ، وقال إنه صرح ممرّد من قوارير ، فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي .. ﴾ الآية . فقال سليمان للجن : ما يُذهِب الشعر ؟ فقالوا : له النُّورة ، فاستنكحها سليمان عليه السلام .

وذكر ابن إسحاق أنها لمّا أسلمت ، قال لها سليمان : اختاري رجلاً من قومك أزوّجكه ، فقالت : ومثلي يُنكح ، وقد كان لي من الملك والسلطان ما كان ! فقال لها : ما ينبغي أن تحرّمي ما أحلّ الله لك ، فزوّجها ذا تبّع ملك هَمْدان ، وملّكه اليمن ، وردّها معه ، فلم يزل ملك اليمن حتى مات سليمان . وكانت بلقيس من بيت المملكة ، قيل : إنها ولدها أربعون ملكا ، واختلف في أمها فقيل : إنسيّة وقيل جنّية .

وأما عرشها ، وهو سريرها ، فقيل : كان طولُه ثمانين ذراعا ، وعرضه كذلك . وكان عرشها صفائح من ذهب وفضة قد ركبت فيه فُصُوصُ الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والدرّ واللؤلؤ ، وكان له قائمتان من ياقوت وقائمتان من زَبَرْجد ، والملك لله وحده ، الذي سخر لسليمان هذا الملك العظيم ومَنْ أحضر له هذا العرش العظيم قبل رجع الطرف !

وذكر الحريري في الدرّة : أن صواب لفظ « بِلقيس » أن تكسر باؤه لأن كل أعجمي يُعرّب فقياسه أن يلحق بأمثلة كلام العرب ، قال : وعلى ذلك بِلقيس.(١)

وقرأت في أخبار سيف الدولة أن الخالديّين مدحاه ، فبعث إليهما وصيفاً ووصيفة ، مع كلٍّ واحد منها بَدْرَة وتَخْت من ثياب مصر والشام ، فكتبا إليه :

---

(١) درة الغواص ٦٢ .

لم يَعْدُ شكرك فى الخلائقِ مطلقاً إلا ومالُك فى النَّوال حَبِيسُ[1]
خوَّلتنا شمسا وبدْرًا أشرقت بهما لدينا الظلمة الحِنْدِيسُ
رَشأٌ أتانا وهو حُسْناً «يوسفٌ» وغزالة هى بهجةً «بِلقيسِ»
هذا ولم تقنع بذاك وهذه حتى بعثتَ المال وهو نفيسُ
أنَتِ الوصيفةُ وهى تحمل بَدْرةً وأتى على ظهر الوصيفِ الكيسُ
وكسَوْتَنا مما أجادت حَوْكَهُ مصرٌ وزادت حُسْنَهُ تِنِّيس
فغدا لنا من جودك المأكول والـ ـمشروبُ والمنكوحُ والملبوسُ

فلما قرأها سيف الدولة قال: أحسنا، إلا فى لفظ «المنكوح»، إذ ليست مما يخاطب بها الملوك.

وهذا من بديع نقده المليح وشواهد ذكائه الصريح.

وأما الزّبّاء: فقد تقدّم ملكها فى الرابعة والعشرين.

* * *

[ذكر رابعة العدوية]

وأما رابعة فهى[2] بنت إسماعيل العدويّة، وكانت قد بلغت من النّسك والفضل والزهد منزلة شريفة، وكانت منوَّرة البصيرة، مطهَّرة السريرة، حَظِيَتْ بالمكاشفات الربانية. وكان سفيان الثورىّ يذهب إليها ويسألها عن مسائلَ دينية، ويعتمد عليها، وخطبها عبد الواحد بن زيد، فقالت له بعد أن

(١) ديوان الخالدين ١٦٢.
(٢) انظر ترجمتها فى ابن خلكان ١: ١٨٢

حجبته أياما ثم أذنت له: ياشهوان، أى شىء رأيته فىّ من آية الشهوة! ألا خطبتَ شهوانية مثلك !

وقال أبو سليمان الدارانى: بتّ ليلة عند رابعة العدوية، فقامت إلى محراب لها، وقمت إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السَّحَر، فقلت: ما جزاء من قوّانا على قيام هذه الليلة ؟ قالت: جزاؤه أن نصوم له غدا.

وزارها أصحابها، فذكروا الدنيا وأقبلوا على ذمّها، فقالت: اسكتوا عن ذمّها، فلولا موضعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها! ألا مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره.

واحتاجت رابعة إلى شىء فقيل لها: لو بعثتِ إلى فلان؟ قريب لها، فقالت: والله لا أطلب الدنيا ممّن يملكها، فكيف بمَن لا يملكها!

وحدّث جعفر بن سليمان قال: أخذ بيدى سفيان الثورىّ فقال لى: سربى إلى المؤدّبة التى لا أجدنى أستريح إذا فارقتها - يعنى رابعة - قال: فلما دخلت عليها، رفع سفيان يديه، وقال: اللّهمّ إنّى أسألك السلامة! فبكت رابعة، فقال لها: ما يبكيك ؟ فقالت: أنتَ عرّضتَنى للبكاء، فقال لها وكيف ذلك ؟ قالت: أمَا علمتَ أن السّلامة من الدنيا تَرْكُ ما فيها، فكيف وأنت مغلطّخ بها!

وقال سفيان الثورى لرابعة رحمة الله عليهما: ما حقيقة إيمانك ؟ قالت: ما عبدته خوف النار، ولا رجاء الجنة، فأكون كالأجير السوء، بل عبدتُهُ حبًّا له وشوقا إليه، وقالت فى معنى ذلك:

أحبّك حُبّيْن: حبّ الهوى وحُبًّا لأنّك أهلٌ لذاكَ

فأمّا الذى هو حبّ الهوى فشُغْلِى بذكرك عمّن سواكَ
وأمّا الذى أنت أهلٌ له فكشفك لى الحجبَ حتى أراكَ
فلا الحمد فى ذا ولا ذا ليا ولكنْ لك الحمدُ فى ذا وذاكَ

وقيل لها : كيف حبّك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : شغلنى حبُّ الخالق عن حبّ المخلوقين .

ودخل سفيان عليها وهى قائمة تصلّى، فلم تعرِّج عليه ، ودخل جعفر ـ وكان يخدمها ـ فقال لسفيان : أىُّ شىء دارَ بينك وبينها ؟ قال: ما كلّمتنى. فقال لها: يا سبحان الله ! الشيخ جاء إليك فما كلّمتيه، فقالت: إن العبد إذا كان مقبلاً على الله عز وجل كان الله مقبلاً عليه ، وقد كنتُ مقبلة على الله عز وجل ، ولست أشكّ فى إقباله علىّ ، فأيما أحبّ إليك أن أكون مقبلةً على الله ويكون مقبلا علىّ ، أو أقبل على هذا ؟ ثم قالت : الله أكبر .

وقال لها رجل : إنى أحبك فى الله، فقالت : فلا تَعْصِىَ الذى أحببتنى له وأنشدت :

أتضمنُ يافتَى تركَ المعاصِى وأرهنه الكفالَة بالخلاَصِ
أطاع الله قومٌ فاستراحُوا ولم يتجرّعوا غُصَصَ المعاصِى

* * *

[ذكر خندف]

وأما خندف ، فهى ليلَى بنت حُلْوان بن عمران بن الحافِ بن قضاعة ، وهى امرأة إلياس بن مضر، ولدَتْ منه عمراً وهو مدركة ، وعامراً وهو طابخة ،

وعيراً وهو قَمْعة ، فندّت لهم إبل ، فخرجوا فى طلبها فأدركها عمرو ، فسُمِّىَ مدركة ، واقتنص عامر أرنباً فطبخها ، فسُمِّىَ طابخة ، وانقمع عمير فى بيته فسُمِّىَ قمعة ، فلما أبطئوا عليها خرجَتْ فى إثرهم ، فقالت : مازلت أخندف فى إثركم ؟ فلقّبت خندف ، والخندفة بالهرولة ، وهى أمّ عرب الحجاز ، وجميع ولد إلياس من خندف ، ولخندف يُنسبُون ، وجميع ولد مضر من إلياس وخندف ، فمن مدركة كنانة وأسد ابنا خُزَيمة ، ومن طابخة ضبّة بن طابخة ، ومزينة والرِّباب ، وهم عدىّ وتميم بن مرّ بن أدبن طابخة ، وثور وعُكْل بن مدركة ، وقُرَيش وهو فى كنانة .

ومنها سيد ولد آدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى مافى كنانة من الشجعان المشاهير فى الجاهلية .

ومن طابخة تميم ، وهى أكبر قبيلة فى العرب وأشجعها ، وهى عدد لا يحصى ، وعزٌّ لايدرك .

وقال المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود قبائل العرب وَدَعا ببُرْمَتَيْن فقال : ليلبس هذين البردين أكرم العرب وأشرفهم حسباً وأعزّهم قبيلة ، فأحجم الناس ، فقام الأحمر بن خلف بنَ بَهْدَلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم ، فلبس أحدَهما وارتدى الآخر ، فقال له المنذر : ماحجتك فيما ادعيت ؟ قال : الشرف من نزار فى مضر ، ثم فى تميم ، ثم فى سعد ، ثم فى بَهْدلة ، قال : هذا أنت فى أصلك ، فكيف أنت فى عشيرتك ؟ قال : أنا أبو عشرة وعم عشرة وخال عشرة قال : هذا أنت فى عشيرتك ، فكيف أنت فى نفسك ؟ فقال : شاهد العين شاهدى ، ثم قام فوضع قدمَه فى الأرض ، وقال : من أزالها فله مائة من الإبل ، فلم يقم إليه أحد ، وفى ذلك يقول الفرزدق :

فما تمّ فى سعدٍ ولا آل مالكٍ غلام إذا ما قيل لم يتبهدَلِ (١)

لهم وهَبَ النّعمانُ بُردى محرّق بمجد معدّ والعديدِ المحصّلِ

فانخندف هذا الفخر فى الجاهلية ثم النبوّة ، ثم المالك إلى يوم القيامة وفيها يقول الراجز :

* وخندف هامة هذا العالم *

* * *

[ذكر الخنساء]

وأما الخنساء فهى تُماضر بنت عمرو بن الشريد ، من سَراة قبائل سُليم بن منصُور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس عيلان ، قدمتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها بنى سُلَيم ، ولسُلَيْم فى الإسلام سابقة حسنة ، حضر منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فَتْح مكة وحرب حُنين ألف رجل .

وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستنشد الخنساء ويعجبُه شعرها ، فكانت تنشده وهو يقول : هيه يا خنساء ! ونظرتْها عائشة رضى الله عنها ، وعليها صِدَارٌ من شَعر ، فقالت: يا خنساء ، أتلبسين الصِّدار وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : لم أعلم بنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان للصِّدار سبب، كان زوجى رجلا مِتْلافاً فأملق، وأراد أن يسافر، فقلت له: أقم حتى آتى أخى صخرا ، فأتيته فشاطرنى، ماله فأتلفه زوجى ، فعدت إليه فعاد بمثل ذلك ، فأتلفه زوجى ، فعدت إليه فى الثالثة والرابعة ، فقالت له زوجته : إن هذا المال متلَف ، فامنعها شرار مالك ، فقال :

(١) ديوانه ٧٤٤ .

والله لا أمنحُهـــا شرارَها وهى حَصان وقد كفتنى عارَها (١)
ولو هلـكْتُ خرّقَتْ خمارها واتّخـــذت من شعرها صِدارَها

فلما هلك اتّخذت هذا الصّدار .

وقيل لجرير : مَنْ أشعر الناس ؟ قال: أنا ، لولا هذه الفاعلة - يعنى الخنساء - قيل له : فبِمَ فضلتْك ؟ قال بقولها :

إنّ الزمان وما تفنى عجائبُه أبقى لنا ذنبًا واستُؤصِل الرّاسُ (٢)
أبقى لنا كلّ مجهول وفجّعنا بالحـالمين فهمْ هامٌ وأرماسُ (٣)
إن الجديدين فى طول اختلافِهما لا يَفْسُدان ولـكن يَفْسُد الناسُ

فأجمع علماء الشعر أنه لم تـكن قطّ امرأة قبلها ولا بعدها أشعرَ منها .

وكان النابغة الذبيانى يجلسُ لشعراء العرب بعُكَاظ على كرسىّ ، ينشدونه فيفضل من يرى تفضيلَه ، فأنشدته فى بعض المواسم فأُعجب بشعرها ، وقال لها : والله لولا أنّ هذا الأعمى أنشدنى قبلك - يعنى الأعشى - لفضّلتك على شعراء هذا الموسم .

وكان بشار يقول : لم تقل امرأة شعرا إلاّ ظهر الضعف فيه ، فقيل له : أوَ كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك كان لها أربع خصى .

ومن جيّد ما رثت به صخرا قولُها :

---

(١) شرح ديوان الخنساء ٢١ ، الأغانى .

(٢) ديوانها ١٥٥ ، وروايته : « وما يفنى له عجب » .

(٣) فجعنا : أحزننا ، والهام : جمع هامة ، أراد به هاهنا الجثث والمرقات . والأرماس : القبور ، جمع رمس .

ألا يا صَخْرُ إن أبكيتَ عيني لقد أضحكتني دَهْراً طويلا (١)
بكيتُك في نساء معولاتٍ وكنتَ أحقَّ من أبدَى العويلا
دفعتُ بك الجليلَ وأنت حيٌّ فمن ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجليلا
إذا قَبُح البكاء على قتيلٍ رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

ومنه :

يؤرّقني التذكّرُ حين أمسي ويردَعُني عن الأحزان نُكْسي (٢)
على صخرٍ وأيّ فتًى كصخرٍ ليوم كريهة وطِعان خَلْسِ
ولم أر مثله رُزِئا لجنٍّ ولم أر مثله رزءا لإنسِ
يذكّرني طلوعُ الشمسِ صخرا وأبكيه لكلِّ غروب شمسِ
ولولا كثرةُ الباكين حَوْلي على إخوانهم لقتلتُ نَفْسي
وما يبكون مثل أخي ولكنْ أعزّي النفسَ عنهُ بالتأسّي

ومنه أيضاً :

أبعْدَ ابنِ عمرو من آل الشّريـ ـد حَلّتْ به الأرض أثقالها (٣)
لعَمْرُ أبيه لنِعْمَ الفتَى إذا النفس أعجبها مالها
فإن تَكُ مُرّة أودتْ به فقد كان يكثر نقتالها
فخرّ الشوامخ من قَفْدِه وزُلزلت الأرضُ زلزالها

---

(١) ديوانها ٢٢٥ .
(٢) ديوانها ١٥٠ ، وفيه : « مع الأحزان » .
(٣) ديوانها ٢٠١ ، وقبله :
ألا ما لعينك أم مالها وقَدْ أخضل الدّمع سِرْبالها

ومنه أيضاً :

أعيفَ جودا ولا تجمُدَا ألا تبكيانِ لصخرِ الندى[1]
ألا تبكيانِ الجريء الجميلَ[2] ألا تبكيان الفتى السيّدا
طويلُ النجادر فيعُ العِما د سادَ عشيرتَه أمرَدا

ومنه أيضاً :

تعرّقني الدهر نهشا وحزّا وأوجعَني الدّهرُ قرعاً وغمزا[3]
وأفنى رجالي فبادوا معاً فأصبحتُ من بينهم مستفزّا[4]
كأنْ لم يكونوا حِمىً يُتّقى إذ الناس إذ ذاكَ مَنْ عزّ بزّا
وكانوا سَراةَ بني مالكٍ ونخرَ العشيرة مجداً وعِزّا
جززنا نواصيَ فُرسانِها وكانوا يظنّون ألاّ تُجَزّا
وَمَنْ ظنّ ممّن يلاقى الحرو ب ألاّ يصابَ فقد ظنّ عَجْزا

ومنه أيضاً :

ياصخرُ وِرّادَ ماء قد تبادَرَه[5] أهل الموارِدِ وما فى وِرْده عارُ
منّى السَّبَنْتَى إلى هَوْجاء معضلةٍ له سلاحان أنيابٌ وأظفارُ[6]

---

(١) ديوانها ٤١ . (٢) الديوان : « الجميم » .
(٣) ديوانها ١٤٣ . (٤) الديوان :

* فأصبح قَلْبي لهم مستفزّا *

(٥) ديوانها ٧٥ (٦) السبنتى : النمر .

وماعجولٌ عَلَى بَوٍّ تحنّ له لها حنينان إعلان وإسرارُ
تَرْتع مارَتَعَتْ[1] حتى إذاادّكَرَتْ فإنّما هى إقبال وإدبارُ
يوما بأوجعَ منى حينَ فارقنى صخرٌ فللدهر إحلاء وإمرارُ
وإنّ صخرا لوالينا وسيِّدُنا وإنّ صخراً إذا نشتُو لنَحّارُ
وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به كأنه علمٌ فى رأسه نارُ

وحدث المفضّل قال: كنت جالساً يوماً على باب منزلى، أحتاج إلى درهم واحد، وعلىّ دين عشرة آلاف درهم، إذ جاءنى رسول المهدىّ، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت فى نفسى: وما بعثته إلىّ! لعلّ ساعياً سَعَى بى عنده. ثم دخلت منزلى، ولبست ثيابى، وسرتُ إليه، فلما مثلت بين يديه أومأ إلىّ بالجلوس، فلما سكن جأشى، قال لى: يا مفضّل، ما أفخرُ بيت قالته العربُ؟ فأرتجّ علىّ ساعة، ثم قلت: يا أمير المؤمنين قولُ الخنساء، فاستوى جالساً وكان متكئا، فقال: أىّ، [بيت هو؟][2] فقلت قولها:

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداةُ به كأنه علمٌ فى رَأْسِهِ نارٌ

فقال: قد قلت له فأبى علىّ - وأومأ إلى إسحاق[3] بن بزيع - قلت: الصواب مع أمير المؤمنين، ثم قال: يامفضّل، حدّثنى فحدّثته حتى انتصف النهار، قال: أنشدنى، فأنشدته قول الحسين بن مُطير الأسدىّ:

وقد تَغدِرُ الدنيا فيضحى غنيُّها فقيرا ويَثرَى بعد بؤسٍ فقيرُها
وكمْ قد رأينا من تَغيُّر عيشةٍ وأخرى صفا بعد كَدٍ غديرُها
فلا تقربِ الأمر الحرام فإنه حلاوته تَفنَى ويبقى مريرُها

(١) ط: «فقلت».
(٢) من الأغانى.
(٣) فى الأغانى: فأومأ إلى إسحاق بن بزيع، ثم قال: قد قلت له ذلك فأباه.

وكان المهدىّ رقيقا فبكى ، وقال : يامفضّل ، كيف حالك ؟ فقلت : كيف يكون حال مَنْ عليه عشرة آلاف درهم ، وليس معه منها درهم واحد ، قال : يا إسحاق ، أعطه عشرة آلاف دِرْهم قضاء لدينه ، وعشرة آلاف درهم يستعين بها على حاله ، وعشرة آلاف درهم يصلح بها من شأنه [1].

ورأى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الخنساء تَطوفُ بالبيت محلوقةَ الرأس ، تبكى وتلطم خدّها ، وقد علّقت نعلَ صَخْرٍ فى خمارها ، فوعظها فقالت : إنّى رُزِئت فارساً لم يُرْزأ أحدٌ مثله ، فقال: إن فى الناس مَنْ هو أعظم مرزأة منك ، وإنّ الإسلام قد غطّى ما كان قبله ، وإنه لايحلّ لك لطمُ وجهك ، ولا كشف رأسك ، فكفّتْ من ذلك وقالت :

هَريقى مِنْ دُمُوعك واستفيقى ... وصبراً إنْ أطقتِ ولَنْ تُطيقِ [2]
وقُولى إنّ خيرَ بنى سُليمٍ ... وأكرمَهم بصحراء العقيقِ
ألا هل تَرْجِعَنَّ لنا الليالى ... وأيامٌ لنا بِلِوَى الشَّقِيقِ
وإذ فينا معاوية بن عمرٍو ... على أدْماء كالجمل الفَنيقِ [3]
فنبكيه فقد أودَى حميداً ... أمينَ الرأى محمودَ الصَّديقِ [4]
فلا والله لاتَسْلوك نفسى [5] ... لفاحشةٍ أتَيتُ ولاعُقوقِ [6]
ولكنّى رأيت الصبر خيراً [7] ... من النَّعْلين والرأس الحليقِ

وأما أبو العباس المبرّد فقال : وقالت الخنساء ترثى أخاها معاوية بن عمرو ، وكان أخاها لأبيها [وأمها ، وكان صخر أخاها لأبيها] [8] وكان أحبّهما إليها ،

---

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٦ : ٢١ ، ٢٢ . (٢) ديوانها ١٧٣ .
(٣) أدماء : ناقة بيضاء . والفنيق : الفحل من الإبل .
(٤) الديوان : « لنبكيه » (٥) الديوان : « ماسليت نفسى » .
(٦) الديوان : « بفاحشة علمت » .
(٧) الديوان : « بعاقبة فإن الصبر خير » . (٨) من الكامل .

واستحق ذلك لأمور : منها أنه كان موصوفاً بالحلم مشهوراً بالجود ، معروفاً بالتقدّم والشجاعة ، محظوظاً في المشهرة ، ثم أنشد الأبيات المتقدّمة [١].

وكان صخر أحمل رجل في العرب ، وكان سبب قتله أنه جمع جمعاً ، وأغار على بني أسد بن خزيمة ، فنذِروا به واقتتلوا قتالاً شديداً ، فارفضّ أصحاب صخر عنه ، فطعنه ربيعة بن ثور الأسديّ ، فأدخل جوفه حلقا من الدِّرع ، فاستقلّ [٢] منها ، وسار إلى أهله فاندمل عليه الجرح ، ونتأ منه مثل اليد ، فأضناه ذلك حولاً ، فسمع سائلا يقول لامرأته : كيف صخر اليوم ؟ فقالت : لاحيٌّ فيرجَى ، ولا ميت فيُنْعَى ، ولقد لقينا منه الأمرّين ـ وامرأته بدبلة الأسدية وكان سباها من بني أسد ، واتخذها لنفسه ـ فلما سمع قولها علم أنها بَرِمَتْ منه ، ورأى تحزّن [٣] أمه عليه ، فقال :

أرَى أمّ صخرٍ لاتجفُّ دموعُها ... وَمَلّتْ سُلَيمى مضجعِي ومَكانِي
وما كنتُ أخشى أن أكونَ جِنازة ... عليكِ ، ومَنْ يغترّ بالحدَثانِ
أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعهُ ... وقد حيل بين العير والنَّزَوَانِ
لعمرِي قَدْ نبّهتِ مَنْ كان نائما ... وأسمعتِ مَنْ كانتْ له أذنانِ
فأيّ امرىء ساوى بأمّ حليلةً ... فلاعاش إلا في شَقًى وَهَوَانِ

ثم عزم على قطع ذلك الموضع ، فلما قطعه يئس من نفسه ، فقال :

أجارتَنا إنّ الخطوب قريبُ ... على الناس ، كلّ الحادثين تصيبُ
أجارتَنا إنّا غريبان هاهنا ... وكلّ غريب للغريب نسيبُ

---

(١) الكامل ٤ : ٥١ .
(٢) ط : « فاستعل » تحريف . وفي الكامل : « استقل بها » .
(٣) الكامل : « حزن أمه » .

فلما مات دفن فى أرض بنى سُليم بقرب عَسيب[1].

وحضرت الخنساءُ القادسيّة مع بنيها وهم أربعة رجال ، فقالت لهم من أوّل الليل: يابنىّ إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو ؛ إنكم لبَنُو رجلٍ واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ماخنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجّنت حسبَكم ، ولا غيّرت نسبَكم ، وقد تعلمون ما أعدّ الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين . واعلموا أنّ الدار الآخرة خيرٌ من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل: ﴿ يأيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابِرُوا ورَابِطُوا واتّقُوا اللهَ لعلّكُمْ تُفْلحون ﴾ ، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا لقتال عدوّكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرتْ عن ساقها ، وجلّلت نارا على أوراقها ، فتيمّموا وطيسَها ، وجالدوا رئيسها ، تظفروا بالغُنْم والكرامة فى دار الخلد والمقامة . فلمّا أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم فتقدّموا واحداً بعد واحد ، يُنشِدون أراجيزَ يذكرون فيها وصيّة العجوز لهم ، حتى قُتِلوا عن آخرهم ، فبانها الخبر ، فقالت : الحمد لله الذى شرّفنى بقتلهم ، وأرجو من ربّى أن يجمعنى بهم فى مستقرّ الرحمة .

وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق بنيها الأربعة ، وكان لكلٍّ منهم مائتا درهم ، حتى قُبِض رضى الله تعالى عنه .

قوله : قعيدة رحلى ، أى امرأة بيتى . وناقةٌ طروقة : بلغت أن يطرقها الفحل . وأنفت . استنكفت وكرهتْ .

* * *

قال : فتذمّرتِ المرأة وتنمّرَتْ ، عن ساعِدِها وشمّرَت ، وقالت له : يا أَلْأَمَ مِنْ مادِر ، وأشأم مِنْ قاشِر ، وأجبَنَ من صافِر ، وأطْيَشَ

(١) الخبر والشعر فى الكامل ٤ : ٦ ، ٦١ مع اختلاف فى العبارة وتغيير فى الأبيات .

من طامر ؛ أترْمِينى بشَنَارِك ، وتَفْرِى عِرْضِى بشِفَارِك ، وأنت تعلمُ أنَّك أحقرُ مِنْ قُلاَمة ، وأعْيَبُ من بَنْلة أبى دُلامة ، وأفْضَحُ مِنْ حَبْقة ، فى حَلْقة ، وأحيرُ من بقّة ، فى حُقّة .

وهَبْكَ الحسنَ فى وَعْظِه ولَفْظِه ، والشَّعْبِيَّ فى عِلْمِه وحِفْظِه ، والخَلِيلَ فى عَرُوضِه ونَحْوِه ، وجَرِيراً فى غَزَلِه وهَجْوِه ، وقُسًّا فى فصاحتِه وخطابَتِه ، وعبد الحميدَ فى بلاغته وكِتَابَتِه ، وأبا عمرٍو فى قراءتِه وإعْرَابِه ، وابنَ قَرِيبٍ فى روايتِه عن أعرابِه ؛ أتظُنُّنِى أرْضَاك إماماً لِحَرَابِى ، وحُسَاماً لِقِرَابِى ، لا والله وَلا بَوَّاباً لِبَابِى ، وَلا عَصًا لِجِرَابِى .

* * *

تذمّرت : غضبت ، وتذمّر الرجل ، إذا رأى ما يكرهه فغضب وتهدّد ، والذّمْر : اللوم والحضّ ، وذَمَر قائد الجيش أصحابَه يذمُرهم ، إذا لامهم وأسمعهم مايكرهون ليجِدّوا فى القتال . تذمّرت : تغيّرت وتشبّهت بالنّمِر ، ولا يُوجد النّمِر إلا مستنكراً غضبان ، ونمِر الرجل وتنمّر : تنكّر وتغيّر . حسرت عن ساعدها : شمّرت عن ذراعها . أطيش : أخفّ ، والطيش : خِفّة العقل .

والطامر : البرغوث ، يقال له طامر ابن طامر . قال الأصمعىّ : كنت بالبادية فرأيت أعرابيًا قد بسط كساءه ليفلّيه فى الشمس ، فوقفتُ أنظر إليه ، فجعل يأخذ البراغيث ، ويدَع القمل ، فقلت له : لم تأخذ بعضا وتدَع بعضا ؟ فقال : أبدأ بالفرسان ثم أعكّر[1] على الرجّالة .

---

(١) عكر على الشيء : كر وانصرف إليه .

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يسبّ برغوثا ، فقال : « لا تسبه فإنّه نبّه نبيًّا من الأنبياء لصلاة الفجر » .

أبو الدرداء رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا آذاك البراغيث ، فخذ قَدَحًا من ماء ، واقرأ عليه سبع مرات ، ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ المتوكّلون ﴾[1] . فكفّوا شرّكم وأذاكم عنّا ، ثم ترشّ الماء حول فراشك ، فإنك تبيت الليلة آمنًا من شرّها » .

شَنارك : عيبك وعارك . تفرِى :تقطع ، وفرى ، يستعمل فى القَطْع على جهة الإصلاح ، وقد جاء هنا فى الإفساد ، ومنه قول الشاعر :

فَرَى نائباتُ الدهر بيني وبينَها وصَرْف الليالى مثلَ مافُرِىَ الجِلْدُ

ابن سيده : فَرَى الشيء يفريه فريًا وفرّاه تفرية ، كلاهما شقّه وأفسده . وأفراه أصلحه ، والمتقنون من أهل اللغة ، يقولون : فرى : شَقّ للإفساد وأفرى للإصلاح. وقيل: أفراه أفسده ، وفراه:قطعه للإصلاح. قال الأصمعىّ رحمه الله؛ أفرى الجلدَ مَزّقه وأفسده ، يُفريه إفراء ، وفرى المزادة يفريها فَرْيًا : خرزها . القُلاَمة : مايقص من الظفر ،وبها يتعلّق وسخه، فهى مع حقارتها مستقذَرة .

[ذكر أبى دلامة]

وأما أبودُلامة، فاسمه زَنْد ـ بالنون ـ بن الجون ، وهو كوفىّ أسود ، مولى لبنى أسد ، أدرك آخر أيام بنى أميّة ، ونبغ فى أيام بنى العباس ، ومدح السَّفّاح والمنصور والمهدىّ ، وكان صاحبَ نوادر ومُلَح ، وكان خليعًا فاسد الدين ، ردىء المذهب ، وقد تقدّم له شىء من ذلك فى الصّلاة والحجّ ، ونذكر له هاهنا شيئًا فى الصيام ، ونضيف له فنونًا من سائر مُلَحه .

وأما بغلته فكانت جامعةً لعيوب الدوابّ كلها ، وكانت أشْوَهَ الدوابّ

(١) سورة إبراهيم ١٢

خِلْقَةً فى منظر العين، وأسوأها خلقاً فى مخبرها ، فكان إذا ركبها تبعه الصبيان يتضاحكون به ، وكان يقصد ركوبها فى مواكب الخلفاء والكبراء ، ليضحكهم بشماسها ؛ حتى نظم فيها قصيدته المشهورة[١] وهى :

أبْعِـدَ الخيل أركَبُها كراماً ... وبعد الفَرْهِ مِنْ حُضْرِ البغالِ[٢]

رُزِقْتُ بُغَيْلَةً فيهـا وِكَالٌ ... وليتَهُ لم يكنْ غيرَ الوِكالِ[٣]

رأيتُ عيوبَها كَثُرَتْ وغالتْ[٤] ... وإن أكْثَرْتُ ثَمَّ من المَقالِ[٥]

ليُحصِيَ[٦] منطقى وكلام غيرى ... عُشَيْرَ خصالها ، شرُّ الخصالِ[٧]

فأهْوَنُ عَيْبِهَا أنِّى إذا ما ... نزلتُ وقلت : إمشى لاتُبَالِى

تقومُ فما تَبُتُّ[٨] هناك شِبْراً ... وتَرْمَحُنِى وتأخذ فى قِتَالِى

وحِينَ ركوبُها آذيت نفسى[٩] ... بضربٍ باليمين وبالشِّمَالِ[١٠]

---

(١) وردت هذه القصيدة فى ثمار القلوب للثعالبى ٣٦١ـ٣٦٤ ، وكتاب البغال للجاحظ ، وأبيات منها فى الأغانى ١٠ : ٢٦٥ ، ونهاية الأرب ١٠ : ٨٩.

(٢) ثمار القلوب : « بعد الغر » والبيت فى كتاب البغال ونهاية الأرب :

أبعِـد الخيل أركبها وراداً ... وشُقْرًا فى الرَّحيل إلى القتالِ

(٣) الوكال : الكسل والبطء .

(٤) كذا فى كتاب البغال : وفى ثمار القلوب : « وعيبت فيها » . وفى نهاية الأرب . « وعالت » وفى ط: « وليست »

(٥) كتاب البغال ونهاية الأرب وثمار القلوب : « ولو أفنيت مجتهدا مقالى » .

(٦) ثمار القلوب : « ليحصر » .

(٧) ثمار القلوب : « فغير خصالها شرح الخصال » ، ولم يرد هذا البيت فى نهاية الأرب .

(٨) ثمار القلوب : « فما تسير هناك سيراً » . وفى كتاب البغال : « تقوم فما تريم إذا استحثث » .

(٩) ثمار القلوب : « وحين ركبتها آذيت نفسى » .

(١٠) ثمار القلوب : « أركزها » .

وبالرِّجْلَيْنِ أركُضُها جميعاً ... فهالك فى الشقاء وفى الكلالِ[1]
أتانى خائبٌ يَسْتَامُ[2] منِّى ... عريق[3] فى الخسارةِ والضَّلالِ
وقال تبيعُها ؟ قلتُ ارتَبِطْها ... بحكمك إنّ بيعى غيرُ غالِ
فأقبل ضاحكاً نحوى سرورا ... وقال أراك سَهْلاً ذَا جمالِ
هلمّ إلىّ يَخْلُو بى خِداعاً[4] ... ومايدرى الشَّقِىُّ بمن يُخَالِى
فقلت بأربعين فقالَ أحسِنْ ... إلىّ فإن مثلَك ذو سِجَالِ[5]
فأترُكُ خمسةً منها لعلمى ... بما فيه يصيرُ من الخبالِ
فلمّا ابتاعها منى وبُتّت ... له فى البيع غيرِ المُسْتَقَالِ
أخَذتُ بثوبه وبرئتُ مما ... أعدّ عليه من سُوء الخلالِ
بَرِئتُ إليك من مَشَشٍ[6] قديم ... ومن جَرَدٍ[7] ومن بَلَلِ الحالى[8]

(١) بعده فى كتاب القول فى البغال ونهاية الأرب :

رياضةُ جاهلٍ وعُلَيْجِ سَوْءٍ ... من الأكراد أحبَنَ ذى سُعَالِ
شقيم الوَجْهِ هِلْباجٍ هِدَانٍ ... نَفُوسٍ يوم حَلّ وارتِحَالِ
فأدّبها بأخلاق سماحٍ ... جزاه الله شراً عن عيالِى
فلمّا هَدّنى ونفى رُقادى ... وطالَ لِذَاكَ هَمّى واشتغالى
أتيتُ بها الكناسةَ مستغيثاً ... أفكّر دائباً كيف احتيالى
بعُهدةِ سِلْعةٍ ردّت قديماً ... أُطمُّ بها على الدّاء العُضالِ
فبينا فِكْرَتِى فى السّوم تُمْرَى ... إذا ماشُمْتُ أرخِصُ أم أغالى

(٢) كتاب البغال وثمار القلوب ونهاية الأرب : « حق شق » .
(٣) فيما عدا الشريشى : « قديم » .
(٤) كتاب البغال ونهاية الأرب : « وراوغنى ليخلو بى خداعا » .
(٥) السجال هنا : المباراة والمساجلة ، يريد أنه لايعاكس فى الثمن » .
(٦) المشش : ورم يأخذ فى مؤخر عظم الوظيف أو باطن الساق .
(٧) الجرد فى الدواب : ورم فى مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتى يمنعه المشى .
(٨) فى كتاب البغال ونهاية الأرب وثمار القلوب : « وتخريق الجلال » وبعده فيها :

ومن فرطِ الحِرَان ومن جماحٍ ... ومن ضَعْفِ الأسافِل والأعالى

ومن فَتْقٍ بها فى البطن ضخمٍ ومن عُقَّالها[1] ومن انفِتَالِ
ومِنْ قطع اللسان ومن بياضٍ بعينيها ومن قَرْض الحبالِ[2]
ومن عضّ الغُلام ومن خِراطٍ[3] إذا ماهمّ صحبُك بارتحال
وأفطَى من فُريخ الذّر مشيا بها عَرَنٌ وداء من سُلال[4]
وتكسِرُ سرجها أبدا شِماساً وتقمص للإكاف على اغتيالِ[5]
ويُدْبِرُ ظهرُها من مَسّ كفٍّ وتهزم فى الجِمام وفى الجلال[6]
تظلّ لِرَكْبِهِ منها وقوذاً يخاف عليك من وَرَمِ الطِّحال
ومِشْفَارٌ[7] تقدّم كلّ سرج تصيّر دَفّيه على القَذَال
وتَحْفَى لو تسيرُ على الحشايا ولو تمشى على دَمِثِ الرِّمالِ
إذا استعجلتُها عَثَرَتْ وبالتْ وقامتْ ساعة عند المبال
وتضرِط أربعين إذا وقفنا على أهل المجالس للسُّؤال
فتقطع منطِقى وتحول بينى وبين حديثهمْ فيما تُوالِى
وتذعَرُ للدّجاجة إذ تراها وتنفِر للصّفير وللخَيال

---

(١) العقال : داء يأخذ فى قوائم الدابة .
(٢) كتاب البغال : « بناظرها ومن حل الحبال » ، وبعده :
وعقّالٍ يُلازمها شَدِيدٍ ومن هَدْمِ المعالِف والرِّكالِ
تُقطّع جلدها جرَباً وحكّاً إذا هُزِلتْ وفى غير الهُزالِ
(٣) كتاب البغال ونهاية الأرب : « ومن شد العضاض ومن شباب » .
(٤) العرن : داء يأخذ الدابة فى آخر رجلها ، وفى غير العريشى : « والطف »
(٥) فى كتاب البغال :
وتُلقِى سَرْجَها أبداً شِماساً وتَسْقُط فى الوحولِ وفى الرّمال
(٦) فى نهاية الأرب :
ويَهزِمُ لُجُمها إذا خَصِمتْها ويُدْبِرُ ظهرَها مِنْ الجِلال
(٧) ط : « ومشفار » ، والصواب ما أثبته من نهاية الأرب .

فأمّا الاعتلاف فأدْنِ منها ... من الأتبان أمثال الجبال
وأما القتّ فأتِ بألف وَقْرٍ ... بأعظم حملِ أحمال الجمال
فلستُ بعالفٍ منها ثلاثا ... وعندك منه عودٌ للخلال
وإن عطشت فأوردْها دُجَيْلاً ... إذا أوْرَدْتَ أو نهرىْ بِلَالِ[1]
فذاك لريِّها سُقيتْ حميا ... وإنْ مدّ الفرات فللنهالِ
وكانت قارحاً أيّام كسرى[2] ... وتذكُر تُبّعاً عند الفعالِ
وقد دَبِرَتْ ونُعمانٌ صبيّ[3] ... وقَبْل فِصاله تلك الليالى[4]
وتَذْكُر إذ نشا بِهْرَامُ جُورٍ[5] ... وعامِلُه على خَرْجِ الجَوَالِي
وقد مَرّت بقَرْنٍ بعد قَرْنٍ ... وآخرُ عهدِها لهلاك مالِي
فأبْدِلْنى بها باربّ طِرْفاً[6] ... يزين جمالُ مِشْيته جمالِي

وأنشدها المهدىّ ، فقال : لقد أقِلْتَ من بلاء عظيم ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أتوقّع صاحبها أن يردّها . فقال المهدىّ لصاحب دوابّه : خيّرَه بين مركبين فى الإصطبل ، فقال : إن كان الاختيار إلىّ فقد وقعت فى شرّ من البغلة ، ولكن مره يختر لى ، ففعل .

وفى القصيدة ألفاظ من الغريب أبينها ، فمنها يقال : وَاكَلَتِ الدابة وكالا : أساءت السير . ورمحت ترمح : ضربت برجليها والمَشُش : داء فى قوائمها . والجَرَد . استرخاء العَصَب ، والعُقَّال : أن تنقبض القوائم ولا تنبعث ، والخِرَاط :

---

(١) يشير إلى النهر الذى حفره بلال بن أبى بردة بالبصرة .
(٢) القارح من ذى الحافر : الذى شق نابه وطلع .
(٣) كتاب البغال : « ونعمان فطيم » .
(٤) كتاب البغال : « وذو الأكتاف فى الحجج الخوالى » .
(٥) بهرام جور ، من ملوك ساسان .
(٦) الطرف : الفرس الجواد .

الجماح ، والعَرَن: حكة وشقاق فى القوائم ، وقد عرن عرَنا، وقمص يقمُص ويقمِص قمصا وقماصا : رفع يديه معاً وطرحهما معا ، وعجن بيديه ، وقطا يقطو : قارب الخطو .

وكان لأبى دلامة بِرْذونٌ أعجف محطّم هرِم ، فدخل على المهدىّ يوما وبين يديه سَلَمة الوصيف ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّى جلبتُ لبابك مهراً ليس لأحدٍ مثله ، وأحببت أن أهدِيَه لك ، فإن أحببت أن تشرّفنى بقبوله ! فأمر بإدخاله ، فَخرج وأدخل برذونه ، فقال له المهدىّ: أىّ شىء هذا ويلك! ألم تزعم أنه مُهْر ، فقال له أبودلامة : أو ليس هذا سَلَمة الوصيف قائما بين يديك تسميه الوصيف وله ثمانون سنة ! فإن كان سَلَمة وصيفاً فهذا مُهْر ، فجعل المهدىّ يضحك وسَلَمة يشتمه ، فقال له المهدىّ : ويلك ! إنّ لهذه أخوات ، والله ليَضحكنّ بك فى المحافل . فقال : والله يا أمير المؤمنين لأضحكنّه ، فليس فى مواليك أحد إلاّ وقد وصلنى غيره ، فما شربت الماء له قطّ . فحكم عليه المهدىّ أن يشترىَ نفسه بثلاثة آلاف درهم ، فقال له سلَمة . على ألاّ تعاود ، فقال أبو دلامة : أفعل ، فحملها إليه .

ومما ينتظم بهذا النّمط أن محمد بن عبيد الله بن خاقان حملَ أبا العيناء على فرس ، فكتب إلى أبيه : أعلم الأمير أعزه الله أنّ أبا محمد أراد أن يبرّنى فعقّنى ، وأن يُركبنى فأرجلنى ، أمر لى بدابة تقف للنّبْرة ، وتعثر بالبعْرة ، كالقضيب اليابس عجفاء ، وكالمهجور اليائس دنفاء ، قد أذكر الرواة عروة العذرىّ والمجنون العامرىّ ، مباعداً أعلاه لأسفله ، حباقه مقرون بسماله ، فلو أمسك لترجّمْت ، ولو أفرد لتعزّيت ، ولكنه يجمعها فى الطريق المعمور ، والمجلس المشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ، يضحك من فعله النّسوان ، ويتقاعى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح : داوه بالطباشير ، ومن قائل

يقول : نقّ له الشعير ، قد حفظ الأخبار وروى الأشعار ، ولحق العلماء فى الأمصار ، فلو أعين بنطق لروَى بحق وصدق ، عن جابر الجعفىّ وعامر الشعبىّ . ولم أوتَ من أمر الأمير أعزّه الله ، وإنما أُتِيتُ من كاتبه الأعور ؛ الذى إذا اختار لنفسه أصاب وأكثر ، وإذا اختار لغيره أخيث وأنزر ، فإن رأى الأمير أن يبدلنى ويريحنى بمركوب يضحكنى كما أضحك منّى ، يمحو بحسنه وفراهته ، ما سطّره العيب بقبحه ودناءته ، ولست أذكر سرجه ولجامه ، لأن الأمير أكرم من أن يَسأب ما يهديه ، وينقص ما يمضيه . فوجّه إليه ببرذوْن بسرجه ولجامه ، ثم اجتمع بابنه محمد عنده ، فقال له عبيد الله : شكوت دابة محمد ، وقد أخبرنى أنه يشتريه الآن منك بمائة دينار ، وهذا ثمنه لا يؤخّر عنك ، فقال : أعز الله الوزير! لو لم أكذب مستزيدا ، لم أذهب مستفيدا ، وإنى وإياه لكما قالت امرأة العزيز : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وقال ابن رشيق فى بغل :

أوصيكَ بالبغل شرًّا ... فإنه ابن الحمارِ[1]

لا يصلُح البغل إلا ... للكدِّ والأسفار

كالعبد إن لم تُهِنْهُ ... جَفَى على الأحرارِ

ما اعتاض بغلاً بِطِرْفٍ ... إلاّ أخو إدبارِ[2]

وله أيضاً فيه :

فأوصيكمو بالبغل شرًّا فإنّه ... من العَيْرِ فى سوء الطِّباع قريبُ[3]

وكيفَ يَجِىء البغلُ يوما بحاجةٍ ... تَسُرّ وفيه للحمار نصيبُ !

---

(١) نقله الميمنى فى التنتف ٣٦ .

(٢) الطرف بالكسر : الفرس الجواد ؛ والباء دخلت على المتروك .

(٣) نقله الميمنى فى التنتف ٦ .

وله من قصيدة :

أوْ بَعْـلةٍ سفواء تعرض للفتى ... فتخال تحت السَّرْج أمَّ غزالِ[1]
سألتُ إلى الأم النجابة من أبٍ ... وزهتْ على الأعمام والأخوالِ
وكأنهـا قد أفرِغت فى قالبٍ ... لا أنهـا خُلِقَتْ على تِمثالِ

وله من قصيدة أيضاً :

كأنّى بعضُ نُجومِ السَّماء ... تصعَّد فى الجوّ ثم انحدرْ
على رسلةٍ من هِبات اللو ... كِ سَفْوَاء ملمومةً كالحجرْ
تعاونَ فى جَدْلِ أعضائها ... بنو أخْدَرٍ وبنات الأغرّ

ولمحمد بن يسير[2] الخارجىّ فى بغلة :

نَزَعتْ عن الخيلِ العِتاق نجارها ... منهـا وعِتْقَ سوالفٍ ولَبَانِ[3]
ولهـا من الأعمـار عند مسيرها ... [4] قِحَةٌ وطولُ صَبَارَةٍ ومِرَانِ

رجعنا إلى أخبار أبى دلامة .

يحكى أنّ المهدىّ أو المنصور - أنشده ما أعجبه ، فكساه طيلسانا وأمر له بمال ، وعاهده ألاّ يشرب الخمر ، فحلف له وخرج إلى بنى داود بن علىّ فضحكوا به . وقصّ عليهم خبره فسقوه حتى أسكروه وأخرجوه ، فأعلِم المهدىّ الخبر ، فأرسل فيه ، وأمر الرّسول بسجنه وتخريق ساجِه ، وألاّ يمكن

(١) تقدم فى النتف ٦٣ .

(٢) ط : « بشر » تحريف ، وهو محمد بن يسير ، شاعر ظريف من المحدثين . وله ترجمة فى الشعر والشعراء ٨٧٩ - ٨٨٠ والأغانى ١٢ : ١٣٩ - ١٣١ .

(٣) القول فى البغال ٢٥ من مقطوعة طلب فيها من مويس بن عمران بغلة لرحله . وفيه : « نجادها » .

(٤) القول فى البغال « جد » ، وفيه « قال ذلك لأن حافر العير أوقح الحوافر » .

من قرطاس ولا مداد ، ففعل به الرسول ذلك ، فانتبه فى جوف الليل فنادى جاريتَه فقال له السجان: طعنة فى كبدك فقال له : ويلك ! مَنْ أنت ، وأين أنا ؟ فقال له : سَلْ نفسك أين كنت عشاء أمس ؟ فاستحلفه مَنْ أنت؟ فقال : أنا السّجان ، بعث بك أمير المؤمنين وأنت سَكْران ، فأمرنى أن أحبسَك مع الدجاج ، فقال : أحبّ أن تُسرِج لى سراجا ، وتأتيَنى بدواة وقرطاس ، ولك عندى صِلة ، فقال له. أما السِّراج فنعم ، وأما القرطاس والدواة ، فقد أُمِرْت ألاّ أمكّنَك منهما . فلما أتاه بالسِّراج وجد ساجَه مخرَّقا ملطّخا بأزبال الدجاج ، ورأى نفسه جالساً بينها ، فقال له : ادع لى ابنى دلامة ، فدعاه ، فأمره أن يجيدَ حلاقة رأسه ، وأن يأتيَه بفَحْمة ، ففعل ، فكتب على رأس ابنه :

أمِنْ صهباء صافيةِ المِزاجِ ... كأنّ شُعاعَها لهبُ السِّراجِ[1]
تَهشّ لها القلوب وتشتهيها ... إذا برزتْ تَرقرقُ فى الزُّجاج
أقاد إلى السجون بغير جُرْمٍ ... كأنى بعضُ عمّال الخراجِ
ولو معهم حبست لكان خيراً ... ولكنّى حُبِسْتُ مع الدّجاجِ[2]
أمير المؤمنين فدتك نفسى ... ففيم حبستنى وخرقت ساجى
على أنى وإن لاقيت شرًّا ... لخيْرِك بعد ذاك الشرّ راجى

ثم قال : يا أمير المؤمنين، هذه أمانة ، فإذا قرأتَها فمزّق الرقعة. ثم أمر دُلامة أن يدخل عَلَى أمير المؤمنين ويقرئه ما فى رأسه ، فأتى الباب وصاح : دعوة

---

(١) وبعده فى الأغانى :

وقد طُبِخَتْ بنـار اللهِ حتّى ... لقد صارتْ من القُطَفِ النُّضاجِ

(٢) بعده فى الأغانى :

وقَدْ كانتْ تخبّرنى ذنوبى ... بأنّى من عِقابِك غيرُ ناجى

المظلوم ، فعلم أمير المؤمنين بمكانه فأمر بإدخاله ، فكشف رأسه ، وقال: إن ظُلامتى مكتوبة فى رأسى ، فأدْنِىَ منه حتى قرأها فاشتدّ ضحكه ، وعجب من حيلته وأمر بإخراجه ، وقال : ما كان أحوج هذه الرقعة أن تُمزّق ، ثم وصله بصلة ، ونهاه أن يوجَد سكران[1] .

وخرج المهدىّ يتصيّد ومعه علىّ بن سليمان ، فسنحَ له قطيع من الظّباء ، فأرسلتْ الكلابُ وأجْرَيتِ الخيل ، فرمى المهدىّ سهماً فصرع ظبياً ، ورمى علىّ بن سليمان سهما فصرع كلباً ، فقال أبو دلامة :

قَدْ رَمَى المهدىّ ظبياً شَقّ بالسّهْمِ فُؤادَهْ
وعلىّ بن سليما ن رمَى كلبا فصادَهْ
فهنيئاً لهما كلُّ امرىء يأكل زادَهْ

فضحك المهدىّ حتى كاد يسقط .

ومن مُلحه ، أنه دخل على المهدىّ ، وعنده وجوه بنى هاشم ، فقال : أنا أعطى الله عهداً لئن لم تَهِجْ واحداً ممّن فى البيت لأقطعنّ لسانك ، فنظر إلى القوم ، فكلّما نظر إلى واحد غمزه بأن عليه رضاه ، قال : فعلمت أنى وقعتُ ، وأنها عزْمَةٌ من عزماته لابدّ منها ، فلم أرَ أدعى إلى السّلامة من هجاء نفسى ، فقلت :

ألاَ أبلِغْ لديك أبا دُلاَمَهْ فليسَ من الكرامِ ولا كَرَامَهْ
إذا لبس العمامة كان قردًا وخنزيراً يكون بلا عِمَامَهْ
جمعتَ دمامةً وجمعت لؤما كذاك اللؤم تفعله الدّمَامَهْ
فإنْ تَكُ قد أصبتَ نعيمَ دُنْيا فلا تفرحْ فقد دَنَتَ القِيَامَهْ

(١) الخبر فى الاغانى ١٠ : ٢٥٢ مع اختلاف فى رواية الخبر والشعر .

فضحكوا ، ولم يبق أحد إلاّ أجازه[1] .

وخرجت[2] له صبيّة فأخذها على كتفه ، فبالت عليه فرمى بها ، وقال :

بَلَّتْ عليّ لاحيَّيت ثوبي ... فبالَ عليك شيطان رجيمُ
فما ولدتْك مريمُ أمّ عيسى ... ولا ربّاك لقمانُ الحكيمُ
ولكن قد تضمّنك أم سوء ... إلى لبّاتِها وأبٌ لئيمُ

ولمّا خرجت الخيزران إلى الحج تلقّاها ، فصاح: الله الله في أمرى ! فسألته عن أمره فقال : إنى شيخ كبير ، وأجرُك فيّ عظيم ، تهبين لى جارية تؤنسنى وترفُق بى ، وترحمنى من عجوز عندى ، قد أكلت رِفْدى ، وأطالت كدّى ، وقد عزف[3] جلدَها جلدى ، وتمنّيت بُعْدَها ، وتشوقت فَقْدَها ، فوعدته بها ، فلمّا جاءت من الحجّ دخل على أم عُبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع إليها رقعة ، فدفعتْها إلى الخيزُران وفيها :

---

(١) الخبر فى الأغانى ١٠ : ٢٥٨ .

(٢) الخبر فى الأغانى ١٠ : ٢٤٠ : « دخل أبوعطاء السندى يوما إلى أبى دلامة ، فاحتبسه عنده ، ودعا بطعام فأكلا وشبعا ، وخرجت إلى أبى دلامة صبية فحملها على كتفه ، فبالت عليه ، فنبذها عن كتفه ، ثم قال : بلت على ... البيتين ، ثم التفت إلى أبى عطاء ، فقال له : أجز ، فقال :

صدقتَ أبا دُلاَمَة لم تلدها ... مطهّرةٌ ولا فَحْلٌ كريمُ
وَلكنْ قَدْ حَوَتْها أمّ سوء ... إلى لبّاتِهـا وأب لئيمُ

فقال له أبو دلامة : عليك لعنة الله ! ماحملك على أن بلغت بى هذا كله ! والله لا أنازعك بيت شعر أبدا . فقال أبوعطاء : لأن يكون الهرب من جهتك أحب إلى » .

(٣) الأغانى : « عاف » .

وفيها :

أبْلِغى سيّدتى إن شئتِ يا أمّ عَبيـــدَهْ
أنّها أرشـــدها الله وإن كانت رشِيـــدَهْ
وعدتْنى قبل أن تحُرُ ج للحجِّ وَلِيـــدَه
إننى شيـــخٌ كبيرٌ ليس فى بيتى قعيـــدَهْ
غـــيرَ عَجْفاءَ عجوزٍ ساقُها مثل القَـديدهْ
وجْهها أقبح من حو تِ طرِيّ فى عصيـــدَهْ
ما حياتى ـ مـــع أنثى مثلِ عرسى ـ بجَمِيـــدَهْ (١)

فضحكت واستعادت «حوتاً فى عصيده» وهي تضحك ، ثم قالت لجارية : خذى ما عندك فى قَصْرى وامشى إليه . فلمّا بلّغها الرسول منزلَهُ لم يجده ، فدفعها إلى امرأته ، ودخل دُلامة وأمّه تبكى ، فسألها فأخبرته وقالت : إن أردتَ برّى يوماً من الدّهر ، فاليوم . قال لها : قولى ماشئتِ أفعله ، قالت : تدخل إليها ، وتُعلِمها أنّك مالكها ، فتطؤها فتحرُم عليه ، وإلاّ شغلتْه فجفانى وجفاك . ففعل ، وجاء أبو دُلامة فسألها عنها ، فقالت : هى فى ذلك البيت ، فدخل ومدّ يده إليها ، وذهب ليقبّلها ، فرأت شيخاً محطّماً قبيح الوجه ، فقالت : تنحّ وإلاّ لطمتُك لطمةً دَقّقتُ بها أنفَك . فقال : وبهذا أوصتْك سيدتك ؟ فقالت : إنها بعثتنى إلى فتًى من صفته كذا وكذا ، وقد نالَ حاجتَه منى آنفاً . فعلم أنه دهاه من دلامة وأمه(٢) ، فخرج ولطمه ولَبّبه(٣) . وحلف ألاّ يفارقه إلاّ إلى المهدىّ ، فمضى على تلك الحالة حتى دخل إلى المهدىّ ، فقال له : ما بالك

(١) الأغانى : « بسعيده » .
(٢) الأغانى : « فعلم أنه دهى من أم دلامة وابنها »
(٣) لببه : أخذ بتلبيبه ، أى جمع ثيابه عند صدره ونحره فى الخصومة ثم جره .

وَيحك ! فقال له : عمل بى هذا ابنُ الخبيثة ما لم يعمله أحدٌ بأبيه ، ولا يرضيني إلا أن تقتله ، وأخبره الخبر . فضحك المهدىّ حتى استلقى ، وأبو دلامة يقول : يعجبك فعله ، فتضحك منه ! فقال : علىّ بالسيف والنّطع ، فقال دلامة : اسمع حجتى يا أمير المؤمنين ، كما سمعتَ حُجّته ، فقال : هاتِ ، فقال : هذا الشيخ أصفقُ الناس وجهاً ، وهو ينيك أمى منذ أربعين سنة فما غضبت ، ونِكْتُ جاريتَه مرة واحدة فغضب . فضحك المهدىّ أشد من ضحكه الأوّل ، فقال : دعها له [يا أبا[1] دلامة] ، وأنا أعطيك خيراً منها ، فقال : على أن تخيرها بين السماء والأرض ، وإلاّ ناكها كما ناك هذه ، وحلف دلامة إن عاد ليقتلنّه[2] .

وجاء دُلامة لأبيه فى محفل ، وجلس بين يديه ، وقال للجماعة : إنّ شيخى كما ترون قد كَبِر سنّه ، ورقّ جلده ودقّ عظمه ، وبنا إلى حياته حاجة ، وأنا لا أزال أشير عليه بشىء يمسك رمقه ، ويبقى قوّته ؛ فيخالفنى . وأرغب إليكم أن تسألوه قضاء حاجة فيها صلاح جسمه ، فقالوا : حبًا وكرامة ، فأخذوا أبا دلامة بألسنتهم ، فقال : قولوا له الخبيث فليقُلْ مايريد ، فستعلمون أنه لم يأتِ إلاّ بهليّة . فقال : إنما يقتله كثرة النّيك ، ولا يدفعه عنه إلا الخصاء ، فتعاونوا عليه حتى أخصيَه ، فضحكوا منه كثيراً ، وقالوا لأبيه : قد سمعتَ فما عندك ؟ فقال : قد عرّفتكم أنّه لم يأت بخير ، وقد جعلتُ أمه حكما بينى وبينه ، فقوموا إليها ، فدخلوا عليها وقصّوا القصّة عليها ، فأقبلت على الجماعة وقالت : إن ابنى أبقاه الله ، قد نصح أباه وبرّه ، وأنا إلى بقاء أبيه أحوج منه إليه ؛ إلاّ أنّ هذا الأمر لم تقع فيه تجربة عندنا ، ولا جرت به عادة ، وهو قد ادّعى معرفة ذلك ،

---

(١) من الأغانى .

(٢) الخبر فى الاغانى ١٠ : ٢٦٣ ، ٢٦٤

فليبدأ بنفسه فليخصِها، فإذا عوفى ورأينا ذلك قد أبقَى عليه أثراً محموداً ، استعمله أبوه على علم ، فجعل القوم يضحكون ويَعْجَبُون من اتّفاقهم فى الخُبْث .

وأمره المهدىّ أن يلزم المسجد فى رمضان ، وقال له : إن تأخّرت فلشرب الخمر ، ولئن علمتُ ذلك لأقتُلنّك ، فشق عليه ذلك ، وتشفّع إليه بكل إنسان ، فلم يشفعه ، فأدخل إلى ريطة رقعة ، ـ وكان للمهدىّ لا يخالفها ـ وفيها :

أبلغا رَيْطة أنّى كنت عبداً لأبيها
فمضى يرحمه اللـ ـه وأوصَى بى إليها[1]
جاء شهرُ الصوم يمشى مِشيةً لا أشتهيها
قائداً القلة ليـ ـدْ ر كأنّى أبتغيها
تنطح القِبْلة شهرا جَبْهتى لا تأنليها[2]
فاطلبى لى فرَجاً مِنـ ـها وأجْرى لك فيها

فضحكت ، وقالت : يصبر حتى تمضى ليلة القَدْر ، فقال : إذا مضت ليلة القدْر فِىَ الشهر . وكتب إليها :

---

(١) بعده فى الأغانى :

وأرَاها نِسْيَقْنِى مثل نِسْيان أخيها

(٢) بعده فى الأغانى :

ولَقَدْ عِشْت زماناً فى فيافىّ وجيها
فى ليالٍ من شِتَاء كنتُ شيخاً أصطليها
قاعداً أوقِدُ ناراً لضِبابٍ أشْقَويها
وصَبُوحٍ وغَبُوقٍ فى عِلاب أحْتَسِيها
ما أبالى ليلة القدْ ر ولا تُشْمِعُنِيها

خافي إلهك في نفس قد احتُضِرَتْ قامت قيامتُها بين المصلِّينا
ماليلةُ القَدْرِ من همّي فأطلبَها إني أخاف المنايا قبل عشرينا
لابارك اللهُ في خيرٍ أؤمِّلُهُ في ليلةٍ بعد ماقنا ثلاثينا
يالَيلةَ القَدْرِ قد كَسَّرْتِ أرجُلَنا يالَيلةَ القَدْرِ حقًّا ماتُمنِّينا !

فلما قرأتها ضحكت ، ودخلت إلى المهدي فشفّعها[1] فيه . وأخباره كثيرة.

* * *

وعلى قوله : جاء شهر الصوم قال أبو القاسم الثعالبي : أنشدنيه الفقيه أبو الحسن بن زرقون :

أشهرَ الصَّوْم مامثلُك عند الله مِنْ شَهْرِ
على أنك حرّمت علينا لذّة السُّكْرِ
وقرْع الكأس بالكأس ورشفَ الثَّغْر بالثَّغْرِ
وإنّ والّذي شرّ فَ أوقاتَك بالذِّكْرِ
وما أمسى يصلّي فيـــك من شَفْعٍ ومِن وِتْرِ
لمسرورٌ بأن تَنْفي على أنّك من عُمْرِي

وقال ابن المعتز :

تجلّى عِشاءً هِلالُ الصِّيامِ بنحس على الكأس والبرّبطِ
وكم من فتًى راحَ بين القيا ن نَشْوَان ذا فرح مُفْرِطِ
وكان نشيطًا فلمّا رآ ه همّ بهمٍّ ولم يَنْشَطِ
فأعرض عنه كما أعرَضَت فتاةٌ عن الجانب الأشْمَطِ

(١) الخبر والشعر في الأغاني ١٠ : ٢٤٩ ؛ ٢٥٠

وقال ابن رشيق :

لاحَ لى حاجب الهلاك عِشاء فتمنّيت أنّنى من سَحابِ[1]
قلت أهلا وليس أهلا لما قُلْـــت ولـكن أسمعتُهـا أصحابى
مظهرٌ حُبّهُ وعندىَ بُغضٌ لعدوّ الـكؤوس والأكوابِ

الحبْقة : الضّرْطة ، والحلقة جماعة الناس ، وربما تؤدّى فضيحتُها أمام القوم إلى أن يموتَ صاحبها غمًّا ، وقد وُجد ذلك .

* * *

[أفاكيه]

وحَبَق أعرابىّ فى جماعة فاستحيا ، فأشار نحو استه ، وقال : إنهـا خَلْف نَطقتْ خُلْفا .

وذكر الحريرىّ أن مطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحماد الراوية كانوا يشربون ذات يوم ، ومعهم نديم لهم ، فبرزت منه فَلْتة ، فخجل وغاب عنهم أياماً ، فكتب إليه مطيع :

أمِنْ قَلُوصٍ غدت لم يؤذِها أحدٌ إلاّ تذكّرها بالرّمْل أوطانا
خانَ العِقال لها فانبتّ إذْ نَفَرَتْ وإنّمـا الذنب فيه للذى خانا
أظهرتَ منك لنا هُجراً ومعتبةً وغبتَ عنا ثلاثا لَسْت تَنْشانَا
هوّن عليك فما فى الناس ذو إبلٍ إلاّ وأينقه يَشْرُدْنَ أحيانا

دخل[2] أبو الفضل بديع الزمان على الصاحب بن عبّاد ، ففرح به ، وأجلسه معه على سريره ، فحَبَق البديع حَبْقة منكرة ، ثم أراد أن ينفىَ عن نفسه التّهمة ، فقال : يامولانا هذا صرير التخت ، فقال له : بل صفير « القحت » ، فخرج البديع خجلا ، وانقطع عن الوصول إليه فكتب إليه الصاحب :

---

(١) تقله فى التنف ١٢

(٢) يتيمة الدهر ٣ : ١٨٨

قل للصغيرى لاتذهب على خجلٍ من ضَرْطَةٍ أشبهت نايًا على عُودِ[1]
فإنّها الريح لاتسطيع تدفعُها إذ لستَ أنت سليمان بن داود

تزوّج أعرابيٌّ امرأة ، فلما دخل عليها عابثها ، فضرَطت ، فخرجت غضبى إلى أهلها ، وقالت :والله لا أرجع إليه أويفعل مافعلت، فقال لها: عودى لأفعل، فعادت ، فعابثها فضرَطت أخرى ، فقال :

طالبْتنِيَ دَيْنًا قديمًا فلمْ أُرْضِكِ حتى زدتِ فى قرضِكْ
فلا تلوميني على مُطْلِهِ إن كان ذا دأبَكِ لم أقضِكْ

قيل لأعرابىّ : ماتقول فى الضرطة ؟ فقال : لا بأس بها ، وربما سببت الضرطة وأنا راكع فى الصلاة .

قدم أبوعلقمة الأزدىّ على الفضل بن عبد الرحمن الهاشمىّ بالبصرة ، فقال الفضل لجلسائه : إذا جلسنا على المائدة وأبو علقمة معنا فليضرِطْ أحدكم ثم الآخر ثم الآخر ، وليمكن بين كلّ ضرطتين فرجة ، فلما وُضعت المائدة فعلوا ذلك ، فأخذ أبوعلقمة المائدة ، وقام بها ، فقيل له : إلى أين يا أبا علقمة ؟ قال : إلى المكنيف ، فمن أراد منكم أن يخرأ كان قريبًا .

وجلس ثقيل إلى بشار،فضرَط بشار ضَرْطَةمنكرة، فظن الرّجل أنها فلتة، فمشى فى حديثه ، فضرَط بشار ثانية وثالثة ، فقال له : ماهذا يا أبا معاذ ؟ قال : رأيتَ أو سمعتَ ؟ قال : بل سمعت ،قال: كلّ ماسمعت ريح لاتصدق حتى ترَى .

* * *

قوله : حُقّه ، أى وعاء الطّيب، ويقال له : حقّ والجمع حِقاق ، وتبدل عامتنا من قافه كافا ، والروائح المعطِرة مضرّة بهذه الهوام المنتنة ، وقد قال المتنبي :

بذى الغَباوة من إنشادِها ضررٌ تضرّ كما تضرّ رياح الورد بالجُعَلِ[2]

---

(١) يتيمة الدهر :
يابن الخضيرىّ لاتذهبْ على خجلٍ لحادث منك مثل النّاى والعودِ
(٢) ديوانه ٣ : ٤٠

قوله هبك ، أى حسبك .

* * *

[ترجمة الحسن البصرى]

وأما الحسن فهو أبو سعيد بن أبى الحسن البصرىّ ، وهو من التابعين . ولد بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وأمّه اسمها خَيْرة ، وكانت مولاة لأمّ سلَمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، فكانت تُعطِيه ثديَها إذا اشتغلتْ أمه ، فدرّ ثديها له باللبن ، فأظهر الله تعالى بركة ذلك اللبن عليه . وأبوه مولًى لامرأة من الأنصار ، وقيل إن أبويْه كانا مملوكين لرجل من بنى النّجّار، فتزوج امرأة فى بنى سَلِمة من الأنصار ، فساقهما إليها من مَهْرها فأعتقتهما ، وكان أحسنَ النّاس لفظاً وأبلغهم وعظاً ، وكان زاهداً عالماً مقدّماً فى العلم والدين على نظرائه من التابعين .

وكان الحجّاج له معظّماً ومتعجّباً من فصاحته ، ولم ينفكّ من مجلس وعظ أو تدريس علم ، إلى أن مات رحمه الله تعالى .

وقال أبو عمرو بن العــلاء : مارأيت قطُّ أوعظَ ولا أفصحَ من الحسن البصرىّ .

وقال أبو أيوب السّختيانىّ : ماسمع أحد كلامَ الحسن البصرىّ إلاّ ثقُل عليه كلام الرجال .

قال حُميد : قال لى الشعبىّ ونحن بمكة : أحبّ أن اختلِىَ بالحسن ، فقلت : ذلك للحسن ، فقال: إذا شاء، فجاء الشعبىّ ، فقلت له : ادخل عليه، فإنه فى البيت وحده ، فقال: أحبّ أن تدخُلَ معى، فدخلنا فإذا الحسنُ قبالة القِبْلة يقول : يابن آدم، لم تكن فكُوِّنت ، وسألت فأعطِيت ، وسئلت فمنعتَ ، فبئس ماصنعت ! ثم يذهب فيرجع بعَيد ذلك حتى أعادها مراراً ، فقال لى الشعبىّ : ياهذا انصرف فإن الشيخ فى غير مانحن فيه .

ولما دخل على الحجّاج فقال له : ماتقول فى علىّ وعثمان ؟ قال : أقول فيهما ما قال مَنْ هو خيرٌ منى بين يدىْ مَنْ هو شرٌّ منك ، قال : ومَنْ ذلك ؟ قال : موسى وفرعون حيث قال له فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾ (١) .

الشعبىّ قال : قدمنا على الحجاج فى البصرة فى جماعة من قُرّاء الشام والعراق فى يوم صائف شديد الحرّ ، وهو فى آخر ثمرتة أبيات ، فدخلنا الأوّل فإذا فيه الثلج والماء قد أرسل فيه ، وفى الثانى أكثر وفى الثالث أكثر ، والحجاج قاعد على سريره وعنبسة بن سعيد إلى جانبه ، فجلسنا على الكراسىّ ، ودخل الحسن آخر مَنْ دَخَل ، فقال الحجاج : مرحباً بأبى سعيد ! اخلع قميصك ، فجعل الحسن يعالج زرّ القميص فأبطأ به ، فطاطأ له الحجاج رأسه تلطّفاً به حتى حلّه ، وجاءت جاريةٌ بدُهْنٍ فوضعته على رأس الحسن وحده ، فقال له الحجاج : يا أبا سعيد ، مالى أراك منهوكَ الجسم ، لعلّ ذلك من قلة نفقة وسوء ولاية ! ألاَ نأمرلك بنفقة توسّع بها على نفسك ، وخادم لطيف ! فقال : إنى من الله تعالى لَفِى سَعة ونعمة وإنى منه لفى عافية ، ولكن الكبرَ والحرّ ، فأقبل الحجاج على عَنْبسة ، وقال : لاوالله ، بل العلم بالله والزهد فيما نحن فيه ، فلم يسمعها الحسن ، وسمعتها أنا لقُرْبى من عَنْبسة ، وجعل الحجاج يسأله حتى ذكر علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فنال منه ونِلْنا منه مرضاةً له ، وفَرَقاً من شرّه ، والحسن عاضٌّ على إبهامه ، فقال له : مالى أراك ساكتاً ؟ فقال : وما عسى أن أقول : فقال : أخبِرْنا برأيك فى أبى تراب ، قال : إنى سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢) ﴾ فعلىٌّ ممّن هدى الله ، ومن أهل الإيمان وابن عمّ نبى الله صلى الله

(١) سورة طه ٥١ (٢) سورة البقرة ١٤٣

عليه وسلم وختَنه على بنته ، أحبّ الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقتْ له من الله عز وجل، لن تستطيع أنت ولا أحدٌ من الناس بحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها . فتغيّر وجه الحجاج وقام مغضَباً عن سريره ، ودخل بيتاً خَلْفه. وخرجنا وأخذْت بيد الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ، أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره ، فقال : إليك عنى يا عامر ، ألستَ شيطاناً من الشياطين إذ توافقه فى رأيه ! ألا صدقت إذْ سُئِلت أو سَكَتّ فسلِمت ! فقلت : قلتها والله، وأنا أعلم بمافيها ، قال الحسن: فذلك أعظم فى الحجّة عليك ، وأشدّ فى التَّبِعة . ثم خرجت إلى الحسن التّحف والطّرَف ، وكانت له للنزلة واستخفّ بنا وجفانا ، فكان أهلاً لما أتى إليه ، وكنّا أهلا لما أتى إلينا ، فما رأيت مثل الحسن بين العلماء إلا مثل الفرس العربىّ فيما بين المقارِف ، وما شهدنا بعد مشهداً إلاّ بَرَز علينا بفضله ، وقال فيه ، وقلنا موافقة للولاة ، وكان يقول : جَدِّدوا هذه الأنفس فإنها سريعة الدثور ، واقْدَعُوها فإنها طامحة وإنكم إن لم تقدعوها تنزعْ بكم إلى شر غاية .

وقال لمطرّف بن عبد الله بن الشِّخير : عظ أصحابك ، فقال له : إنى أخاف أن أقول مالا أفعل ، فقال له : يرحمك الله ، وأيّنا يقول مايفعل ! يودّ الشيطان أنه ظفر بهذه منكم ، فلم يأمرْ أحد بمعروف ولم ينه عن منكر .

ونظر إلى الناس فى مصلّى البصرة يضحكون ويلعبون فى يوم عيد ، فقال: إن الله تعالى جعل الصوم مضمارا لعبيده ، ليستبقوا إلى طاعته ، ولَعَمْرِى لو كشف الغطاء لشُغِل محسن بإحسانه ،ومسىء بإساءته عن تَجْديد ثوب أو ترجيل شعر .

ومات فى سنة عشرة ومائة وله تسعون. وتقدم موتَ ابن سيرين بمائة يوم، ومات فى رجب ليلة الجمعة .

وقال عبد الواحد بن زيد : رأيت ليلة مات الحسن فى النوم أبواب السماء كأنها مفتّحة ، وكأنّ الملائكة صفوف ، فقلت : إن هذا لأمرٌ عظيم ، فقال لى قائل : ألا إنّ الحسن البصرىّ قدِم على الله وهو عنه راض !

وسمع بعض أصحابه فى منامه ليلة مات كأنّ منادياً ينادى فى السماء: ﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ ، واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه .

[ترجمة الشعبى]

والشعبىّ ، اسمه عامر بن عبد الله بن شرَاحيل بن عبيد بن ذى كبار الشعبىّ من شعب هَمْدَان ، وكنيته أبو عمرو ، منسوب إلى شعبان بن عمرو ، وهو من حِمْير ، فمن كان منهم باليمن فهو حميرىّ ، ويقال له شعبانىّ ، ومَنْ كان بالعراق فهو هَمْدانى، ويقال له شعبىّ . وولد لستّ سنين من خلافة عمر رضى الله عنه. سمع علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه والحسنَ والحسين وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وهو كوفىّ ، وبه يُضْرَب المثل فى الحفظ ، فيقال : أحفظ من الشعبىّ .

وقال الزُّهرىّ : العلماء أربعة : سعيد بن المسيّب بالمدينة ، وعامر الشعبىّ بالكوفة ، والحسن البصرىّ بالبصرة ، ومكحول بالشأم .

وقال ابن شُبْرُمة : سمعت الشعبىّ يقول : ما كتبتُ سوداء فى بيضاء إلى

يومى هذا ، ولا حدّثنى رجل قطّ بحديث إلا حفظته، ولا أحببتُ أن يُعيدَه علىّ.

وقال الشعبىّ لأصحابه : ما أروى شيئاً أقلّ من الشعر، ولو شئت لأنشدتكم شهرا لا أُعِيد .

وكان الشعبىّ فقيهاً عالماً حافظاً أديباً ، وقال : لولا ما زوجت فى الرحم ما قامت لأحدٍ معى قائمة .

وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إلىّ رجلا يَصْلُح للدين والدنيا ، أتّخذه سميراً وجليساً ، فبعث إليه بالشعبىّ ، فلما دخل عليه وجده مغتمًّا ، فقال : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال ذكرت قول زهير[1] :

كأنى وقد جاوزتُ تسعين حِجّةً ... خلعتُ بها عنّى عِذَارَ الجامِحِ
رمتْنى بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يَرْمِى وليس برامِ
فلو أننى أُرْمَى بنبلٍ رميتُها[2] ... ولكنّنى أُرْمَى بغير سهامى
على الراحتين تارة وعلى العصا ... أنوء ثلاثاً بعدهنّ قيامِى[3]

فقال له الشعبى : ليس كذلك ، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة :

كأنّى وقد جاوت سبعين حجةً ... خلعت بها عن مَنْكِبىّ رِدَائيا[4]

فلما بلغ سبعاً وسبعين ، قال :

---

(١) الأغانى « أصبحت كما قال عمرو بن قميئة » .
(٢) الاغانى « فلو أنها نبل إذاً لاتقيتها »
(٣) موضعه فى الأغانى :

وأهلكنى تأميلُ يوم وليلةٍ ... وتأميلُ عامٍ بعد ذاك وعام

(٤) ملحق ديوان لبيد ٣٦١

بانت تَشَكّى إلىّ الموت مجهشةً[1] وقد حملتُك سبعاً بعد سبعينا
فإن تراخَتْ ثلاثاً تبلغى أملاً[2] وفى الثلاث وفاء للثمانينا

فلما بلغ التسعين ، قال :

ولقَدْ سَئِمْتُ من الحَياةِ وطُولِها وسؤال هذى النّاسُ كيف لبِيدُ[3]
وغَنيتُ سبتاً قبل مجرى داحِسٍ لو كانَ للنّفْسِ اللّجوج خُلودُ

فلما بلغ عشرين ومائة ، قال :

أليسَ وَرَائى إنْ تراخَتْ منيّتى لزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ[4]
أخبِّر أخبارَ القُرون الّتى مَضَتْ أنوء كأنّى كلّما قمتُ راكعُ[5]

فلما بلغ ثلاثين ومائة حضرته الوفاة ، فقال :

تمنّى ابنتاىَ أن يعيش أبوهُما وهل أنا إلاّ من ربيعةَ أو مُضَرْ[6]
فَقُوما فقولاَ بالّذى أنا أهلُه ولا تخمِشا خدّا ولا تَحْلِقا شَعَرْ
وقُولاَ هو المرء الّذى لا صديقَهُ أضاعَ ولا خانَ الخَليلَ ولاَ غَدرْ
إلى الحوْلِ ثم اسمُ السّلام عليكما ومَنْ يبكِ حولاً كاملا فقداعْتَذَرْ

---

(١) الأغانى :

* قامت تَشكى إلىّ الموتَ مُجْهَشَةً *

(٢) الأغانى « فإن تزادى ثلاثا » .
(٣) ديوانه ٣٥ (٤) ديوانه ١٧١
(٥) الديوان :

* أدبُّ كأنّه كلّما قمتُ راكِعُ *

(٦) ديوانه ٢١٣ ، وبعده فى الديوان :

ونائحتانِ تَنْدُبانِ بعاقلٍ أخائقةٍ لا عين منه ولا أثَرْ
وفى ابنى نزارٍ أسْوةٌ إن جزعْتُما وإن تَسألاَهم تُخبَرا فيهمُ الخَبَرْ
وفيمن سواهم من ملوكٍ وسوقةٍ دعائمُ عرش خانه الدّهْرُ فانقعرْ

قال الشعبيّ : فلقد رأيت السرور فى وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها[1] .

وقال الحريرى فى الدّرّة : حدثنى أحد شيوخى أن ليلى الأخيليّة كانت تتكلم بلغة بَهْرَاء ، فتكسر حرف المضارعة ، فتقول: «أنت تِتْلم» فاستأذنتْ يوماً على عبد الملك بن مروان وبحضرته الشعبيّ ، فقال : أتأذن لى ياأمير المؤمنين فى المَضّ منها ؟ فقال : افعل ، فلما استقرّ بها المجلس قال لها الشعبيّ : ياليلَى ، مابال قومك لا يَكتنون! فقالت: ويحك أما نِكْتَنى - بكسر النون - فقال: لا والله ولو فعلتِ لاغتسلت ، فخجلتْ عند ذلك ، واستغرق عبد الملك فى الضحك .

الأصمعى: وجّه عبدُ الملك الشعبيّ إلى ملك الروم فى بعض الأمور، فاستكبر الشعبيّ ، فقال له : مِنْ أهل بيت الملك أنت ؟ قال : لا ، فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمّله رقعة لطيفة ، وقال له : إذا بلّغتَ صاحبك جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا فادفَعْ إليه هذه الرقعة ، فلمّا رجع إلى عبد الملك ذكر له ما احتاج إلى ذكره ، ونهض . فلما خرج ذَكر الرقعة ، فرجع فقال: ياأمير المؤمنين إنّه حَمّلنى إليك رقعة أنسيتُها ، فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك ، وأمر بردّه فقال : أعلمت ما فى الرقعة ؟ قال : لا ، قال : فيها عجبتُ من العرب كيف ملّكت غير هذا ! أفتدرى لم كتب إلىّ بهذا ؟ قال: لا ، قال: حسدنى عليك ، فأراد أن يُغْرِيَ بى بقتلك، فقال الشّعبيّ: لو رآك ياأميرَ المؤمنين ما استكبرنى . فبلغ ذلك ملك الروم، فذكر عبد الملك وقال : لله أبوه ! والله ما أردت إلا ذلك .

وكان الشعبيّ خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على الحجّاج ، فلما هُزِم عبد الرحمن أُتِيَ به موثقاً مع الأسرى ، وكان حكمُ الحجاج فيهم : مَنْ أقرّ أنه كافرٌ أبقاه ، ومن أقرّ أنه مسلم قتله . قال : فلما جئتُ باب القصر لقيَنى يزيد ابن مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبيّ ، لِمَا بين دفتيك من العلم ! وليس

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٨ ، ١٤٣ .

بيوم شفاعة، فقلت له : وما المخرج ؟ فقال بُؤْ للأمير بالشرك والنفاق ، وبالحرى أن تنجو ، فلمّا دخلتُ على الحجاج قال لى : وأنت ياشعبيّ ممن خرج علينا ! قلت : أصلح الله الأمير ! أحْزَن بنا المنزل ، وأجدَب بنا الجناب ، واستحلَسْنا الخوف ، وضاق الملك ، وخبطتنا[1] فتنة ، لم نكن فيها بررة أولياء ، ولا فجَرة أقوياء ، قال : لله أبوك ! لقد صدقت والله ما بررتم بخروجكم علينا ، ولا قويتم. خلّوا سبيلَه .

وكلم ابنَ هبيرة فى قوم حبسهم ، فقال : إن كنت حبستَهم بباطل ، فالحقُّ يُطلِقهم ، وإن كنتَ حبستَهم بحقّ فالعفو يَسَعُهم.

ودخل عليه رجل من النَّوْكَى ، وهو جالس مع امرأة ، فقال : أيُّكما الشعبى ؟ فقال له: هذا ، فقال: ماتقول أصلحك الله فى رجل شتَمنى فى أوّل يوم من رمضان هل يُؤجر ؟ فقال له الشعبىّ : أما إن كان قال لك: يا أحمق ، فأرجو له الأجر .

وسأله آخر، فقال : ماتقول فى رجل أدخل إصبعه فى أنفه فى الصلاة ، فخرج عليها دم ، أترى له أن يحتجم ؟ فقال : الحمد لله الذى نَقَلَنا من الفقه إلى الحجامة.

وسأله آخر : كيف كانت تسمى امرأة إبليس ؟ قال ذلك نكاح لم نشهده

ودخل الحمّام فرأى داود الأودِىّ بلا مئزر ، فغمّض عينيه ، فقال له داود : مَتَى عميت ياأبا عمرو ؟ فقال : مذ هتَك الله سترك . ومات فى سنة أربع ومائة وهو ابن اثنتين وثمانين سنة .

[ذكر الخليل بن أحمد]

والخليل رحمه الله هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصرِىّ الفراهيدىّ، ينسب إلى فراهيد بن مالك بن فَهم بن عبد الله بن مالك بن نصر الأزدى ، ويقال : اليَحْمَدىّ . واليحمَد بطن من الأزْد .

(١) ط : « خطبتنا »